



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ





محور آسيا

سنكيانغ: آسيا الداخلية المتاخمة لروسيا والصين

اوين لاتي مور

بمساعدة كل من: تشانغ تشيه يي، الينور لاتي مور، تشن هان سنغ، كارل هـ. مينغز، جوان دي فرانسييس، دانييل ثورنر، توماس دينز



ترجمه من الإنجليزية: رحمة الله عناية الله أحمد تركستاني



مركز الدراسات الأويغورية



محور آسيا

سنكيانغ: آسيا الداخلية المتاخمة لروسيا والصين

اوين لاتييمور

بمساعدة كل من:

تشن هان سنغ
دانييل ثورنر

الينور لاتييمور
جوان دي فرانسيس

تشانغ تشيه يي
كارل هـ. مينغز
توماس دينز

ترجمه من الإنجليزية: رحمة الله عناية الله أحمد تركستاني

دار النشر : مركز الدراسات الأويغورية
تصميم الصفحات : ع. آقهيون
تاريخ النشر : ٢٠٢٥م - ١٤٤٦ هـ
الترقيم الدولي : ٩٧٨-١-٩٦٨٤٠٧-٣٠-٨

وحقوق الطبع محفوظة



مركز الدراسات الأويغورية

I St NW 1725

SUITE 372

Washington, D.C. 20006

www.uyghurstudy.org

contact@uyghurstudy.org

تقديم الكتاب

فإنَّ تركستان التي تقع مجزأةً بين الصين وروسيا، هي بلاد إسلامية ساهمت بقسط وافر في بناء الحضارة الإسلامية والعربية في عصر الحضارة الذهبي، ولا تزال مؤلفات أبنائها متداولةً في الجامعات والمعاهد العلمية وساحات الفكر والثقافة حتى اليوم، بيد أنَّ الأمر الذي يؤسِّف له أنَّ الأمة الإسلامية- التي لا تزال تستمدُّ ثقافتها وحضارتها من مؤلفات الإمام البخاري والترمذي والسرخسي والفارابي والبيروني والكاشغري وغيرهم من مئات العلماء والأدباء الذين أنجبتهم تركستان- لا تعرف اليوم شيئاً عمَّا آلت إليه أحوال أحفاد أولئك العلماء، وما أصاب بلادهم وأوطانهم- وخاصة الجزء الشرقي من تركستان- من الظلم والاستبداد.

ولا توجد محاولات جادة من أبناء هذه الأمة الإسلامية لمعرفة ما حدث ويحدث لهم، و{كأن في آذانهم وقراً}، أو كأن الأمر لا يعينهم أبداً، بينما كثير من المستشرقين الأوروبيين على اختلاف أوطانهم ولغاتهم يجدون في تركستان المسلمة ما يدفعهم إلى دراسة شعوبها وحضارتها وتاريخها وآدابها وأحوالها.

ورغبةً في إثراء المكتبة العربية، التي لا تجد فيها كتاباً عن تركستان إلا نادراً، ولا سيما تركستان الشرقية، التي أسَمَّتها الصينُ الشيوعية (سنكيانغ= شينجانغ)، أحببتُ أن أقدم الترجمة العربية لكتاب أحد أشهر المتخصصين بشؤون آسيا الوسطى الصينية، وهو (اوين لا تيمور)، ولعل هذا الباحث وكتابه يجذبان انتباه الباحثين إلى هذه البلاد الإسلامية، التي يتطلع أهلها إلى الدعم والاهتمام ونصرة الحق قبل أن يُقضى على شعبها المسلم بالإبادة والتهجير، كما يتضح من الممارسات الجائرة التي تمارسها الصين؛ لطمس هويتها وفصم عُراها عن

العالم الإسلامي في الوقت الحاضر.

وإنَّ هذا الكتاب - الذي ترجمته - قد يكون من أفضل الكتب التي وُضعتُ عن تركستان الشرقية قبيل الغزو الشيوعي، بقلم باحث أمريكي عُرف عنه سعةُ العلم والاطلاع بها، ولكن يؤخذ عليه اعتمادهُ الكبير على المصادر الصينية، والاستعانةُ بالمتخصصين الصينيين، وإهمالهُ المصادرَ التركستانية المحلية، مما أدى إلى سرد السياسة الصينية التي انتهجتها حكومة ما قبل الدولة الشيوعية بدون تركيز على الحركات الوطنية والقومية لشعب تركستان، وكأن الكتاب يعالج مناهج الحكم الصيني بدون تحليل واضح على آثارها في الشعب التركستاني المستهدف، ويترجم تاريخه الوطني .

تقديم المؤلف

لقد عرّف اوين لاتيّمور في مقدمة الكتاب بالباحثين الذين كان لهم فضل المشاركة والمساهمة في وضع الكتاب، موضّحًا شخصياتهم العلمية وعلاقتهم بموضوعات الكتاب، حتى يضيفي على ذلك الجدية والعلمية في إعداد الموضوعات.

ولكن اوين لاتيّمور الذي يرجع إليه الجهد الأكبر في إدارة أعمال الندوة في إخراج هذا الكتاب عن تركستان الشرقية، لم يشأ التعريف بشخصه، ولعله شاء الاكتفاء بشهرته الواسعة في مجال دراسات آسيا الداخلية.

وقد يكون من المفيد التعريف به من خلال السطور التالية:

ولد اوين لاتيّمور في واشنطنون في ٢٩ يوليه ١٩٠٠م، وذهب طفلاً رضيعاً مع والده، الذي كان يعمل مدرساً في بعض الجامعات الصينية في الصين في عام ١٩٠١م-١٩٢١م، وقضى طفولته في الصين، وتلقى تعليمه من والديه، حيث تعلم الفرنسية والألمانية واللاتينية على يد والده، ودرس الرياضيات على والدته، ثم بعثه والده إلى سويسرا لإتقان اللغتين الفرنسية والألمانية، وإلى إنجلترا لدراسة الأدب اللاتيني واليوناني والفرنسي والإنجليزي فيما بين ١٩١٢م-١٩١٩م، ومع هذا الاهتمام المبكر بالتعليم، إلا أن الظروف المالية للأسرة حالت دون التحاقه بالجامعة فعاد إلى الصين، ولكنه عمل في بعض المؤسسات الصحفية والتجارية مما أكسبه معرفةً جيدةً بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتعلم اللغة الصينية في أوقات فراغه، وفي عام ١٩٢٦م تزوج (الينور هولغيت Eleanor Holgit) التي كان والدها أستاذاً جامعياً في

أمريكا، ثم قرر الزوجان القيام برحلة من الصين إلى الهند عبر آسيا الداخلية. وفي عام ١٩٢٦م بدأ رحلته الأولى إلى تركستان الشرقية، عبر منغوليا الداخلية إلى إسبن كول وصحراء غوبي إلى كوجنغ تز ثم أورومجي عاصمة تركستان الشرقية، ومن هناك بعث برقية إلى زوجته في بكين يطلب منها أن توافيه إلى تركستان الشرقية، ورحلت الزوجة بالقطار عبر الأراضي السوفياتية إلى أن وصلت مع قافلة روسية إلى مدينة جوكوجاك حيث التقت بزوجه المنتظر، ثم تجول الزوجان في مدن: أورومجي، تورفان، غولجه، أقسو، كاشغر، ياركند، ثم عبر الاثنان ممرّ قره قورام إلى لاداخ وكشمير إلى بومباي و منها إلى إيطاليا في شتاء عام ١٩٢٧م.

وفيه - أي: شتاء عام ١٩٢٧م - وضع اوين لاتيمور كتابه الأول عن تركستان الشرقية باسم: «الطريق الصحراوي إلى تركستان The Desert Road to Turkistan» وذلك في وصف رحلاته السابقة، وبعد أن عمل فترة في مكتبة الجمعية الجغرافية الملكية الإيطالية ذهب إلى لندن، حيث منحه الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية جائزة؛ لرحلاته في تركستان الشرقية، ثم عاد إلى أمريكا فدرس الأنثروبولوجيا في جامعة هارفارد لمدة سنة واحدة، وكتب كتابه الثاني: «تاريا العليا High Tartary» المنشور عام ١٩٣٠م، ونشرت زوجته الينور كتابها: «عودة وحدة تركستان Reunion of Turkistan» في عام ١٩٣٤م.

وفي خريف عام ١٩٢٩م ذهب اوين لاتيمور مع زوجته إلى منشوريا للاستطلاع والدراسة، وكانت ثمرة رحلاتهما كتابيهما المنشورين من الجمعية الأمريكية الأنثروبولوجية: «منشوريا مهد الأزمة: [Manchuria: Cradle of C](#) [Conflict](#)». في عام ١٩٣٢م، و«مغول منشوريا The Mongols of Manchuria»، في عام ١٩٣٤م.

وفيما بين ١٩٣٠م - ١٩٣٣م قام اوين لاتيمور بعدة رحلات استطلاعية إلى

منغوليا الداخلية، حيث تعرّف إلى بعض زعمائها الوطنيين المناهضين للحكم الصيني، كما تعلم اللغة المغولية، ثم عاد إلى أمريكا في صيف ١٩٣٣م، وترأس تحرير مجلة (شؤون الباسفيك) التي ينشرها معهد علاقات الباسفيك، ومنحته جمعية فيلادلفيا الجغرافية ميدالية ذهبية؛ اعترافاً برحلاته وكتاباته الجغرافية، ثم في عام ١٩٤١م رشّحه الرئيس روزفلت مستشاراً للجنرال تشانغ كاي شيك، وقد كان مديراً للمعهد والترهينس العالي للعلاقات الدولية في جامعة جون هوبكنز، وخلال الحرب العالمية الثانية عاد إلى أمريكا ليتولى رئاسة القسم الآسيوي في مكتب الإعلام الحربي، كما رافق الرئيس الأمريكي واليس في زيارته إلى الصين وسيبيريا ومنغوليا في عام ١٩٤٤م، وكذلك ترأس بعثة الأمم المتحدة إلى أفغانستان؛ لدراسة المساعدات العلمية في تطوير الاقتصاد في عام ١٩٥٠م، وقد نشر كتابه «الحل في آسيا» عام ١٩٤٥م، و«الوضع في آسيا» في عام ١٩٤٩م، كما وضع - بمساعدة عدد من الزعماء المغوليين الذين جلبهم معه إلى أمريكا وألحقهم بمعهد العلاقات الدولية خلال عام ١٩٤٨ - ١٩٥٠م - كتاب «الوطنية والثورة في منغوليا» المطبوع عام ١٩٥٥م، وترجم كتاب «حياة سوخ باتار» لمؤلفه: ش. ناتساغدورج، كما وضع كتاب «محور آسيا» بمساعدة عدد من الباحثين عن تركستان الشرقية، المنشور عام ١٩٥٠م، وظهر له في نفس العام كتابه «إفتراء ومحنة»، كما وضع مع زوجته ينور كتاب «الصين: موجز تاريخي» في عام ١٩٤٧م، ثم اشترك معها في تأليف كتاب «الحرائر والبهارات والإمبراطورية» الذي يتضمن موضوعات متنوعة عن النشاط الأوروبي في آسيا في عام ١٩٤٨م، ثم نشر كتاب «القبائل والنواب: زيارة منغوليا الثانية» بعد زيارة جمهورية منغوليا الشعبية مع زوجته في عام ١٩٦١م، وأخيراً نشر بحوثه ومقالاته المختلفة في كتاب «دراسات في تاريخ الحدود» في عام ١٩٦٤م.

علاوة على هذه الكتب عن المناطق غير الصينية مثل تركستان الشرقية ومنغوليا ومنشوريا، والكتب التي نشرها عن رحلاته الكثيرة إلى مناطق الصين

المتاخمة لروسيا، فقد نشر مئات البحوث والدراسات في مجلات علمية مختلفة، وألقى الكثير من المحاضرات في مختلف الجامعات في أمريكا وأوروبا، وترأس عددًا من الجمعيات العلمية التي تهتم بشعوب المناطق غير الصينية في أمريكا وأوروبا.

مقدمة الكتاب للمؤلف

إن سنكيانغ التي تقطنها شعوب غير صينية في معظمها أقاليم صينية، تقع في الباب الخلفي لإمبراطورية الهند القديمة، التي تتصارع فيها حالياً القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية في دولتي الهند وباكستان، كما تقف على أحد الأبواب الرئيسة للاتحاد السوفياتي، وهو الباب المنيح لأشكال قوى التأثير التي تديرها السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، وأخيراً تقع هذه الأقاليم أيضاً على زاوية حدود الصين الخلفية التي كانت خلال عدة قرون باب الصين الخلفي، وكانت مخرج الصين الأمامي إلى قلب آسيا، واستعادت حالياً أهميتها منفذاً إستراتيجياً صينياً إلى آسيا الوسطى.

وفي القرن التاسع عشر عندما كان التوسع الروسي يزحف على آسيا الوسطى، كان الاهتمام الأمريكي قوياً بمنطقة آسيا الوسطى، لقد كان الأمريكيان عندئذ يتعاطفون مع الروس في المنافسة التي اشتعلت بين إمبراطوريتي روسيا وبريطانيا في السيطرة على المنطقة، وذلك انطلاقاً من الاتجاه التقليدي المعادي لبريطانيا الذي كان يغمر الأمريكيان في تلك الفترة، وكان الروس في نظرهم أكثر كفاءة في بناء الإمبراطورية، ولما كتب ايوجين شويلير عضو الهيئة الدبلوماسية الأمريكية كتاباً كلاسيكياً عن الانتصارات الروسية، كان سحر اسم تركستان سبباً في انتشار وذيوع الكتاب^[1].

وأما بعد الحرب الروسية - اليابانية في عامي ١٩٠٤-١٩٠٥م فقد تضاءل الاهتمام الأمريكي بالمنطقة، ذلك لأن أمريكا وبريطانيا جمعت بينهما أهدافاً ضمنية لمساعدة اليابان في مواجهة المطامع الروسية على موانئ المياه الدافئة في الباسفيك، ولم تؤد الثورة الروسية أو الدور الذي لعبته أمريكا بالتدخل في

[1] Eugene Schuyler: Turkestan, New York, 2 vols, First edition 1876 and Second 1877

سيبيريا في هذه الفترة إلى إنعاش الاهتمام الأمريكي بهذا الجزء الشاسع من البلاد الواقعة بين روسيا والصين، أو التي تسكنها شعوب كثيرة أو تسيطر عليها أقليات صينية وروسية.

يُبد أن الاهتمام الأمريكي ما لبث أن تحرك بعد هزيمة اليابان وألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وخاصة منذ عام ١٩٤٥ م، حيث صار من أحد أهداف السياسة الأمريكية الرئيسة هو حصر ومقاومة التوسع الروسي، أو تزايد نفوذه في أية بقعة من العالم، وقد تجلّى هذا الاهتمام في المناطق المتاخمة لروسيا الآسيوية، مثل إيران وأفغانستان، وذلك بتزايد النفوذ الأمريكي لمقاومة التغلغل السوفياتي.

وفي عام ١٩٢٦ م خلال فترة انصراف الاهتمام الأمريكي عن منطقة آسيا الداخلية المتاخمة لروسيا والصين، قمتُ مع زوجتي برحلات في هذه المنطقة التي جذبتني إليها، دارساً وباحثاً وكاتباً عن أحوال شعوبها اللاصينية واللاروسية أكثر من عشرين عاماً لاحقة.

وفي عام ١٩٤٧ م رصدتُ مؤسسة كارنيجيه Carnegie Corporation مبلغ (١٢) ألف دولار لمعهد العلاقات الدولية في جامعة هوبكنز؛ لعقد ندوة عن آسيا الداخلية، وفي هذه الندوة تكوّنت مجموعةً لدراسة مقاطعة سنكيانغ، وقد بدأت عملها بجمع المواد الضرورية لدراسة شاملة عن المنطقة المركزية، التي تتلاقى فيها حدود الصين والتبت والهند وأفغانستان والاتحاد السوفياتي، ومن دراسة المواد التي جُمعت تم تحليل مختلف القوى التي تتصارع في هذه المنطقة المحورية.

ومع أن حدود كل هذه الدول المختلفة تلامس الأخرى مباشرة، ومنها من تلامس أكثر من حدود واحدة في سنكيانغ محور هذه المنطقة الواسعة التي تعرف بآسيا الداخلية، وتتصل بالشرق الأوسط، وبالشرق الأقصى بجمهورية منغوليا الشعبية.

إن استعمال مصطلح آسيا الداخلية على هذه المنطقة يكون أكثر شمولاً من آسيا

الوسطى، الذي أُطلق في القرن التاسع عشر، بمدلوله المحدود على الأراضي التي عُرفت بالتركتستان الصينية والروسية؛ لأن اسم آسيا الداخلية يمكن إطلاقه على مجموعة من البلدان والأراضي والمقاطعات التي لا تطل على البحر مثل سنكيانغ والتبت وكشمير وبعض الدول الصغيرة على حدود الهند وأفغانستان وجمهوريات الاتحاد السوفياتي الآسيوية وجمهورية منغوليا الشعبية، وأراضي منغوليا الداخلية في الصين، وكذلك بعض الأقطار والمناطق مثل إيران ومقاطعات منشوريا في الصين التي تشرف على البحار، ولكنها ذات روابط قوية مع منطقة آسيا الداخلية، ومن أجل ذلك تم استحسان استعمال مصطلح آسيا الداخلية في هذا الكتاب.

لقد ظهر هذا الكتاب بتضافر الجهود الشخصية والجماعية، وكانت نقطة الانطلاق هي المنحة التي قدمتها مؤسسة كارنجيه، حيث تكوّنت بمساعدتها ندوة آسيا الداخلية التي يمكن تسميتها لجنة دراسة الأراضي الداخلية، ومن خلال التركيز الجغرافي يتم البحث والدراسة منحصراً على منطقة الاتصال والاشتباك التي تقع بين الصين وروسيا وإيران والهند.

وقد ساعدت جامعة كولومبيا ومعهداها الخاص بالدراسات الروسية بمشاركة كل من الدكتور كارل هـ. منغر Karl H. Menges، والسيد توماس وينر Thomas Wiener في الندوة، كما قدّم معهد هوفر ومكتبة الحرب والسلام في استانفورد صحفًا ومنشورات قيمة عن سنكيانغ، معظمها بالأويغورية، إلى جانب مواد صينية وروسية ومغولية وقازاقية وقيرغيزية ومانشورية، ولكن الاستفادة الأكثر كانت من مكتبة الكونغرس التي خصصت غرفة لأعضاء الندوة في سبيل تسهيل الاطلاع، وكذلك الدكتور أ.أ. هورفات A.A. Horvath من بريستون في ولاية نيوجرسي، وكان العضو الزائر الذي كان كريمًا بالمساعدة بتقديم بعض المراجع والكتب من مكتبته الشخصية، وملاحظاته القيمة عن المراجع.

وأما الاعضاء الذين لهم المساهمة المباشرة في إخراج هذا الكتاب، فهم:

السيد تشانغ تشيه يي Chang Chih-yi: زميل في المعهد العالي ومساعد باحث في أكاديمية سينيكا Sinica، وقد تلقى تعليمه في منشوريا، مما يعكس اهتمامه القديم بالمنطقة، وفي عام ١٩٤٤م قام بدراسة ظاهرة ألواح الجنوب في سنكيانغ تحت إشراف أكاديمية سينيكا، وأما جهده في هذا الكتاب فهو يشترك في تحرير فصل: (الجغرافيا والتطور الاقتصادي).

الدكتور تشن هان سنغ Chen Han-seng عضو المعهد العالي فيما بين ١٩٤٦ - ١٩٤٨م، وباعتباره عضواً بارزاً في أكاديمية سينيكا Sinica قام خلال السنوات العشرين الماضية بدور ريادي في وضع قواعد ونظريات علمية حديثة في دراسة الاستيطان في منشوريا، وأثناء الحرب قام بعمل ميداني مستقل على الحدود الصينية - التبتية، والحدود الصينية - البرماوية، وهو مرجع ثقة في مجال الدراسات الاقتصادية والاجتماعية لمختلف المناطق الصينية، كما أنه أحد العلماء الصينيين البارزين في تاريخ الاقتصاد الزراعي، وصاحب الرأي المتميز في تطور مجتمعات الحدود غير الصينية التي تأثرت بالثقافة والسيطرة الصينية، ويتجلى مساهمته في هذا الكتاب في الفصول التي تعالج السياسة الصينية والبنية الاجتماعية وآسيا الداخلية على مفترق الطرق.

الدكتور جون ده فرانسيس John De Francis من هيئة المعهد العالي الذي كان مساعدي الكفاء في إدارة أعمال الندوة وتنسيق عمل الأعضاء، كما قام بنفسه بأهم أجزاء الكتاب في تحليل مختلف المذاهب الوطنية في سنكيانغ وعلاقتها المتميزة والمتشابهة مع القوميات، ويتميز الدكتور ده فرانسيس من بين علماء الاجتماع الأمريكيين بأنه صاحب دراسات رائدة في ميدان دراسة الوطنية في الشرق الأقصى، ولا سيما فيما يعبر عنه (بقومية اللغة) وبعض الإشكال الأخرى للثقافة القومية، ويعد كتابه: (الوطنية والإصلاح اللغوي في الصين)^[1] دراسة قيمة لمعالجة الموضوع في الصين المعاصرة، وفي سبيل تحقيق هذا

[1] Nationalism and Language Reform in China, Princeton University Press 1950

العمل والموضوعات المشابهة له، قام الدكتور ده فرانسيس برحلات خاصة إلى منغوليا الداخلية وشمال غرب الصين، ثم اهتم ببحث تاريخ الصين القديم، وكذلك درس لفترة طويلة متوأصلة الأدب النظريّ والبرامج السياسية لكل من الكومنتانغ والأحزاب الصينية السياسية الأخرى والحركات الفكرية، ومساهمته في هذا الكتاب تتركز في الفصل الخاص بشعوب سنكيانغ.

السيدة الينور هولغيت لاتي مور Eleanor Holgate Lattimore عضوة متطوعة في الندوة، قامت بتسجيل كافة المناقشات التي جرت في الندوة، كما راجعت الكتابات التمهيديّة والتحليلية، وكذلك التسجيل النهائي لها، وبدونها ما كان لهذا البحث الجماعي أن يحقق التكامل المنشود.

الدكتور كارل هـ. منغز من جامعة كولومبيا شارك في أعمال الندوة ومناقشاتها بأرائه ومعلوماته عن لغات آسيا الوسطى وتاريخها، وعلاقات اللغة بالجوانب الثقافية الأخرى، وهو خبير في لغات ترك — مغول أو الألتائية، مثلما هو ضليع باللغة السلافية، وقد قام الدكتور منغز برحلتين إلى جمهوريات آسيا الداخلية السوفياتية في فترة ما بين الحربين العالميتين؛ لجمع المواد المتنوعة، كما نشر نصوصاً أدبيةً من سنكيانغ^[1]، ودرس وساهم في أعمال الندوة بترجمة المواد من مكتبة هوفر.

الدكتور دانيال ثورنر Daniel Thorner عضو هيئة التدريس في المعهد العالي فيما بين ١٩٤٧-١٩٤٨ م، والأستاذ المساعد حاليًا في برنامج دراسات مناطق جنوب آسيا في جامعة بنسلفانيا، وقد عمل فترة في إدارة الاقتصاد الخارجي للولايات المتحدة في الهند في أثناء الحرب، وكانت له بحوث عن التطور الاقتصادي والسياسي الحديث في الهند في العقد الماضي، ودراسة الصراع

[1] Volkskudliche Texte aus Ost-Turkistan, aus dem Nachlass von N. The.Katanov herausgegeben, Berlin, I,1933, II,1943, (Dr Menges's name was suppressed when these volumes were published in Germany)

الأنجلو-الروسي في آسيا الداخلية، وفي هذا الكتاب ساهم في كتابة فصلي: (الصراع الأنجلو-الروسي، وآسيا الداخلية في مفترق الطرق) بالإضافة إلى أن زوجته السيدة أليس ثورنر ساهمت في تحرير تأثير الأدب العالمي على الفن والأدب في سنكيانغ.

السيد توماس وينر Thomas Wiener من جامعة كولومبيا الذي قام بدراسة القومية في آسيا الوسطى السوفياتية، وخاصة القومية القازاقية في القرن التاسع عشر قبل الانضمام إلى الندوة، فقد اشترك في كتابة فصل القوميات وملحق الأدب والمهارة اللفظية في هذا الكتاب.

ومع أن جميع دراسات وبحوث هذا الكتاب تعود إلى الأعضاء، ومساهماتهم العلمية في معظم أجزاء هذا الكتاب، إلا أن جميع الفصول وُضعت بعد مداولاتها ومناقشاتها من طرف جميع الأعضاء، وأما القرارات النهائية وماهية البحث وكيفيته، فتعود إلى شخصي - وعلى الرغم من أن جميع الحقائق المذكورة في هذا الكتاب عولجت بعناية وصيغت بدقة، ولكن يحتمل أن يظهر بعض الأخطاء فيما بعد، كما أنه بالإمكان دائماً معارضة الآراء، وعلى أي حال فأنا المسؤول الوحيد عن أي أخطاء إن وجد.

— اوين لا تيمور

الفهرس

٣	تقديم الكتاب.....
٥	تقديم المؤلف.....
٩	مقدمة الكتاب للمؤلف.....
١٩	الفصل الأول: مركز جاذبية جديدة في العالم.....
١٩	سنكيانغ: محور آسيا.....
٢١	المدخل التاريخي.....
٣٥	القوى المسيطرة على مركز الجاذبية.....
٤٢	الفصل الثاني: الصراع الأنجلو الروسي في سنكيانغ ١٨٠٠-١٩١٧.....
٤٢	البداية البريطانية وبناء الإمبراطورية الروسية:.....
٤٩	يعقوب بك مغامر آسيا الداخلية:.....
٥٦	عصر استقرار الإمبراطوريات قبيل الثورة الروسية:.....
٦١	الفصل الثالث: السياسة الصينية في سنكيانغ.....
٦١	قع ثورة المسلمين.....
٦٩	الإقطاعية البيروقراطية ١٨٨٤-١٩٣٣م:.....
٨٦	شنغ شي تساي حرباء الحرب Sheng Shih-ts'ai:.....
٩٧	انهيار سياسة الصين في منطقة الحدود.....
١١٩	الفصل الرابع: شعوب سنكيانغ.....
١١٩	السكان:.....

- ١- الألتائية: ١٢١
- ٢- الهندو- الصينية: ١٢٢
- ٢- الهندو- أوروبية: ١٢٢
- القوميات وصفاتها ١٣٦
- ١- الأويغور الأغلبية القومية في سنكيانغ: ١٣٦
- ٢- القوميات الأخرى ذات الأقليم الخاص: ١٤١
- القازاق: ١٤١
- القيرغيز: ١٤٦
- المغول: ١٤٨
- الإيرانيون: (ساري كول- تاجيك): ١٥٢
- ٣- قوميات بدون مناطق أساسية لها ١٥٤
- الصينيون: ١٥٤
- الروس: ١٦٠
- المانشور Manchus: ١٦٢
- الأوزبك: ١٦٤
- التتار: ١٦٥
- الفصل الخامس: الجغرافيا والتطور الاقتصادي** ١٦٧
- الجبال والصحاري والسهول والشعب: ١٦٧
- الحياة الرعوية: ١٧٠
- الزراعة في ألواحاح: ١٧٢
- التجارة وموارد المال: ١٨٦
- الفصل السادس: البنية الاجتماعي: الماضي** ٢٠٠
- إرث الاقطاع: ٢٠٠
- دورات المركزية واللامركزية: ٢٠٠
- بقايا التاريخ ٢٠٤
- الفصل السابع: آسيا الداخلية في مفترق الطرق** ٢١٩

٢٢٠.....	الثورة الروسية وأثرها:
٢٢٩.....	سنكيانغ تحت شبح اليابانيين:
٢٣٤.....	الثورة الصينية تصل إلى سنكيانغ:
٢٤٠.....	الكومنتانغ والشيوعيون الصينيون والحدود الروسية
٢٤٣.....	الملحقات
٢٤٣.....	الملحق الأول: الفن القديم وعلم الآثار الحديث
٢٦١.....	الملحق الثاني: الأدب والفن اللفظي للأويغور والقازاق والقيرغيز
٢٨١.....	الملحق الثالث: الحدود العالمية... ملتقى بامير
٢٩١.....	الملحق الرابع: سنكيانغ... وأول قرض أجنبي
٢٩٥.....	الملحق الخامس: مناطق سنكيانغ
٢٩٩.....	الملحق السادس: تربة سنكيانغ
٣٠١.....	الملحق السابع: الزيت في سنكيانغ
٣٠٣.....	الملحق الثامن: بعض أسماء الأماكن في سنكيانغ ومرادفاتها

الفصل الأول: مركز جاذبية جديدة في العالم

سنكيانغ: محور آسيا

يتكون مركز جاذبية جديدة في العالم، وإن كان موقعه في الصين، إلا أن القوى السياسية التي تغزوه من روسيا، بالإضافة إلى الأفكار والتيارات التي تصله من أمريكا، مع ما في المركز من تيارات دينية- وما ينتقل إليه من الشرق الأوسط- وثقافية وفكرية وسياسية تدخل إليه من الصين وروسيا والهند.

وتحتل سنكيانغ أكبر جزء من محور هذا المركز الجاذبي الجديد في آسيا الداخلية الصينية، ومثل الهند الصينية فإن ٩٠٪ من سكانها من غير الصينيين، بل يشعرون أنهم مستعمرون، وغير مواطنين في الجمهورية الصينية، وينقسمون مثل شعوب الهند إلى مجموعات مختلفة دينياً ولغوياً، ولكن الشعور القومي المتنامي يعمل على توحيدهم أو تفريقهم بطريقة وأخرى.

والإسلام في هذه البلاد كما هو في الهند ليس ديناً فحسب، بل هو قوة سياسية، وأخيراً فإن معظم شعب سنكيانغ يتصل بروابط لغوية وتاريخية وقومية مع مختلف الشعوب في الاتحاد السوفياتي وجمهورية منغوليا الشعبية، وبدرجة أقل مع أفغانستان.

والدائرة ذات البعد الجغرافي القطري البالغ ألف ميل تتمركز في أورومجي عاصمة سنكيانغ، وتضم أنواعاً متباينة من التخوم أكثر تنوعاً مما قد لا يوجد في أي بقعة أخرى في العالم بتلك المساحة.

وفي هذا المركز تتأخم شعوب الترك والمغول والصين والتبت والهند

وأفغانستان التي تتكلم بلغات تلك الشعوب السائدة في آسيا الداخلية، كما أن هناك تداخلاً بين المسلمين وبين معتنقي الأديان البدائية والبوذية والمسيحية الأرثوذكسية والإلحاد السوفياتي، وفيه أيضاً حدود سياسية تفصل بين الدول المستقلة والحكومات الاستعمارية، والشعوب المستعمرة والتابعة، والممالك التي استقلت حديثاً من ريع الاستعمار وبين مملكة أفغانستان وأمارة كشمير ودولة التبت الكهنوتية أيضاً، وكذلك يجتمع في هذا المركز حدود الاتحاد السوفياتي ذي الاقتصاد الصناعي الحديث، وجمهورية منغوليا الشعبية ذات الاقتصاد البدائي السريع التغيير، وحرف قبائل القازاق والمغول الرعوية التقليدية في سنكيانغ، والنشاط الزراعي القديم في الصين، وقد اخترقت هذه المنطقة — إلى حد ما — بعض وسائل التغيير الحديث مثل سكة الحديد، ولكن كل منطقة فيها تتميز بنشاط اقتصادي معين، مثل واحات آسيا الداخلية، والقرغيز سكان جبال تنغري تاغ، وسكان الهضاب العالية مثل شعب سريع كول في جبال بامير.

على أي حال في هذا المركز الذي يزدحم بالحدود والتباينات المختلفة، لا توجد فيه دولة واحدة تصلح أن تكون مركزاً لنشاط رأسمالي حرّ تنظمه سياسياً مؤسسات ديمقراطية مثلما هو في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وفي سنكيانغ أو في حولها في الهند وباكستان وأفغانستان ومنغوليا والصين لا توجد حركة سياسية واحدة تهتم بالدفاع عن ديمقراطية قديمة متأصلة؛ لأن هذه المناطق لا توجد فيها حركة ديمقراطية، بل لا يوجد في أي بقعة في آسيا اتجاه ديمقراطي يهتم بالشكل والمضمون مثلما هو معروف في أمريكا^[1]. وسنكيانغ تحتل موقعاً محورياً في خضم هذه المشاكل من التغيير والتبدل، وإذا أردنا فهم

[1] المترجم: الباحثون يتضح أنهم من غير المهتمين بالحضارة الإسلامية والدارسين لها، وعلى هذا فما ذكروه عن الشعوب الإسلامية لا يتصف بالحقيقة؛ لأن التخلف الذي تعيشه بعض الشعوب الإسلامية هي نتائج سياسة الاستعمار الأوروبي والأجنبي لها.

هذه المشاكل لا بد من دراستها بتمعن على ضوء نتائج تطورها التاريخي.

المدخل التاريخي

إن سنكيانغ تقع في نطاق النفوذ السياسي الصيني لأكثر من ألف عام، ولكن النفوذ والتحكم والسيطرة الصينية عليها كانت متقطعة، فعندما تهتم الصين بحروبها و تجارتها الخارجية مع جيرانها المتاخمين تصبح سنكيانغ مركزاً لاهتماماتها، وفي القرن التاسع عشر الميلادي عندما تعرضت الصين لنفوذ أجنبي؛ نتيجة لمعاهدة الموانئ الساحلية خَبَتْ أهمية سنكيانغ، ثم ما لبث أن تجدد الاهتمامُ بها في عهد الثورات الإسلامية، ثم عاد إليها الاهتمام حديثاً؛ لأن منطقة الحدود الصينية — السوفياتية كَلَّها غَدَتْ من المناطق التي تقرر ميزان القوى السياسية في العالم.

وإن المواد التاريخية لآسيا الداخلية وفيرة، فبالإضافة إلى سجلات التواريخ الصينية القديمة توجد مصادر مكتوبة بكافة اللغات المحلية في آسيا الداخلية نفسها، وقد اكتُشف بعضها فقط حديثاً وبشكل خيالي، والاكتشافات الحديثة لحضارة آسيا الداخلية القديمة بدأت في عام ١٨٧٩م على أثر عودة عالم نبات روسي من تركستان، يحمل أخباراً عن آثار مدينة قديمة قرب تورفان، اعتُقدت أنها آثارٌ مستوطنةٍ رومانية، وبعد ذلك توالى الرحالة الأوروبيون العائدون منها، يتحدثون عن مدن قديمة مدفونة تحت رمال صحراء تكلامكان، كما حصل الرحالة على تماثيل صغيرة وصور خزفية وأوانٍ فخارية ونقود معدنية وغيرها من الآثار الصغيرة، حصلوا عليها من باحثي الكنوز المحليين، الذين اكتشفوها في الأماكن القديمة.

وعموماً كانت هذه الأشياء على درجة عالية من الاتقان، وتماثل الأشكال اليونانية القديمة، وكان بينها أيضاً نصوصٌ بوذية قديمة، كتبت على لحاء الأشجار باللغة الهندية البدائية.

ولا توجد علاقات واضحة تربط بين فلاحي المسلمين البسطاء المعاصرين وورعاتهم وتجارهم وفنانينهم، من سكان آسيا الداخلية في القرن التاسع عشر الميلادي، وبين تلك المكتشفات الفنية والأدبية القديمة، بيد أن التواريخ الصينية وخاصة تاريخ عائلتي هان وتانغ، تذكر معلومات كثيرة عن عظمة عدد من ممالك ألواح في البلدان الغربية، تبدأ من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن التاسع، وفي مؤلفات الراحلين البوذيين الصينيين المشهورين: فا هسين Fa Hsien وهسوان تسانغ Hsuan Tsang اللذين عبرا المنطقة في القرنين الخامس والسابع الميلاديين، توجد أوصاف رائعة عن معابد وديِرٍ عظيمة، كانت مراكز عبادة ودراسة في سنكيانغ حينذاك.

وفي عام ١٨٩٠م بدأت البعثات العلمية حفرياتها لاستكشاف حضارة آسيا الوسطى البوذية المفقودة، ويعد فترة وجيزة من العمل أصبح واضحاً أن الآثار العلمية والأدبية المتوفرة كانت أعظم مما كان متوقَّعاً، وفي العقد الأول من هذا القرن انهمكت بعثات أثرية من إنجلترا وروسيا وفرنسا وألمانيا واليابان في منافسة حية لاستكشاف مواقع جديدة لأخذ المخطوطات واللوحات والتماثيل.

ومن آسيا الداخلية جلبت البعثات العلمية أقدم الآثار التاريخية لأقدم مجتمع إنساني، ويمكن الآن تتبع تاريخ آسيا الداخلية لما قبل التاريخ إلى عهد هجرات وتجارة العصر الحجري، التي نشطت في كل الأراضي التي تقع بين أوروبا والصين.

وفي فجر التاريخ كان التوزيع البشري على وجه الأرض ضئيلاً في مجموعات بشرية صغيرة جداً، لذا يخطئ من يعتقد وجود مناطق جغرافية تتحكم على أخرى في تلك العهود الغابرة، ولعل منطقتي البحر الأسود في أوروبا وحوض النهر الأصفر في الصين هما أكثر سكاناً من منطقة آسيا الداخلية الأخرى.

وقد عبر آسيا الداخلية أقدم طريق تاريخي للتجارة والسياحة والحضارات

المتنوعة بين البحر الأسود وحوض النهر الأصفر، ولكن هذه الطريق التي ظهرت مع هجرات الإنسان العصري الحجري الأول تتضح شواهدها الأثرية في العصر الحجري الحديث^[1]، وفي هذه الطريق ظهرت ثلاثة مجتمعات قديمة، ذات صلة و علاقة فيما بينها في الطريق الجنوبي التي سكنتها الشعوب الزراعية في ألواح التي تتوفر فيها المياه، وفي الطريق الشمالي حيث الغابات الشاسعة التي تمتد من روسيا عبر سيبيريا إلى منشوريا حيث عاشت فيها قبائل الغاب، وفي الوسط بينهما استوطن البدو الرعاة .

وكانت جماعات البدو الرعاة هي ثالث مجتمع يتكون أخيراً بعد المجتمعين الأولين، بل هو في الواقع انبثق منهما، ذلك لأن بعض الصيادين تمكن من تأنيس الحيوانات، ثم انتقل يرعاها في المراعي، وبالمثل فإن جماعات من سكان ألواح في الجنوب تمكنت من تأنيس الحيوانات وتركت حرفة الزراعة، وتحركت إلى السهوب تمارس الرعي، وهكذا تشكّل بدو السهوب، وكانت لهم صلاتٌ بكل من قبائل الغاب والشعوب الزراعية، وأصبحت منطقة الطريق التي استوطنها هؤلاء البدو مجتمعاً ينبض بحركة التجارة والهجرة والغزو.

وعبر هذا الصمام بدأت الصين تمارس ضغطاً على آسيا الداخلية في عهد عائلة هان (٢٠٦ ق.م. — ٢٢٠ م.) وكانت الصين قد أصبحت إمبراطورية متحضرة، يقوم اقتصادها على الزراعة داخل حدودها الذاتية، ومثل الإمبراطورية الرومانية المعاصرة لها واجهت في الشمال مشاكل البربرية التي ترفض الحضارة الصينية، وتقاوم سيطرة الدولة الصينية.

وقد ظهرت السياسة الخارجية الصينية الأولى في أسلوب معالجتها لمشكلة برابرة الشمال، وبدأت بالتفكير في عزل البرابرة طبيعياً عن الأراضي التي يسكنها الصينيون الزراعيون والمتمدنون، فبنت السور العظيم، مثلما عملت

[1] J.G.Andersson: Der Weg Uber Die Steppen in Bulletin of the Ostasiatiska Samling-garna ,No.1, Stockholm 1929

الإمبراطورية الرومانية مع البرابرة التيتونيين والسلافيين.

ومهما يكن فقد اكتشف الصينيون بأن البرابرة الذين صدّوهم عن حضارتهم بالسور العظيم، وتركوهم في الظلام، لم تكن جماعات متوحشة، بل يملكون قدرات اجتماعية وسياسية وعسكرية، تمكنهم من التغلب على السور العظيم وسياسة الصين الحدودية، إذ أدرك البرابرة بأن قبائلهم الصغيرة المتنازعة لن تصمد طويلاً في مقاومة الإمبراطورية الصينية القوية، فأشعلت الحروب القبلية بينها، بسرعة أدت إلى إخضاع رؤساء القبائل الصغيرة لحاكم أعلى يخضع له جميع البدو، وهكذا ظهرت إمبراطورية الهون المتحدة.

وتقع سنكيانغ بعد نهاية السور العظيم في الشمال الغربي في آسيا الداخلية، وفي الطرف الجنوبي الغربي لإمبراطورية الهون (هسوينغ - نو Hsuing-nu)، وأصبحت بهذا الموقع منطقة إستراتيجية هامة، ولكن واحات آسيا الداخلية الخصبة المتناثرة في الصحاري والسهول والجبال، استطاعت أن تكون مدناً مزدهرة، إلا أن ذلك لم يساعدها على تأسيس دولة قوية، كما أن بعدها عن الصين، وصعوبة المواصلات بينهما، حال دون إلحاقها بدولة الصين اقتصادياً، وبقيت هذه ألواح تاجر مع الهون، وتدفع لهم الجزية، ومع ذلك كان مصدر خطر لهم، ثم رأت الصين ضرورة احتلال أكبر عدد من ألواح، لتستخدمها نقاطاً عسكرية، تقوم فيها بدور الدولة الحامية، وتمنع سقوط بقية ألواح في يد الهون، وأن تكون التجارة معها وليس مع الهون، وهكذا كانت دوافع التوسع الصيني في آسيا الداخلية سياسية وتجارية على المدى الطويل، وكان هدف سياستها الاستعمارية هو ربط ألواح بالصين، ولم يكن باعث ذلك النمو الاقتصادي في البحث عن أسواق تروج فيها لمنتجاتها الفائضة.

وفي أثناء تغلغل الصين في سنكيانغ لأول مرة لم يجد الصينيون حياة بربرية فحسب، بل حضارة مدنية زراعية رفيعة المستوى مثل حضارتهم، وهناك

قصة من القرن الأول تفيده بأن شعب آسيا الداخلية على الرغم من تقديره لقوة الصين، لم يُقبل على حضارتها، فقد أقام ملك كوجار في البلاط الصيني عامًا، ثم عاد إلى بلاده مع زوجة صينية، وبنى قصرًا على الطراز الصيني، واقتبس من الصين طراز المعابد والعادات والموسيقى والنظم الإدارية، بيد أن شعب كوجار سخر منه مستهزءً من هذا التقليد، واصفًا إياه بالبغل (الذي يكون من الحصان والحمار).

إن حضارة واحات آسيا الداخلية العالية ازدهرت من احتكاكها بالمناطق الحضارية المجاورة، وفي الجنوب أسس جاندراغوبتا Chandragupta - معاصر الإسكندر الأكبر، الذي يسميه اليونانيون ساندر وكوتس Sandrocottus - إمبراطوريةً في شمال غرب الهند، وهي أهم دولة متحضرة آنذاك، وحفيده اشوكا Ashoka الذي اعتلى الحكم تمامًا قبيل بدء حكم عائلة هان في الصين، وجعل البوذية دين الدولة، وفي الحال بدأت البعثات البوذية تنتقل بين واحات آسيا الداخلية بهدف نشر البوذية، ومنها دخلت البوذية إلى الصين، ومنها أقبل الصينيون إليها يأخذون تعاليم البوذية ويعودون إلى بلادهم بأفكار وعادات وثقافة عالية، قوبلت بالاستحسان.

وفي هذا التاريخ حدثت اتصالات الصينيين بالمراكز الحضارية في إيران غرب آسيا الداخلية، وهي وإن كانت أقل أثرًا مما جاء من الهند، لكنها ذات أهمية، إذ إن من منطقة إيران انتقلت إلى آسيا الداخلية هندسة الري المتطورة، التي ساعدت أهالي الواحات الصغيرة ذات الكثافة العالية من السكان، والحضارة الرفيعة، في تأمين غذائها، ومن واحات سنكيانغ اقتبسها الصينيون، وفي عهد عائلة هان في الصين كانت كل إمبراطورية عظيمة في العالم آنذاك قد توسعت عن مراكزها، وأحاطت حدودها بسور يعزل البرابرة عنها، وفي المنطقة التي تقع بين إيران والأراضي السوفياتية المعروفة اليوم كان التباين الجغرافي ليس واضحًا بين منطقة تلائم الزراعة وأخرى تناسب الرعاة، كما هو على طول

السور الصيني العظيم، ولكن شيدت في هذه المنطقة أسوار للحدود، بهدف منع اعتداءات البدو [1] كما حدث في القديم [2].

ويتضح من بناء الإمبراطورية الرومانية لأسوار على حدودها، بأن هذه ظاهرة مشتركة للحضارات في تلك الفترة، حيث إنها جميعاً عانت من الممالك البربرية في الشمال، وواجهت تهديدات مؤقتة، ولكن لم ترغب في غزوها والسيطرة عليها؛ لأن إقامة أسوار الحدود تشير إلى خط إقامته الدولة بهدف الدفاع عن نفسها، ولا ترغب في التوسع إلى خلفه.

وتشابه هذه الإمبراطوريات القديمة في كيانها ومشاكلها التي واجهتها على طول حدودها بصفة رئيسة، وذلك لأن قبيل تلك الفترة مرت عليها بضعة قرون من التطور السريع الملحوظ، فقد أصبح الحديد أكثر شيوعاً، ولم يحتل مكان البرونز فحسب، بل أصبح استعمال الحديد ممكناً في تصنيع الأسلحة وفي أدوات الزراعة التي كان يتم صنعها من الحجر في العصر البرونزي، وتكاثرت الجماعات الزراعية بسرعة أدت إلى انتشارها واستصلاح أراضٍ لم يسبق زراعتها، ثم أصبح العالم الزراعي الذي يمتد من بريطانيا إلى المحيط الهادي أكثر تماسكاً ورغبةً في عزل برابرة الغابات والسهول، ثم تنوعت المهن، وظهرت حِرَفٌ تخصصية في الممالك المتحضرة، كما توثقت العلاقات المدنية، وصارت الطبقات الزراعية والاجتماعية متميزةً بعضها عن بعض، وأخيراً برزت دول سياسية متطورة ذات اتساع جغرافي وكيان معقد، وتلا هذا الازدهار السريع فترة انحطاط فيما بين (٢٠٠-٦٠٠م).

وأصاب الدول العظيمة الإجهاد من الاستنزاف الاقتصادي، بسبب حروبها على الحدود، وكذلك برزت الأزمات الداخلية بسبب تزايد الأثرياء غنى

[1] W.Barthold , Histoire des Turcs d'Asie Centrale , 1945, p.32

[2] K.Grinevich , "Deferense of the Cimmerician Bosphotous" Journal of Ancient History, Moscow, Leningrad, 1946, No.2, pp.160-164

والفقراء فقراً، وتشكلت ممالك جديدة في هذه الفترة، ومنها دول الحدود التي نزعت إلى سيادتها، وفضّلت سيادة البرابرة الغزاة.

وفي الصين كان اتجاه الحكام في اعتناق البوذية التي تمثل معلماً حضارياً هاماً في استمرار الاتصال بآسيا الداخلية، وفي هذا الوقت - أي في القرن الخامس الميلادي - عبر الرحالة الصيني فاهسين Fa Hsien واحة خوتن^[1] في طريقه إلى الهند، ووصف أربعة معابد عظيمة وعدداً من الأديرة الصغيرة، وأقام مع رفقائه الصينيين في أحد المعابد التي تتسع لثلاثة آلاف راهب في وقت واحد، يتناولون طعامهم بانتظام وهدوء، كما وصف معبداً جديداً قرب المدينة، ويقول: إن بناءه استغرق ثمانين عاماً، واستمر ثلاثة عهود، وهذا المعبد رائع الزخرفة بديع النقوش المغطاة بالذهب والفضة والمنمقة بالأحجار الكريمة، وأما قاعة البوذا فهي آية في الجمال والفخامة، عوارضها وأنصابها وأبوابها ونوافذها مواشاة بالذهب، وبجانبيها حجرات الرهبان الرائعة التي يعجز البيان عن وصفها^[2].

ولاشك أن فخامة هذه المباني وزخرفتها الفنية الغنية تعكس بالطبع ثراء دول ألواحاح وتجارتها الرائجة، كما يعني أيضاً وفرة الغذاء الناتج من أراضي المعابد الزراعية، وإنجاز مثل هذه المشاريع العمرانية الضخمة يكون قد تم جزئياً بتشغيل العبيد في فصل الشتاء، وكذلك استخدام أسرى الحروب التي نشبت بين الممالك البربرية، ثم استعبدتهم سكان الأراضي المتحضرة بالشراء، وهناك طريق يأتي منه العبيد التي تمتد بالأخص نحو الغرب، وتقريباً في عام ٦٠٠ م بدأت الإمبراطوريات تظهر مرة أخرى على مسرح التاريخ، حيث برزت

[1] لمعظم المدن الكبيرة في سنكيانغ ثلاثة أسماء على الأقل: اويغورية - قازاقية مغولية، وفي عهد الحكم المانشوري والجمهوري استعملت الاسماء الصينية، وبعضها أيضاً تحمل أسماء أخرى، وفي هذا الكتاب جرى استعمال الاسماء التي يطلقون عليها باللغة المحلية تجنياً للالتباس

[2] Fa Hsien's Travels, tr. and ed. By James Legge, Oxford 1886, الفصل الثالث

في الصين عائلة تانغ Tang التي حكمت فيما بين ٦١٨ - ٩٠٧م، كما ظهرت في هذه الفترة أيضا الفتوحات العربية، وبلغت الإمبراطورية البيزنطية أوج قوتها ونفوذها، وتربع شارلمان على عرش الفرنج وإمبراطورية الرومان في عام ٨٠٠م.

وفي عهد عائلة تانغ كانت مراكز الجاذبية قريبة من المحيط الحضاري، وتمثلت القوة الاستعمارية في استخدام القوى العسكرية التي تكوّنت أصلا من البرابرة، واستحصال الجزية من المنتجات الزراعية والمدنية وعوائد التجارة، واعتمدت أمثال هذه الإمبراطورية على قدرتها في المناورات الحربية ضد البرابرة، وذلك بدلا من الاعتماد الكلي على أسوار الحدود، وعملا بالقاعدة التي تشير بأن تشكيل الحكومات بين البدو يتبع نمط الحكومات المتحضرة التي تكونت في الجوار، فقد ظهر في هذه الفترة عددٌ من الشعوب القبليّة في السهول، مثل أتراك الأورخون في منغوليا، والأويغور، وأمم تركية أخرى في آسيا الداخلية ودول الخزر والبلغار والبنجناك في السهل، ما بين بحري قزوين والأسود.

وفي هذه الفترة احتفظت سنكيانغ بموقعها المحوري بين الصين والهند وإيران، ثم بالسهل الروسي الجنوبي فيما بعد، واشترك في بناء حضارتها تيارات ثقافية قوية من الهند وإيران والشرق الأدنى مما كان من الصين، وسافر تجارها إلى الآفاق.

وفي القرن التاسع الميلادي وجدت جماعاتٌ من تجار سنكيانغ في شيآن (جانغان Changan) عاصمة تانغ الصينية ولويانغ Loyang في وسط وادي النهر الأصفر، ويانغ جو Yang Chou على نهر يانغتسي Yangtze وفي كانتون على شاطئ الصين الجنوبي^[1]، وقد حمل أولئك التجار معهم إلى تلك الأوصاف

[1] Hsiang Ta, "Tge Chang-an of the Tang Dynasty and the Civilization of the Western Regions " Yenching Journal of Chinese Studies , Monograph series No.2, Peiping

ممارستهم الدينية للأديان التي اعتنقوها مثل: الزرادشتية والمانوية والنسطورية المسيحية والبوذية ثم الإسلام^[1]، إن رحلة الحج التقليدية من الصين عبر آسيا الداخلية إلى مراكز التعليم البوذي أدى استمرارها إلى تزايد النفوذ الصيني عمومًا، فعندما اتجه هسوان تسانغ Hsuan Tsang من قمول إلى الغرب في القرن السابع شاهد ثلاثة رهبان صينيين فقط، وبعد مائة عام تقريبًا وجدت جماعات من الرهبان الصينيين في كوجار وكاشغر وخوتن، وكان من أعمالهم إعطاء قروض ربوية للمواطنين.

ويكتب هسوانغ تسانغ نفسه عن مدينة آقسو فيقول: تقاليد الناس وطبقاتهم وطبائعهم وكتاباتهم تتماثل بما هو موجود في كوجار، وتختلف نوعًا ما لهجاتهم، وتجد عدة معابد وأكثر من ألف راهب في آقسو، ويتصف سكانها عمومًا بالخداع والطمع، وكثيرًا ما يمتهن القرض بين الأب وابنه، والناس لا يهتمون بالأخلاق، وكلهم يعبدون الثراء ويكاد الغني يعيش في بؤس، فهو رث الثياب ومقل في الطعام، ويظهر أن نصف السكان يشتغلون في التجارة، والنصف الآخر في الزراعة^[2].

وفي هذا الوقت غزا التبتيون سنكيانغ وشمال غرب الصين، ولم يستمر بقاؤهم فيها كثيرًا، ولكن استمر سيطرتهم على المملكة الحدودية هسي هسيا Hsi Hsia أو تانغوت في شمال غرب الصين، وكانت عاصمة تلك المملكة في نينغشيا Ningshia على النهر الأصفر، وسكانها خليط من المزارعين الذين يتكلمون اللغتين الصينية والتركية، ومن البدو والرعاة ولغاتهم التبتية والتركية والمغولية، ونتج عن هذا الغزو أن دخلت المؤثرات الزرادشتية والمانوية والنسطورية المسيحية إلى التبت من آسيا الداخلية، وساهمت في تحويل

1933 (in Chinese)

[1] Wang Jih-wei " The Iranians in Sinkiang " in Yu-Kung Semimonthly, Peiping, Aug. 1, 1935, Vol.3, No.11,p.1-9 (in Chinese)

[2] Hsuan Tsang ,”Ta T`ang His Yu Chi , Shanghai, 1922, Vol.I.(in Chinese)

البوذية الشمالية إلى دين مرن جديد عرف بالبوذية اللامية.

والأهم من هذا كله هو حركة الغزاة الأتراك الأويغور والقارلوق والقيريغيز وغيرهم، فوجًا من بعد فوج، من أطراف السهول الشمالية في آسيا الداخلية وحواف غابات سيبيريا الجنوبية إلى مواضع وضعت في أيديهم طرق التجارة وسلطات ألواح، وبالتدريج اعتنق هؤلاء الأتراك الإسلام، وحلت لغاتهم محل اللغات الهندو-أوروبية، والهندو-إيرانية التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت في ألواح، وفي نهاية هذه العملية المزدوجة التي لم تكتمل حتى بعد زوال حكم عائلة تانغ الصينية سادت اللغة التركية بلهجاتها المختلفة كل الأراضي التي تمتد من حدود إيران إلى حدود الصين، وسيطر الإسلام على كل الطريق من شمال غرب الصين إلى البحر الأسود.

وإن أشكال الهجرات التي ساهمت في هذه التغيرات ذات أهمية بالغة، لأنها لم تترك أماكنها التي نشأت فيها أصلاً خالية تمامًا، كما أنها لم تطرد سكان الأراضي التي استوطنتها، ولم تكن أشكال الحركات النموذجية التي يستخدم تفسيرها باصطلاح الهجرة والغزو لحركة عصابات المحاربين كاف لحركة شعب كامل انبثق من هذه الهجرات، ذلك لأن المحاربين من هذه الهجرات كانوا يشنون غارات على المدن بهدف النهب أولاً، ثم يستوطنها، إذ ليس من مصلحتهم إبادة السكان الذين يدفعون لهم الإتاوة، وكثيراً ما نجح الحكام المغلوبون في قيادة عصابات من أتباعهم على الهجرة والغزو إلى منطقة أخرى، وهكذا كان انتقال الاسماء القبلية أوسع من هجرة كل القبائل، وإن أحفاد الشعوب الهندو-أوروبية، والهندو-إيرانية الأصلاء في آسيا الداخلية بالرغم من تترك لغاتهم واعتناقهم الإسلام استمروا يشكلون جزءاً كبيراً من السكان، وخاصة في ألواح، وفي القرن العاشر حدثت تطورات جديدة وبلغت هذه التطورات ذروتها في الغزوات المغولية التي بدأت في أوائل القرن الثالث عشر، واستمرت إلى أن تمزقت الإمبراطورية المغولية في القرن الرابع

عشر، وفي هذه الفترة انتقل بدو السهوب الغزاة من ممالك نشأت على حدود المناطق الحضارية إلى إمبراطوريات تقع عواصمها وسط المناطق الحضارية القديمة، ومن هذه الزاوية لابد من ملاحظة التطورات التي حدثت في الصين والهند وإيران وجنوب روسيا، لقد أقام الخيتائيون - وهم من قبائل منشوريا الغربية ومنغوليا الشرقية - إمبراطورية لياو Liao وذلك فيما بين السور العظيم وسهول النهر الأصفر في شمال الصين، ثم أنشأ بعدهم الجورشيدي إمبراطورية كين Kin أو جين Chin وتقع بلادهم الأصلية في منشوريا على مسافة أبعد من السور الصيني العظيم من سهول الخيتائيين، ولكن انطلق محاربوهم عبر النهر الأصفر إلى مشارف نهر يانغتسي Yangtze [1].

ثم في بداية القرن الثالث عشر أدت فتوحات جنكيز خان إلى قيام إمبراطورية تمتد من شمال الصين إلى جنوب روسيا، ولكن تمزقت بسرعة إلى ممالك ودويلات يحكمها أبناؤه وأحفاده، وتمت عملية التقسيم بسرعة وفوضى، وظهرت دولة القبيلة الذهبية في جنوب روسيا، ودولة عائلة يوان Yuan في الصين، وهما أكثر الدول المغولية تماسكًا، أما في آسيا الداخلية فقد وقعت بينهما وتوجهت إلى الاستقلال عنهما.

وقد انتهى حكم المغول في الصين بيزوغ دولة عائلة مينغ Ming في عام ١٣٦٨م، وبعد قرن واحد من زوالهم في الصين ضعفت دولتهم في روسيا، وذهبت شوكة المغول عمومًا، وبعد الإطاحة بحكمهم انطلقت غزوات الصينيين إلى منغوليا، ولكن النفوذ الصيني كان محدودًا جدًا في آسيا الداخلية في أغلب فترة حكم عائلة مينغ Ming ١٣٦٨ - ١٦٤٤م، ونادرًا ما امتد نفوذهم المباشر إلى

[1] عندما قضى الجورشيدي على دولة خيتاي هاجرت جماعة من الخيتاي عبر منغوليا إلى الشمال الغربي، وأسست دولة قره خيتاي في المنطقة التي تتجمع فيها حاليًا حدود سنكيانغ ومنغوليا وسيبيريا، وخلال حكم دولتي خيتاي وجورشيدي خضع شمال غرب الصين لسيطرة دولة التانغوت أو هسي هسيا His Hsia التي كانت تحت نفوذ التبت، وبهذا لم تكن ألواحاح أو شعوب سهوب آسيا الداخلية تحت حكم الصين في هذه الفترة، كما أن الفتوحات الإسلامية قطعت علاقات آسيا الداخلية بالهند والصين والحضارة الإيرانية.

ما وراء قمول وتورفان ، وهما أقرب واحتين لهم في سنكيانغ [1]، والوضع حول آسيا الداخلية كان مماثلاً، فالحضارة التي عانت من وحشية المغول استعادت نشاطها، وقد ظهرت دول جديدة، وإن لم تكن قوية بالقدر التي يمكنها من غزو آسيا الداخلية، بالإضافة إلى ظهور البحّارين العرب والهنود والصينيين، واهتمامهم بالتجارة البحرية قلل نسبياً من أهمية المنطقة، ولولا ذلك لكانت آسيا الداخلية تؤدي دوراً بارزاً على تشجيع التجارة على الطرق البرية الطويلة، وتسبب هذا الأمر في إهمال شأن آسيا الداخلية بضعة قرون، وفي هذه الفترة ظهر عددٌ من الدول الصغيرة، ومع نهاية القرن السادس عشر الميلادي اختفت البقية الباقية من مظاهر البوذية والمسيحية في ألواحات، واستقر الإسلام بدون منازع ديناً لسكان هذه المنطقة، ما عدا تمسك المغول بالبوذية التبتية (اللامية).

وفيما بين القرنين ١٤-١٧ حكم المغول من أحفاد المحاربين الذين أصبحت التركية لغتهم والإسلام دينهم هذه ألواحات، وانفصل ملوكهم الذين يدعون انتسابهم إلى جغتاي ولد جنكيز خان- وهو ادعاءً مشكوك فيه — من دولة جغتاي في تركستان الغربية في القرن الرابع عشر، وفي القرن الخامس عشر ظهر نوع جديد من الحكام، غير مألوف من الممالك الإسلامية، منهم الأمراء الدينيون، حيث نصب الخجوات أنفسهم حكاماً منافسين للملوك التقليديين [2]، ثم في القرن السابع عشر تولى الخجوات حكم واحات سنكيانغ مباشرة بعد تغلبهم على ملوك المغول المتحاربين.

[1] D.Pokotilov, History of the Eastern Mongols in the Period of the Ming Dynasty 1368-1634 – Based upon Chinese Sources , St.Petersburg, 1893 (in Russian)

وقد نشرت ترجمة إنجليزية له أعدّها الدكتور رودولف لوينثال:

Rudolf Lowenthal at Chegtu m 1947 as No.I of Series A, Studia Serica m the Chinese Cultural Studies Research Institute m West China Uinon University

[2] هذه الأسرة الجديدة من الأمراء الدينيين التي تنتسب إلى خوجه مخدوم أعظم، الذي ادعى أنه من أحفاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد جاء إلى كاشغر من بخارى، وتمكّن أفراد الأسرة من امتلاك الأراضي والحصول على الجزية والضرائب، مما جعلتهم نبلاء إقطاعيين علاوة على أنهم رؤساء دينيون.

وفي السهوب توزعت القوى إلى ثلاث مجموعات بدوية، فقد سيطر القازاق- وهم البدو الناطقون بالتركية- في آسيا الداخلية الروسية، وفي الشرق تولت قبائل خالخالس حكم المغول بعد حروب قبلية عدة في منغوليا الخارجية، أما في الوسط أي في شمال سنكيانغ ومنغوليا الغربية سادت قبائل أويرات التي يسميها الروس قالموق^[1]، وهم من المغول الغربيين.

وفي عام ١٤٠٠م، عندما اتخذ المغول في غرب وجنوب آسيا الداخلية الإسلام ديناً والتركية لغة، استمر مغول أويرات متمسكين بالمغولية لغة وبعدهم للإسلام، ثم شكلت قبائل أويرات تحالفاً حربيًا مكنهم من غزو غرب آسيا الداخلية وألواحاح الجنوبية والتبت، وفي أوائل القرن الثامن عشر الميلادي نصّب أفراد هذا التحالف أنفسهم ملوكًا على موطن المغول القديم كله، ومن أجل تحطيم هذه الدولة الفتية شنّ المانشوريون بعد استيلائهم على الصين حربًا ضروسًا ضدها، واستولت القوات المانشورية والصينية على سنكيانغ، وقضت على اتحاد المغول الغربي، وفي هذه الفترة بدء الروس في زحفهم إلى سيبيريا وآسيا الداخلية، وكذلك التوسع البريطاني في الهند إلى أفغانستان وبامير والتبت، وهذه العمليات الثلاث ساهمت في صنع تاريخ العالم الحديث.

بيد أنه في القرن التاسع عشر اندلعت ثورات المسلمين الدامية ضد المانشور في الصين وسنكيانغ، وبعد قمع هذه الثورات وضعت سنكيانغ تحت نظام حكم إداري مشابه لما هو سائد في المقاطعات الصينية الأخرى، حيث تحولت من مستعمرة إلى مقاطعة صينية في عام ١٨٨٤م، وبعد عام ١٩١١م، كانت سنكيانغ مقاطعة صينية بالاسم فقط، وذلك لأن ممارسة الحكام الصينيين لسلطانهم

[1] كانت قبائل أويرات أصلاً من منطقة بحيرة بيكال ومن بويرات منغوليا الحالية، وقديماً تكونت قبائل هذه المنطقة من صيادي الغابات وبدو المراعي، وانتقال قبائل أويرات إلى آسيا الداخلية حدث في أثناء حروب جنكيزخان التي أدت إلى التغيير في تكوين ونشوء قبائل المغول.

الفعلية كانت عملاً شخصياً، مما أدى إلى الاستقلال في علاقاتهم الخارجية أحياناً، وعقد صلات مستقلة مع روسيا والهند، بل مع حكومة الصين الوطنية المركزية نفسها أيضاً، ويتمثل الوجود الصيني في سنكيانغ في صيغة علاقات حاكم المقاطعة الصينية بالحكومة الوطنية المركزية، مع استقلاله في علاقاته بالهند وبالأخص مع روسيا، وكذلك جهوده في إدارة سنكيانغ وسلطات الحكومة المركزية لمواجهة المطالب الوطنية لسكان سنكيانغ غير الصينيين.

والشعور الوطني في سنكيانغ قد انبثق حديثاً من الثورات القبلية والإسلامية التقليدية ضد الحكم الصيني، واتخذ أشكالاً جديدة في ثلاثينات هذا القرن عندما تولى حكم سنكيانغ مغامرٌ عسكري صيني يسمى: شتغ شيه تساي Sheng Shih-ts`ai الذي طلب تعزيزات عسكرية من الصين؛ خشية إبعاده من الحكم، وانتهج سياسة جديدة بالاعتماد على مساعدة قومية ضد أخرى، ومنع ائتلاف القوميات وتوحيدها، وكذلك كان قد شجّع على التجارة مع روسيا، وحصل على قروض روسية، وبعث بالطلاب الأويغور وغيرهم إلى الاتحاد السوفياتي بهدف التعليم والتدريب الفني، ثم فجأة في عام ١٩٤٣م قطع صلته بروسيا، وعاد لسيادة حكومة الصين الوطنية، ثم أعاد سياسة العنف ضد القوميات في وقت كانت الوطنية قد تأصلت في نفوس سكان سنكيانغ.

واليوم في سنكيانغ توجد حركتان وطنيتان، أحدهما تقول بأن تركستان الشرقية للأويغور، وتعمل على نيل الحكم الذاتي من الصين، وفي نفس الوقت تحاول بسط سيطرة الأويغور على القوميات الأخرى، وأما الحركة الثانية فتقول بالوحدة الوطنية، ويتمركز دعائها في غولججه، وتسعى هذه الحركة إلى توحيد القوميات الأخرى في ائتلاف وطني واحد، ولكنها مثل حركة أذربيجان الوطنية في إيران تميل إلى الاتحاد السوفياتي، فقد ولد وتعلم بعض زعمائها

في الأراضي السوفياتية.

القوى المسيطرة على مركز الجاذبية

إن مشاكل الصين الاستعمارية في آسيا الداخلية قد صاغتها القوى السياسية الكبرى المحيطة بها، والمصالح السياسية لأمريكا وبريطانيا شديدة الحساسية لمتغيرات المنطقة التي تلتقي فيها حدود الصين وروسيا والهند، وقبل عصر كولمبوس كانت حركة الإنسان ومشاريعه على اليابسة أكثر نشاطا وأهمية مما هي في البحار المالحة، والرحلات البحرية والاستكشافات الأولية التي عبرت محيطات الهند والأطلسي وحتى الهادي، وبلغت جزر المحيط الهادي انطلقت من آسيا، وهي جزء من اليابسة موطن نشاط الإنسان بين تلك المحيطات، علاوة على أن اتصال الثقافات والحضارات الإنسانية العظيمة تم في منطقة أوراسيا وشمال أفريقيا.

ومع رحلات الملاحين البحرية والإتجار الواسع بدء عهد جديد من التاريخ في نهاية القرن الخامس عشر، حيث تم استيطان أمريكا الشمالية واستعمار أمريكا الوسطى والجنوبية، وغزو الهند وجنوب شرق آسيا، وقد نتج عن نشاط الإنسان الأوروبي في البحار على إثر هذا النشاط الجديد الانصراف عن آسيا الداخلية التي كانت حلقة اتصال عالمي، مما أدى إلى فقد أهميتها التجارية والاستراتيجية، ثم تلى تلك الفترة وقت يقدر بخمسين عاما من ١٥٨٠ - ١٦٣٠م، اتجه مختلف أنحاء العالم في اتجاه واحد مما شكّل التاريخ الحقيقي لعالم جديد، ذلك لأنه في عام ١٥٩٠م دفع الروس باليرماك إلى سيبيريا للاهتمام بتجارة الفراء، وفي عام ١٥٩٥م بعد أن أسس بوريس غودنوف Boris Godunov مصنعا لصناعة البنادق في تولا، توجه طمّع الروس نحو الشرق أكثر، حيث شعوب سيبيريا وآسيا الداخلية التي كانت أسلحتهم القوس والسهم، وفي عام ١٦٠٠م أو بعده بقليل أسس البريطانيون والألمان والفرنسيون شركات الهند

الشرقية، وتوفي أكبر في عام ١٦٠٥م، وكان المؤسس الحقيقي لإمبراطورية المغول في الهند، وكان معاصر الملكة اليزابيث ونورهاجيه Nuhacih مؤسس عائلة المانشور الحاكمة في الصين، الذي أصبح إمبراطورا في عام ١٦١٦م، مع أن إمبراطوريته لم تثبت إلا في عام ١٦٤٤م، أي: بعد وفاته في عام ١٦٣٧م، ووصل الروس إلى لينا في عام ١٦٢٠م، وفي الوقت الذي كان المانشور يقيمون حكومتهم في الصين كان الروس قد وصلوا إلى نهر أمور والمحيط الهادي، وهكذا بدء التاريخ الحديث.

وبعد أن هزم البريطانيون الإسبان في موقعة أرمادا في عام ١٥٨٨م، وقدم اليرماك سيبيريا هدية إلى إيفان الرابع IVAN IV أوجد البريطانيون والروس أكبر إمبراطوريتين في العالم، وفي نهاية القرن التاسع عشر، وعندما بلغ الاثنان أقصى توسعاتهم تقابلت حدودهما وهما يتسلقان بامير سقف العالم، ويمسكون بالخناجر في أفواههم، وينظرون إلى بعضهم البعض بشك وحذر من خلال ممرات جبال هندكوش.

وأكدت الظروف الجغرافية على التباين الجوهرى بين إمبراطوريتي بريطانيا وروسيا، حيث كانت الإمبراطورية البريطانية ذات فعالية أكثر اقتصادياً، فالمستعمرات البريطانية الواسعة تفصلها طبيعياً محيطات العالم عن بريطانيا الأم نفسها، وفي مستعمراتها مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا وجدت مستوطنات بريطانية فعلا تشرف عليها مؤسسات بريطانية في حكم مستعمراتها المكتظة بالسكان مثل الهند، وجلبت إليها قوات حربية وأعداداً من الإداريين ورجال الشرطة إلى جانب شخصيات اقتصادية وإدارية، وفي المقابل أخذت بريطانيا منها السلع والمواد الخام، ثم بعد ذلك صدرت إلى الهند رؤوس الأموال وأجهزة التصنيع للإنتاج والنقل، وحصلت منها ليس على كميات متزايدة من المواد الخام فحسب، بل على سلع مجهزة ومواد شبه مصنعة، وبعض هذه المنتجات ذهبت مباشرة إلى التجارة العالمية بدون المرور إلى بريطانيا، وقد

كانت على درجة عالية تنافس المنتجات التي صنعتها بريطانيا نفسها. وقد نجحت هذه العمليات كلها بالاعتماد على الاستغلال الجيد للموأصلات المائية الرخيصة، حتى إن القوة البحرية البريطانية انحصرت بصفة رئيسة في أسطولها الذي كان ذات قدرة فائقة في التمركز في أي منطقة على أي ساحل في العالم، واستطاعت أن تقطع خطوط التموين لأي منافس آخر، ومع أن عدد الرجال الذين سحبتهم من مراكز الإنتاج وجندتهم في البحرية الملكية وجيش البعثات الحربية الصغيرة كان أقل بكثير من عدد الجنود الفعليين الذين قُدِّرت الجهات المحايدة وجودهم في الجيوش الروسية أو الألمانية الضاربة حينذاك. وعندما يتباين التطور الاقتصادي في أجزاء مختلفة من العالم كثيراً، أصبح رخص الموأصلات المائية عاملاً حيوياً في نقل الخبرة والأجهزة إلى مناطق مختلفة، وكذلك في جلب المواد الخام إلى مراكز الصناعة المتطورة، فالإمكانات الصناعية وامتلاك السفن ساعد بريطانيا في السيطرة على صناعة النسيج الحديثة في الهند لوقت طويل، فالهند تزرع القطن وبريطانيا تصنعه وتبيع نسيجه إلى الهند، بالإضافة إلى أنها تربح من نقله في كلا الاتجاهين، وأما مساهمة هذا العمل في تطوير الصناعة في المناطق التي تنتج المواد الخام، فقد اتجهت عملية التبادل من التحول إلى الكماليات بعد أن كان للضروريات، وظهر هذا التغيير سياسياً في أهمية الطاقات الدولية التي بزغت من تحول عملية فرض المعاهدات إلى عقد اتفاقيات متبادلة بالتفاوض على أساس المساواة، وهكذا استقلت صناعة النسيج الهندية بعد طول معاناة، ولكن بريطانيا التي لا تزال تشتري القطن والمواد الخام الأخرى من الهند، ولا تزال تساوّم في علاقاتها التجارية مع الهند.

وعلى نقيض الإمبراطورية البريطانية التي انتشرت مستعمراتها في كل أنحاء العالم، وفصلت بينها محيطات وبحار، فإن مستعمرات روسيا القيصرية

تجمعت على يابس شاسع متصل، ومع أن أحد المؤرخين البارزين وصف التوسع الروسي بأنه الاندفاع نحو البحر^[1]، ومع ذلك لم يعمل الروس في بناء إمبراطورية بحرية بعد وصولهم إلى المحيط الهادي، وقد حصلت روسيا على ألاسكا، ولكن باعته طواعية واختصرت ممتلكاتها في كتلة اليابسة الشاسعة التي تمتد بين أوروبا وآسيا، وأوجدت روسيا أمة ثم جعلت من تلك الأمة سادة للإمبراطورية، وقررت التداخل مع الشعوب البدوية في حدود السهوب، وأصبحت الحروب الطبقيّة والسياسية بينها حروباً وطنية لكل من الروس وغير الروس، وعندما كانت خانات البدو هم السادة كان نبلاء الروس أتباعاً لهم وحكاماً على شعوبهم، وبالعكس لما غزا الروس السهوب دخل أمراء السهوب في خدمة الروس مع احتفاظهم ببعض امتيازاتهم^[2].

وهكذا فإن تماثل مصالح الطبقات الحاكمة بين الروس وغير الروس كان عاملاً هاماً في بناء الإمبراطورية، فقد كان معظم نبلاء غير الروس أعداءً للروس لأقصى درجة، ذلك لأن امتيازاتهم انتقلت إلى الأمراء الروس، ولكن عندما ضمنت لهم الدولة الروسية تلك الامتيازات في استمرار سيادتهم الاسمية لم يعد أولئك الأمراء المحليين زعماء ثورة وطنية ضد الروس، وبالتالي عندما اندلعت الثورة الروسية ظهر الجناح اليساري من أفراد الشعوب غير الروسية، الذي يؤيد الثورة الروسية ضد طبقة النبلاء الذين هم منهم، تماماً كما كانت الثورة ذاتها ضد الحكومة الروسية، وهذا التداخل أوجد مصلحة مشتركة وعلاقة وثيقة بين اليساريين والبلاشفة، ليس بهدف القضاء على دولة القياصرة فحسب، بل في تدمير المجتمع الذي انبثقت منه الدولة، ثم طبعت هذه المصالح المشتركة الإطار الدستوري للسياسة القومية الشيوعية الذي صاغه ستالين نفسه، وهذه السياسة التي هي وطنية في الشكل واشتراكية في

[1] Robert J. Kerner , The Urge to the Sea , Berkley 1942

[2] Owen Lattimore , "Inner Asian Frontiers " in the Journal of Economic History , Vol.7,pp.24-52 , May 1947, and The Situation in Asia, Boston 1949, p.16

المضمون، أتاحت إقامة دولة اتحادية قامت على ائتلاف دائم بين الشيوعيين الروس وغير الروس، وقد وحدت هذه السياسة بين دعاة الانفصال الوطنيين الذين يرون المحافظة على صفاتهم القومية والثقافية الذاتية، بعد أن تحققت آمالهم في جمهوريات ومناطق حكم ذاتي دستوريًا، ثم كوَّنت تلك الوحدات الجغرافية السياسية دولةً اتحادية بموجب قوانين سياسية واقتصادية.

والإمبراطورية القيصرية الروسية التي تجمّعت على اتساعها في قطعة يابسة واحدة، اختلفت اقتصاديًا عن الإمبراطورية البريطانية المتناثرة؛ لأن قدرة روسيا في الاغتناء من الأراضي التي استولت عليها وضممتها أقل كفاءة من بريطانيا، وذلك بسبب الاختلاف بين غلاء المواصلات البحرية ورخصها، حتى عندما أصبح جزءً من تلك الطريق البري يتم عبر نظام المواصلات النهرية في غرب الأورال في الأراضي الروسية، كانت المواصلات مكلفةً أكثر كما يتضح من تكلفة المنسوجات القطنية ذات الاهتمام الكبير في روسيا، فقد ازداد المشتغلون في هذه الصناعة، وزراعة القطن في آسيا الوسطى الروسية، واحتكار صناعتها في البلاد الروسية نفسها، بيد أن زراعة القطن حول تاشكند وسمرقند، ثم نقله بالقطار إلى موسكو وغيرها من مراكز صناعة النسيج، ثم بعد ذلك تصدير الأقمشة القطنية للمستهلكين في الإمبراطورية عبر الأراضي الشاسعة، جعل الربح أقل والتراكم الرأسماليّ أدنى مما كان ينتج من نظم الشحن البريطاني، الذي يتم بالبحر بين أمريكا ومصر والهند ومانشستر، والثورة الاقتصادية التي نظّمها الشيوعيون كانت متطرفةً مثل ثورتهم السياسية، التي عاجلت هذا الاختلاف، فقد اتجه التصنيع المباشر للمواد في أماكن مصادره في آسيا الداخلية وشرق سيبيريا، ثم أوجد التصنيع السوفياتي حاليًا أعظم محطات الطاقة والإنتاج العلمي المتنوع والقوى البشرية المدربة، مما قد يوجد في أي بقعة في آسيا، وتقع مراكز التصنيع السوفياتية بالقرب من الهند والصين وإيران، وهي أقرب من أي دولة غربية باستثناء اليابان القريبة من الصين، وقد تمكّن

الروس من الوصول إلى هذا النجاح الصناعي بتطوير مستوى التعليم العام، وتزايد خريجي المؤسسات التعليمية المتقدمة مما عليه في أي بلد آخر في آسيا بما في ذلك اليابان.

وفي هذا العصر تتقدم أمريكا إلى المسرح السياسي الذي شغل بخروج البريطانيين، وبعد تركيز القوة الأمريكية في الفلبين في عام ١٨٩٨م، وإعلان سياسة الباب المفتوح، والحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤-١٩٠٥م، أصبح هدفُ السياسة الأمريكية الخارجية هو تطويق النفوذ الروسي في المحيط الهادي والصين، بالإضافة إلى أن أحد مبادئها السياسية هو شغل الفراغ الناتج عن الضعف البريطاني، الذي يثير أطماع روسيا، وحيثما وجد الانسحاب البريطاني كان التقدم الأمريكي، وهذا ما حصل في آسيا الداخلية، حيث فتحت أمريكا قنصليةً عامة في سنكيانغ خلال الحرب لأول مرة في التاريخ، ونشطت سياستها في أفغانستان، ثم تم إنشاء علاقات دبلوماسية مع نيبال، واستقبال بعثة تجارية في واشنطن، واعتراض أمريكا على انضمام جمهورية منغوليا الشعبية إلى الأمم المتحدة؛ لأنها صنيعة روسيا.

هذه المراجعة التاريخية السريعة تساعد على معرفة المشاكل التي أحاطت بسنكيانغ، وتكونت من تداخل الماضي مع الحاضر، وفي الماضي انسابت إلى آسيا الداخلية مؤثرات من الصين والهند وإيران، وذلك قبل عهود طويلة مما جاء إليها في عهد الصقالبية، والأنجلوساكسون والأمريكان، وفي تلك العهود الغابرة عاشت فيها شعوبٌ تمسكت بحياة الاستقرار في الواحات، وشعوبٌ عاشت حياة الترحل في السهوب.

وأما اليوم أصبحت آسيا الداخلية مرة أخرى بؤرة تتجه إليها التيارات التي تهب إليها من روسيا والصين والهند ومن الشرق الأوسط المسلم أيضا، ويصل إليها النفوذ الأمريكي الغربي عبر الصين والهند، على أي حال فإن آسيا الداخلية

اليوم كما هي في الماضي لها مكانتها الثابتة، وشعبها ليس قطعاً جامدة على لوحة الشطرنج للقوى السياسية، بل هي قادرة على الاختيار السياسي الذاتي، وكما كانت في عهد عائلة هان الصينية وبدو الهون (هسيونغ-نو Hsiung-nu) قبل ألفي عام لها أهمية خاصة اليوم من نوع غريب، ذلك لأن هذه الشعوب بالرغم من أنها لا تستطيع بخدعة سياسية تعزيز قوتها لمصلحة ذاتها، ولكنها تستطيع أن تزيد قوة الطرف الذي تنحاز إليه، وتقلل من قوة الطرف الآخر الذي تعاديه أكثر مما هو متصور رياضياً.

الفصل الثاني: الصراع الأنجلو الروسي في سنكيانغ 1800-1917

البداية البريطانية وبناء الإمبراطورية الروسية:

فقد بدأت العلاقات الدولية الحديثة لسنكيانغ في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك عندما بدأت بريطانيا تتحرك نحو الغرب والشمال من الهند، وأصبح هذا التحرك حساسا بالنسبة لروسيا التي توسعت من سيبيريا إلى الجنوب، مما زاد من اهتمام بريطانيا وروسيا بسنكيانغ خلال أعوام ١٨٥٠ - ١٨٦٠م، وبلغت ذروتها في أعوام ١٨٧٠م، وذلك في عهد يعقوب بك الذي نجح في تأسيس مملكة جديدة في الفضاء الذي كان بين القوى العظمى، والمتسللون إليها من بريطانيا وروسيا هم من المهتمين الجغرافيين والمستكشفين وشخصيات أخرى، وبعض هؤلاء في الواقع من الباحثين عن المعلومات العلمية، وآخرون هم موظفون حكوميون بمهنة تجار أو رجال الاستخبارات.

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي أفاض الفرنسيون في حديثهم عن المعلومات الغريبة عن سنكيانغ وعن التهديد الروسي على الهند، ونابليون في زحفه إلى موسكو في عام ١٨١٢م حمل معه المعاجم وخرائط الهند، وربما كان يظن أنه يستطيع أن يقنع القيصر الروسي على التعاون معه في غزو الهند، مستذكرا غزو إسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد، وفي الواقع كانت هناك أحداث في فرنسا وروسيا تدور حول غزو الهند منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وفي كلتا الدولتين روسيا وفرنسا راجت المقترحات التي تسهل تحقيق هذا الغزو، لولا أن بعض المسؤولين العقلاء الذين شرحوا العقبات التي تحول دون تحقيق ذلك، ولكن

هذه الخطط كانت مسار مخاوف لدى بريطانيا على مستويات مختلفة استمرت قرناً ونصف منذ أيام نابليون^[1].

وفي وقت ما في عام ١٨٠١م في روسيا أعد القيصر باول الاستعدادات لغزو الهند، ولكن القيصر الإسكندر عندما تولى العرش في مارس ١٨٠١م ألغى تلك الاستعدادات في أول يوم لحكمه، وقد بقي ذكرى هذه المحاولة في الفكر الإنجليزي، وكتب العالم البريطاني جشاير Cheshire يقول: بقي تاريخ هذا اليوم راسخاً في شكوك بريطانيا العظمى حول حركات روسيا نحو آسيا الوسطى^[2]، وقامت بريطانيا باستكشاف الطرق المختلفة التي يمكن أن تسلكها روسيا من آسيا الوسطى عبر الممرات الجبلية إلى الهند، وفي عام ١٨١٢-١٨١٣م سافر مير عزة الله أحد عملاء البريطانيين من كشمير إلى ياركند وحول كابل وبخارى، ويخبرنا ه.و. دافيس H.W.C.Daquis بإيجاز عن «الطرق الرئيسة التي يسلكها التجار الروس إلى الصين وأفغانستان والبنجاب»، وفي العقد التالي لرحلة مير عزة الله رغب المستكشف وليم موركروفت William Moorcroft أن يذهب من كشمير إلى بخارى عبر ياركند «كان موركروفت يرغب أن يجد للمصنوعات البريطانية نصيباً في سوق آسيا الوسطى ومقاطعات غرب الصين»، وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر قام مسّاح بريطاني جريء يسمى جون وود John

[1] إن اهتمام الفرنسي بغزو الهند خلال الثورة الفرنسية وصعود نابليون كان موضوع كثير من الكتب، ينظر:

A.L.P. Dennis, Eastern Problems at the Close of the Eighteenth Century, Cambridge, Massachusetts 1901, especially Chapter III, "Napoleon Bonaparte and the Orient: The Egyptian Expedition "

ونماذج لمواد كثيرة تتصل بروسيا وتطلعاتها في آسيا الوسطى والهند:

A. Rouire, La Rivalite Anglo-Russe au XIXe siècle en Asie, Paris 1908,

Prince A. Lobanov-Rostovsky, Russia and Asia, New York 1933

وبحث للمؤرخ الألماني هرمان اونسكن حول خطط وتطورات اهتمام بريطانيا بأمن الهند في سلسلة محاضرات بعنوان:

Hermann Oncken, Die Sicherheit Indiens: Ein Jahrhundert englischer Weltpolitik, Berlin 1937

[2] Harold T. Cheshire, "The Expansion of Imperial Russia to the Indian Border" The Slavonic and East European Review, Vol.XIII, 1934-1935, p.90

Wood ليس بتسلق هضبة بامير فحسب.. بل باستكشاف طريق التجارة التي تربط حوض أوكسوس بتركستان الشرقية، والطرق التي قد يتسلل الجيش الروسي من وسط حوض أوكسوس إلى أفغانستان^[1].

وفي أعمال هؤلاء وغيرهم من المستكشفين البريطانيين يتضح العلاقة بين الأهداف الاستراتيجية والتجارية، ويصح القول نفسه على أعمال الروس، وفي أربعينات القرن التاسع عشر أخبر الوزير البريطاني إلى البلاط القيصري: إن أثرياء الروس من ملاك الأراضي وذوي النفوذ في هذه الأيام ممن وضع ثروته كلها في المصانع قد عانى من سيطرة جودة البضائع البريطانية في أسواق آسيا الوسطى، كما حدث ذلك أيضا في الصين، وقد أدى ذلك إلى روح التنافس مع إنكلترا^[2]، وفي أواسط القرن التاسع عشر اعتبر البريطانيون والروس أن التجارة مع آسيا الوسطى رابحة ومربحة، ولم يكن أي من الطرفين يرغب أن يفقد هذا الربح الوفير، فقد كان البريطانيون يعرفون جيدا أن امتداد الأراضي إلى آسيا الوسطى مما ساعد روسيا في سيطرة قوى القيصر عليها بدون منازع،

[1] H.W.C. Davis, "The great Game in Asia (1800-1844) Proceedings of the British Academy, Vol.XII, 1 926

دافيس في مقاله المثير والمعنون بعاليه وصف الدور الذي قام به عملاء حكومة الهند في التنافس الأنجلو- الروسي في آسيا الوسطى، وتناول فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر فقط، وأما النشاط الروسي خلال هذا القرن فقد تناوله جيشاير Cheshire من المصادر الروسية للمستكشفين الروس والجغرافيين، وكان ف. ف. بارتولد قد كتب بالتفصيل النشاط الروسي في كتابه:

V.V. Bartold (W. Barthold) Die Geographische und historische Erforschung des Orients, mit besonderer Berücksichtigung der russischen Arbeiten, Leipzig 1913

وتوجد نسخة فرنسية مترجمة لكتاب بارتولد

ويمكن أيضا مطالعة كتاب:

B.H. Summer, Russia and the Balkans 1870-1880, London 1937

ويمكن مطالعة الموجز للاستكشاف البريطاني لمنطقة بامير والمناطق المجاورة لها في الفصل الثالث بعنوان (آسيا الوسطى) في كتاب اللورد كرزون:

Lord Curzon, The Pamirs and the Source of the Oxus, London, 1896

وهو إعادة لمقالاته الثلاثة التي نشرت في مجلة الجغرافيا في نفس العام

[2] Vernon J. Puryear, England, Russia and the Straits Question 1844-1858, Berkeley California 1929 p.436

والكاتب يربط بين بعض أحوال آسيا الوسطى بأحداث في الشرق الأدنى.

ومع ذلك تجرء بعض البريطانيين بالمحاولة على بسط النفوذ البريطاني إلى بحر قزوين وبحيرة آرآل في آسيا الوسطى، وذلك بالعمل مع خانات المسلمين في المنطقة لفرض حمايتها على مصالح القوى الإسلامية^[1]، وعلى ضوء نتائج ما ظهر من الحرب البريطانية الأولى في أفغانستان 1839-1842م، وبصرف النظر عن مآسي ومجازر هذه الحرب لا يزال أحد المدارس البريطانية تتأسف على فشل السياسة البريطانية الكبرى هناك^[2]، ومن إحدى علامات هذه السياسة محاولة بريطانيا في عقد اتفاق بين خوقند (التي تقع غرب كاشغر) وإيران لغزو إمارة بخارى وقطعها عن روسيا، وقد أدى هذا الأمر إلى قتل الممثل البريطاني الرئيس آرثر كونوللي Arthur Conolly في 1842م، بأمر من أمير بخارى.

وكان القواد الروس يعتبرون أن آسيا الوسطى هدية محتومة لروسيا، وقد نشط عملاء القيصر في المنطقة منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر، وفي الأربعينات منه بدأت القوات الحربية في التقدم والاستيلاء على البلاد ما بين امودريا وسيرداريا، وكان التقدم الروسي سريعا خاصة بعد حرب القرم في عام 1854-1856م، وأعلن قواد القيصر بإصرار تقدمهم إلى الحدود الحساسة البريطانية يعني حدود الهند، وذكر ترينتيف Terent`yev وهو أحد أشهر الكتاب القياصرة عن آسيا الوسطى عن وضع يامير وكشمير في سبعينات القرن التاسع عشر: «الطبيعة فتحت الباب واسعا إلى الهند، وهذه المناطق التي يجب أن يستكشفها الروس، حيث يجب أن توجه إليها اهتمام الحكومة الروسية.. بالنظر إلى الفوائد الكبيرة التي نحصل عليها من النقاط الإنجليزية المهددة^[3]، وهكذا ستمكن القوات الروسية في الظروف المضطربة مستقبلا من تهديد القوات البريطانية في الهند، وتجبرها على سحب قواتها من البحر الأسود ذات

[1] Davis, op.cit, p.255

[2] Cf.Lt. Gen.George Macmunn, in his review of Maud Diver`s book The Hero of Herat and the Judgement of the Sword, in Journal of the Royal Central Asian Society, London, Vol.XVII (July 1930), pp.368-369

[3] M.A. Terent`yev, Russia and England in Central AQsia, 2 vols, Calcutta 1876, Vo. II, p.114

الأهمية القصوى لروسيا.

وفي مثل الظروف كانت سنكيانغ في مقدمة الاهتمام، وفي عام ١٨٥٧م بعد حرب القرم بسنة قام مستكشفان روسيان ولي خانوف وسيمينوف بدراسة الأحوال السياسية وتضاريس كاشغر ومنطقة تيان شان، وفي العام نفسه أعلن الحاكم العام القيصري لغرب سيبيريا: تحويل كاشغر إلى دولة مستقلة عن الصين تحت الحماية الروسية، مما سيفيد شعبها كثيرا، الذي عانى مظالم الصين والمانشور... ونجعل من أنفسنا أسيادا على آسيا الوسطى، ونستطيع أن نتحكم على كل الخانات، مما يسهل انطلاقنا إلى الأمام^[1]، وفي العقود التالية احتلت روسيا على خانات تاشكند وبخارى وسمرقند وخيوه وخوقند، واستفاد التجار الروس من هذه الغزوات على ترويج متوجاتهم وتأمين مصدر جديد لهم من القطن، إذ لم يرغب الروس الاعتماد في صناعة النسيج على قطن أمريكا الجنوبية، وخلال الحرب الأمريكية الأهلية ورغبة في إيجاد مصادر أخرى، قام الروس بإتمام احتلال تركستان في أعوام ١٨٦٠م.

وأراد الروس استغلال السخط العام الصيني لبريطانيا التي تطور في البلاط الإمبراطوري في بكين، بسبب الحروب الأنجلو-الصينية فيما بين ١٨٣٩-١٨٦٠م، واقترح القنصل الروسي في ايلي في عام ١٨٦٠م أن يقوم الحاكم العسكري للمقاطعة أن تنتقم الصين لنفسها بالهجوم على الهند عبر التبت ويوننان، وأرسل الحاكم العسكري المقترح إلى بكين، ولكنه تلقى رفضا تاما، وأشار البلاط الإمبراطوري أن روسيا ليس بشريك معتمد، وفي هذا العام طلبت روسيا حق امتياز فتح قنصلية في كاشغر، تماثل حق امتياز القنصلية التي فتحت بموجبها في غولجه عام ١٨٥١م، ومن ناحية أخرى نجحت روسيا في سيطرة على كامل المقاطعة البحرية شمال نهر أمور حتى فلاديفوستوك Vladivostok

[1] N. Vakar, The Annexation of Chinese Turkestan “, Slavonic Review, London, Vol. XIV, 1935-1936, p.119

وأخذت السياسة الروسية تتحول من آسيا الداخلية على طول الحدود الصينية إلى الطرف البحري.

والاهتمام البريطاني بسنكيانغ تزايد في الوقت نفسه خاصة بعد هزيمة البنجاب في عام ١٨٤٩ م في نهاية حروب السيخ وكشمير التي كانت جزءاً من إمبراطورية السيخ، تم تشكيلها إقطاعية السيخ المرتدة لخدمة البريطانيين مقابل ٥٠٠٠٠٠ جنيه، واعتقد البريطانيون أن موقعهم الجديد في شمال الهند تجعل في أيديهم مفاتيح كامل التجارة مع آسيا الوسطى^[1]، ويراقبون بقلق انتشار قوى القيصر في الخانات التي في شمال الجبال.

وفي أوائل ١٨٦٤ م نُشرت سلسلة من التقارير القيمة عن التجارة مع آسيا الوسطى، وفي هذا العام وافق مهراجا كشمير على تخفيض ابتزازاته عن التجارة التي تعبر أراضيها، ثم في عام ١٨٦٧ م تعيّن موظف بريطاني في ليه Leh في لاداخ، ولمساعدة تطوير التجارة مع الشمال، قام مسّاح بريطاني شجاع بزيارة خوتن وآخر اسمه هايوراد Hayward بزيارة ياركند وثالث روبرت ب. شاو Robert B. Shaw المؤلف بآسيا الداخلية، وكان ممثلاً حكومياً ومزارع شاي وتاجرا ورحّالاً جريئاً عندما وصل إلى كاشغر في عام ١٨٦٩ م، وهو العم للشخص المشهور سير فرانسيس يونغهبانند Sir Francis Younghusband.

وقد كانت حركة البريطانيين بطيئة في رأي مجموعة رجال الجيش والحكومة، وفي الستينات من القرن التاسع عشر طالبوا بعمل سريع يظهر قوة بريطانيا بالتعاون الودي مع الإمارات الإسلامية في آسيا الوسطى، وذلك لمنع التقدم الروسي شمال الجبال، والثورة الناجحة ليعقوب بك في سنكيانغ، دفعت على توصية حكومة البنجاب أن يقوم الحاكم العام في الهند بعمل إيجابي نحوه، وسكرتير حكومة البنجاب سي يو ايتجيسون C.U. Aitchison في ٤

[1] The Economist, London, Vol.VII, pt.1, June 2,1849

يناير ١٨٦٨ م كتب الآتي:

الفقرة ١٠ - إن خروج الصين من تركستان الشرقية أزال العقبات التي كانت تعيق التجارة مع ياركند وخوتن وكاشغر، بينما تقدم روسيا دفع مسلمي الشمال على التطلع إلى مساعدة إنكلترا، وسفراؤنا في خوقند وبخارى وخوتن يبدوون رغبتهم القوية لفتح العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية، وخاصة على تطوير التجارة بين هذه البلدان والهند البريطانية، وقد تلقينا اتصالات مشابهة بواسطة مهراجا كشمير من يعقوب قوش بكى الحاكم الجديد لياركند وكاشغر وخوتن، وفي الواقع لم يبق الآن إلا الاستجابة لهم والتحرك في الاتجاه المطلوب.

الفقرة ١٣: الليفنتات حاكم البنجاب يعتبر هذا الأمر مؤكدا لآسيا الوسطى (لأن البلاد التي يحكمها يعقوب قوش بيكي) جزء من هذه المناطق التي تزخر بالتجارة؛ لأنها غنية وكثيرة السكان وتطلع إلى الحركة والسلام أكثر من المناطق المعروفة بأراضي التتار، ومما ينشر من وقت لآخر في الإعلام العام ومن المصادر الروسية يتضح أن الروس هم أيضا يحملون نفس الأفكار.

الفقرة ١٦: لا بد من بذل كل جهد معقول من الليفنتات الحاكم لإقامة علاقة ودية مباشرة مع حاكم ياركند... ويرى الليفنتات الحاكم بقوة من السياسة الحكيمة أن يتم تفويض ضابط وطني ذكي وحكيم يعتمد عليه إلى بلاط يعقوب قوش بيكي، لمساعدة تجارنا ومتابعة مصالحنا واتساع التجارة، ويؤكد لحاكم ياركند صداقة حكومتنا [1].

ولكن تجاوب الحاكم العام للهند لهذه المقترحات كان الرفض التام، وكانت جريدة ايكونوميست قبل عام من هذا كتبت أن بريطانيا تقبض بيدها على الصين والهند، «بينما لم نستطع أن نحافظ على حياة الفلاحين في أوريسا (Orissa) (إشارة إلى المجاعة التي تسببت في موت أكثر من مليون نفس في شرق الهند في عام

[1] C.L. Showers, The Central Asian Question, London, 1873, pp.5-6

١٨٦٦) وبالتأكيد لا نستطيع أن نكون مسؤولين عن الرعاة في كاشغر^[1]، وحتى نهاية الستينات من القرن التاسع عشر كانت السياسة هي الترقب المنتظر.

وأما في لندن فقد كان النقاش يدور حول موضوع أكبر، وهو كامل السياسة التي يجب اتخاذها تجاه إمبراطورية المانشور التي بذلت الجهود لإضعافها، وكان المانشور يقاومون ثورة التايبنغ Taiping في جنوب ووسط الصين، وثورة المسلمين في جنوب غرب الصين، بالإضافة إلى الثورة في شمال غرب الصين وسنكيانغ، إذا نجحت هذه الثورات رأت بريطانيا أن ذلك سيؤدي إلى تدهور القوى الأجنبية، وأن التجارة تتضرر، وعليه تحولت السياسة البريطانية إلى دعم المانشور، حيث بدأت البنوك البريطانية تقديم القروض والمميزات المالية إلى حكومة المانشور بعد عام ١٨٦٧م، مما مكن تمويل القوات المانشورية في التغلب على الثوار في مقاطعات شمال غرب الصين، وكانت هذه القروض الأجنبية الأولى التي تحصل عليها الصين في تاريخها، والتي صرفت لدعم الجيش وليس لأهداف تنمية.

يعقوب بك مغامر آسيا الداخلية:

بالنسبة لبريطانيا في الهند كانت على أي حال روسيا وتجارة آسيا الوسطى ومستقبل سنكيانغ أمور في غاية الأهمية، لا يمكن تركها بالاعتماد على تقدم الجيش المانشوري، ومع نهاية الستينات في القرن التاسع عشر كان يعقوب

[1] The Economist, London, Vol.XXI, Jan. 19, 1867

بالمجازر التي حدثت في حرب الأفغان الأولى (1842-1839) كان راسخا في فكر اللورد لاورنس Lord Lawrence الحاكم العام ونائب الملك في الهند في الفترة من 1869-1864 أن يرفض بقوة أي مغامرة في آسيا الوسطى، والسيد جون ويلي John Wyllie سكرتير الإدارة الخارجية في المجلس التنفيذي للورد لاورنس كاتب: (Masterly Inactivity and Mischievous Activity) في مقال له بعنوان غرب الصين نشر في Edinburgh Review في أبريل 1868 ص 225 « اتهم كل إنكليزي يرغب الحديث في ذلك الوقت عن سفارة إنكليزية إلى ياركند أو خوتن بأنه عدو لوطنه » وأشار السير تي. دوغلاس فورسيت Sir T. Douglas Forsyth في سيرته Autobiography p.84 بأنه المقصود بكلامه.

بك الحاكم القوي في سنكيانغ لأكثر من نصف العقد، وكانت سلسلة التقارير المتفائلة التي يرسلها العملاء والتجار والرحالة البريطانيون من أمثال شاو Shaw ذات أثر كبير على كبار المسؤولين البريطانيين، الذين شعروا أن يعقوب بك يمكن أن يعزز سلطانه، وأن دولته القوية يمكن أن تشكل سداً منيعاً، ليس بين الصين وروسيا فحسب، بل بين الهند البريطانية والتوسع الروسي، وكانت سلسلة من النقاط في آسيا الوسطى، وكل منطقة تشغر فيها من النفوذ البريطاني تملؤها القوى الروسية.

وهذا التطور السياسي أثار انتباه السلطات العليا، وكتب بعض البريطانيين من ذوي المعرفة عن المخاطر التي تحدد بسبب علاقة يعقوب بك بروسيا، وقد حدث هذا بسبب فشل بريطانيا في التجاوب مع تطلعات حاكم كاشغر، الذي لم يكن أمامه إلا أن يخضع لقانون الجذب السياسي لمملكته الصغيرة، كما هو معروف في ظروف الدول الصغيرة التي تقع بين دولتين **عظيمتين عليها وتعتمد** على أحدها، وفي النهاية رأت بريطانيا أن تتوجه لدعم السلطات المانشورية؛ لاستعادة سلطانها في الصين.

وهكذا أنهت الهند البريطانية سياسة المراقبة، وقدمت الدعم إلى يعقوب بك في السبعينات القرن التاسع عشر.

وقد ظهرت شخصية عريضة عرفت لأول مرة في سنكيانغ في ستينات القرن التاسع عشر، وكان يرغب في إعادة سيادة الخوجه، وعائلة الخوجه من الأسر المسلمة الحاكمة بين القرنين (١٥-١٧) في سنكيانغ، وقد أخرجها المغول ثم المانشور منها، ووجدت الملجأ في خوقند (فرغانة الحالية) ومنها كانت تقوم بغارات إلى كاشغر وغيرها من مدن حوض تاريم، وعندما فقد المانشور سيطرتهم على سنكيانغ خلال الثورات الإسلامية، عادت عائلة الخوجه، وتمكّن أحد أفراد عائلة خوجه- هو الحاكم السابق لكاشغر- من

تكوين فرقة من الرجال من خوقند للاستيلاء على كاشغر وياركند في سنكيانغ في عام ١٨٦٥م، وكان القائد الرئيسي لقواته يعقوب بك شاباً مغموراً من خوقند، كان يقضي أوقاته في الرقص، وعندما بلغ مرحلة الرجولة أصبح جندياً، وعمل في مقاومة التوسع القيصري إلى خانية خوقند وما جاورها من الخانات.

وبعد الموجة الأولى من النجاحات في غرب حوض تاريم، انصرف الأمير خوجه إلى المملذات، مما مكّن يعقوب بك أن يخلعه وتولى الثورة الإسلامية؛ لاستعادة تركستان الشرقية بالاستيلاء على أقسو وخوتن واورومجي.

وبعد أن تمكن يعقوب بك من إحكام سلطانه على البلاد أعلن استقلال مملكته عن المانشور، معتمداً على اعتراف كل من الجارتين روسيا والهند البريطانية، وبعد فترة من التردد كان تجاوب بريطانيا له مشجعاً، وبالنسبة لروسيا التي كانت تشكّل هاجساً لبريطانيا في الهند، فقد كانت بريطانيا تمارس بعض الضغوط على نقاط ضعفها في منطقة البحر الأسود، وكانت بريطانيا وبخاصة حكومة الهند البريطانية ترغب في إنشاء واجهة مشتركة تجمع بريطانيا العظمى والمسلمين ضد روسيا^[1]، وفي سبيل تحقيق هذا الرأي طلب من سلطان تركيا بأن يوجه العالم الإسلامي ضد روسيا.

وعندما أرسل يعقوب بك الذي حمل لقب اتليق غازي سفيره إلى الهند في نهاية ١٨٦٩م، استقبل بحرارة لم يحظْ أحدٌ قبله من السفراء القادمين من كاشغر بها، ذلك لأن سي يوهيتجيسون C.U.Aitchison الذي كان سكرتير حكومة البنجاب أصبح سكرتير الإدارة الخارجية في حكومة الحاكم العام الهندي، وكان موقف حكومة الهند قد صُبغت بفكرة تكوين الجبهة الإسلامية ضد روسيا، وإن سنكيانغ قد يكون لها دور مهم في تحقيق هذه الفكرة، على

[1] Arnold J. Toynbee, Survey of International Affairs 1925, Vol.i, The Islamic World Since The Peace Settlement, London 1927, pp.40-41, and I.E. Frechtling, "Anglo-Russian Rivalry in Eastern Turkistan, 1863-1881," Journal of the Royal Central Asian Society, Vol.XXVI, London, 1939, p.479

الرغم أن حكومة الهند كانت لها مواقف سيئة ضد المسلمين بعد الثورة التي قام بها المسلمون ضد حاكم الهند لمواقفه العدائية منهم في عام ١٨٥٧-١٨٥٨ م.

وقد استقبل حاكم البنجاب مبعوث يعقوب بك بتكريم في لاهور، ثم منح فرصة لقاء نائب الملك في كلكتا، وقدم له طلب يعقوب بك بإرسال مسؤول بريطاني يقوم بزيارة ودية إلى بلاط يعقوب بك في ياركند، ووافق نائب الملك على أن يبعث تي دوغلاس فورسيث T.Douglas Forsyth للإعراب عن صداقته، مشترطاً أن يؤدي ذلك إلى تنشيط التجارة بين البلدين^[1]، وسمح لمبعوث يعقوب بك أن يشتري ٤٠٠ بندقية من كلكتا، و يحملها معه عبر الجبال إلى ياركند، وغادر فورسيث على رأس فريق صغير، وعندما وصل إلى ياركند لم يجد يعقوب بك الذي غادرها لمعركة حول اورومجي، فاضطر على العودة بسرعة قبل أن تغلق الثلوج الطريق إلى الهند في عام ١٨٧٠ م.

وعندما وصل السيد يعقوب خان توره ابن أخ يعقوب بك ومبعوثه إلى الهند في عام ١٨٧٣ م، استقبل بحرارة، وتم مساعدته في رحلته إلى استانبول، وهناك منح السلطان العثماني لقب أمير المؤمنين إلى يعقوب بك، ونصح أنه يكون صديقاً لبريطانيا، وأن يجتنب التعامل مع روسيا وأرسل السلطان معه ٢٠٠ بندقية وثلاثة مدافع وثلاثة ضباط مدربين، وعندما عاد المبعوث عن طريق الهند صحبه فورسيث على رأس بعثة بريطانية جيدة، وفي عام ١٨٧٤ م وقع فورسيث اتفاقية تفتح سنكيانغ للتجارة مع الهند، وحظي يعقوب بك برفع التمثيل الدبلوماسي إلى مستوى سفارة كاملة بين البلدين، وكانت تقارير بعثة فورسيث تفيد أن حكم يعقوب بك يتركز في سنكيانغ، مما شجع حكومة الهند البريطانية أن تسعى على بسط حمايتها عليه، وفتحت سبل تصدير الأسلحة تحت شركة تجارية برعايتها في عام ١٨٧٣ م، وفي عام ١٨٧٦ م صادقت رسمياً

[1] Sir T. Douglas Forsyth's Report of his visit to Yarkand, in Parliamentary Papers, House of Commons, London 1871, Vol.LI, p.46

على الاتفاقية التي تم توقيعها معه في عام ١٨٧٤ م، وبعد ذلك بعام مات يعقوب بك، وتفرقت قواته وسيطرت قوات المانشور على مملكته.

وعلى عكس بريطانيا كانت روسيا عاملت يعقوب بك دوما ببرودة، وكانت قد حصلت على عدد من التنازلات من المانشور، ولم يكن ترغب إثارة غضب بكين بالاعتراف بمطالب يعقوب بك، الذي كان عدوهم السابق، وقد قاتلهم قبل أن يغادر تركستان الروسية، فقد كانت تخشى أن تكون دولة يعقوب بك نقطة ارتكاز لمسلمي آسيا الداخلية، بما فيهم تركستان الروسية لمقاومة الغزو القيصري.

والمسؤولون الروس يرون أن قيام دولة إسلامية قوية في كاشغريا قد تجذب إليها تعاطف الشعوب المسلمة، ليست فقط في الدول الإسلامية الضعيفة التي تحاول حفظ استقلالها، بل الشعوب المسلمة في المناطق التي تحتلها، وهذه الرؤيا زادت من أهمية كاشغريا في أعين البريطانيين؛ لجذبها وبذل المزيد من المحاولات للتعاون معها:

أولاً- لإيجاد منطقة عازلة بين روسيا والهند

وثانياً: لجعلها سوقاً رائجا لبيع مصنوعات^[1].

وخلال فترة حكم يعقوب بك كان المسؤولون الروس يعملون على تحقيق سياستين: أحدهما التوجه الاستراتيجي، والثاني المصالح التجارية في سنكيانغ، واهتمامهم الاستراتيجي يتركز على وادي نهر إيلي الذي يعتبر منطقة تجارية قديمة وممر عسكري بين روسيا والصين، واعتبره المؤرخون الروس أنه مهم لروسيا كأهمية ممر خيبر لبريطانيا في الهند^[2]، وفي أثناء زيارة فورسيث الأولى إلى ياركنند في عام ١٨٧٠ م كان يعقوب بك في معارك حول اورومجي، ثم تحول منها إلى الغرب في حركة مفاجئة نحو إيلي، وروسيا التي لاحظت

[1] A.N. Kuropatkin, Kashgaria, Calcutta, 1882. pp.4-5

[2] A. Lobanov-Rostovsky, "Russian Imperialism in Asia: Its Origin, Evolution and Character," Slavonic Review, London, Vol.VIII, 1929-1930, p.44.

هذه الحركة قامت بحماية هذه الطريق التجاري وحركت جيوشها إلى غولجيه، واحتلت إيلي في عام ١٨٧١ م^[1]، وأكدت روسيا لبلاط المانشور في بكين أن المسؤولين القياصرة سيعيدون المنطقة حالما يتمكن الجيش المانشوري من بسط سيطرته الكاملة على البلاد.

وفي عام ١٨٧٢ م قام يعقوب بك بخوف أو بضغط من حركة الجيش الروسي بالموافقة على طلب القيصر؛ لفتح حركة التجارة لروسيا في تركستان الشرقية، مع أنه حتى ذلك التاريخ كان يمنع دخول التجار من روسيا؛ خوفاً أن تكون لهم أهداف في التدخل السياسي، ولا شك أن توقيع الاتفاقية التجارية مع فورسيث في عام ١٨٧٤ م كان يهدف منها إيجاد التوازن بين بريطانيا وروسيا، ولكن الأمر الذي أساء لروسيا ضد يعقوب بك حصوله على أسلحة من السلطان العثماني، وتلقبه بلقب أمير المؤمنين، مما اعتبر أن سنكيانغ أصبحت دولة تابعة لسلطان تركيا، وهي التي كانت من ألد أعداء روسيا، وتعتبرها تحت النفوذ البريطاني القوي، واعتبر المسؤولون القياصرة ذلك تلويحا ضدهم بالعلم الأحمر^[2]، وكان الحاكم العام القيصري لتركستان قد ركز قواته في مواقع يمكنه من الهجوم على كاشغر فيما بين ١٨٧٤-١٨٧٥ م، ولكن اندلاع ثورة خطيرة في خوقند اضطره على سحب القوات الروسية في عام ١٨٧٥ م، ثم قامت بعثة روسية برئاسة كوروباتكين بزيارة يعقوب بك في عام ١٨٧٦ م، وتمكنت من أخذ موافقته بالتمركز بعد التردد على النقاط الاستراتيجية في غرب كاشغر.

مع عام ١٨٧٦ م كان وضع يعقوب بك يزداد سوءاً، وفي الغرب والشمال كانت القوات الروسية تهدده، بينما من الشرق تسو تسونغ تانغ Tso Tsung-t`ang

[1] H.B. Morse , International Relations of the Chinese Empire, 3 Vols, London, 1918, Vol. II, p.331

[2] ويقال إن كاوفمان Kaufmann الحاكم القيصري العام لتركستان أنه قال عن كاشغر: إنها صنعية السيد فورسيث، وإن بريطانيا تعمل على خلق دولة إسلامية قوية من دولة غير مهمة.

Louis E. Frechtling, British Olicy (an unpublished Oxford dissertation, p.62 n.)

قائد القوات المانشورية تتقدم نحوه بعد أن احتل باركول وهامي ووصل كوجينغ تز التي تقع على بعد ١٠٠ ميل شرق اورومجي في عام ١٨٧٦م، وكان تسوقد تفاوض مع الروسي الكونيل سوسنوفسكي Sosnovskii في الحصول على إمدادات كبيرة من القمح لجنوده في عام ١٨٧٥م، وقد تم شراء ذلك بالقرض الذي حصل عليه المانشور من البنوك البريطانية، ومع ذلك فالبريطانيون على أمل أن تبقى دولة يعقوب بك التي يرون أن المانشور لا يتمكنون من احتلالها، وفي عام ١٨٧٦م أيضا كان سير توما واد Sir Thomas Wade يرى أن المانشور لا يتمكنون من احتلالها، وقد عرض هذا الوزير البريطاني في بكين على المانشور استسلام يعقوب بك لهم، على أن يحتفظ بدولته تحت حمايتهم، ثم لما عرض المقترح على تسو أجاب أن موضوع يعقوب بك مسألة داخلية، وإذا كانت بريطانيا ترغب في إيجاد دولة عازلة في آسيا الوسطى عليها أن تقدم لها أراضي من قبلها^[1]، ويبدو أن يعقوب بك شعر بالمأزق الذي أحاط به، فقد بعث ابن أخيه ومستشاره الرئيس السيد يعقوب خان توره إلى لندن.. كما أن السير واد Wade غادر بكين إلى لندن لمساعدته في التوصل مع الوزير المانشوري، ولكن قوات تسو كانت تتقدم تدريجيا في سنكيانغ، وقبل المعركة الفاصلة أصاب جنود يعقوب بك الفوضى والهلع، ذلك لأن يعقوب بك نفسه تناول السم، أو أُعطي له السم ومات^[2]، وفي هذا الحدث المضطرب تمكنت قوات المانشور

[1] A>w>Hummel (ed), Eminent Chinese of the Ch'ing Period, 2 Vols, Washington, D.C. 1944, Vol.II, p.766, article on Tso by Tu Lieh-che

[2] وهناك تكهنات عديدة حول موت يعقوب بك، وعلى {أي محمد يوسف أفندي

أحد الضباط الأتراك الثلاثة ان يعقوب بك أصيب بنزيف دم من انفه انكفء على وجه ولم يعرف سبب النزيف ولكن يوسف أفندي أعتقد انه جرى تسميم يعقوب بك أو ذلك كما جرى في حديثه المنشور:

Parliament Papers, House of Commons, 1880, Vol.78, (c.2470) pp.21-23 According to Bales "The Chinese seem to have had no doubt about Yakub beg, taking his own life" (w.L. Bales, Tso Tsung-t'ang, Shanghai 1937, p.365, citing Nien P'u, VIII, p.22_)

سريعا من السيطرة على كامل المقاطعة ماعدا إيلي التي كانت بيد روسيا.

عصر استقرار الإمبراطوريات قبيل الثورة الروسية:

لم تكن روسيا في عجلة من أمرها لإعادة منطقة إيلي، فقد كانت تتوقع انتصار المانشور، وقد كانت لكميات القمح التي قدمتها للمانشور دور مهم في هذا الانتصار، ولم ترد أن يكون إعادة بدون تعويض، وفي أوائل مارس ١٨٧٦م عقد مجموعة من كبار مسؤولي القياصرة المهتمين بسيبيريا وتركستان اجتماعا في سانت بتروسبورغ، وذلك لدراسة السياسة المطلوب اتخاذها نحو تركستان الشرقية، «وتقرر أن تحتفظ روسيا بغولجه، حتى يتم الاتفاق على بقاء وادي نهر تكس Tekes ضمن الإمبراطورية القيصرية، وتمنح الامتيازات التجارية لتجار روسيا، ويتم دفع تعويضات لروسيا على ما لحقها من الأضرار خلال الثورة في الصين، ويمكن معرفة نتائج الاتفاقيات التي تمت مع الصين من تحقيق هذا المشروع»^[1].

وجرت المفاوضات لانسحاب القوات القيصرية من غولجه في عام ١٨٧٩م، وحسب الاتفاقية المقترحة كان على روسيا أن تعيد الجزء الغربي من منطقة إيلي، يعني وادي نهر تكس وبعض الممرات الإستراتيجية، على أن تعطى لروسيا حرية التجارة في الصين، وأن يتم تعويضها على ما تحمته من نفقات خلال احتلالها منطقة إيلي، وقد تم رفض بنود هذه الاتفاقية بشدة في بكين، وجرى المطالبة بإعدام المبعوثين الموافقين عليها، وظهر في البداية أن المانشور سيحاربون بدلا من قبول هذه الاتفاقية، ولكن كان من نصيحة بريطانية لهم أن الحرب مع

[1] فقد وجد فرشتلينغ Frechtling في أرشيفات مكتب الخارجية البريطانية وثائق توضح ما

هية الاجتماع الذي تم في سانت بتروسبورغ في مارس 1876

“F.O.65/957, Loftus to Derby, September 26,1876, No.444, secret; and enclosure, Hon.F.A. Wellesley (Military Attache) to Loftus, September 18,1876, No.20, secret.

كانت إحدى أهم الوثائق العالية السرية التي حصل عليها ولسلي Wellesley عن طريق الرشوة.

روسيا قد يؤدي إلى زوال حكمهم، وبعد التردد قام مبعوث جديد من المانشور بزيارة سانت بطرسبورغ في عام ١٨٨١ م، وتم توقيع اتفاقية مشابهة لاتفاقية عام ١٨٧٩ م، تضمنت إعادة وادي نهر تكس وممر موزارت إلى الصين، ولم يتم تنفيذ حكم الإعدام على المبعوثين السابقين^[1]، وفي عام ١٨٧٦ م كان نائب الملك قد اقترح على مهراجا كشمير أن يضم إليه عددا من الممرات الجبلية الرئيسة التي تصل إلى كشمير، وأن يقيم مركزا بريطانيا للمراقبة في جلجيت.

وفيما بعد ومن خلال إجراء استكشافات عديدة في ثمانينات القرن التاسع عشر، تبين أنه لا يمكن لأي قوة حربية من آسيا الوسطى أن تعبر كشمير لغزو الهند، وتبددت المخاوف من غزو يأتي إليها من سنكيانغ، ومع ذلك لم يتلاش قلقها من هذا الجهة أبدا^[2]، وبعد أن احتلت قوات القيصر مرو في عام ١٨٨٤ م انتبه المسؤولون البريطانيون إلى دعوة دوق ارغيل Argyll أن المناورات الروسية

[1] وقد انتقد فرشتلينغ Frechtling بشدة الكتاب السابقين الذين كتبوا عن علاقات الصين الدولية المنتقدين للاتفاقية 1881 الذين وصفوها « بنجاح دبلوماسي جريء » (cf. Morse II) (p. 338) وعلى رأي فرشتلينغ إن روسيا بإعادة الجزء الغربي من إيلي أنهت ما كان يرغب المسؤولون القياصرة الحصول عليه في اجتماعهم الذي كان في مارس 1876 م، وقد يكون من المناسب أن يطلق علي اتفاقية 1881 النجاح الفارغ.

وفي الدراسة التي تمت على اتفاقية 1881 م أعلن مورس كوردير Morse Cordier والباحثون الذين تابعوه في دراسة الافتراضات التي كانت تنفيذ أن روسيا تصر الاحتفاظ بمنطقة إيلي التي تحتلها، وقد اتضح من التقارير البريطانية التي سجلت عن الوضع في إيلي في الفترة ما بين 1881-1879: أن الإدارة الروسية في غولجه لم تكن تعلم كم تبقى في المنطقة كما أنها لم تنفذ فيها أي مشروع تنموي، مما يفيد أنها لم تكن تفكر بالاحتفاظ بها منذ البداية.

V.Kiereman, British Diplomacy in China 1880-1885, Cambridge 1939, p.39

[2] لا شك أن حركة القوات القيصرية الاستطلاعية في عام 1878 م، أشعلت القلق البريطاني من هذه الجهة، وخاصة بعد أن توقف التقدم الروسي في منطقة البحر الأسود فأمر القيصر بتوجيه بعض الحركات ضد بريطاني في آسيا الوسطى.. وعلى هذا تم توجيه الجنرال كاوفمان Kaumann بالحركة من سمرقند إلى بلخ وباميان وكابول، بينما تلي الجنرال ابراموف Abramov بالتوجه من سمرقند إلى جترال وكشمير، ولم يحدث أي شيء سوى بعض المناوشات في بامير، وقد جاء في حديث أحد القواد: لم نعرف ماذا كان المراد من عبور الأرض أو الالتقاء بالسكان « (Cheshire p. 96) »

مسؤولة عن الاضطرابات في سنكيانغ، وأبدى السير هالداي ماكارتي Halliday Macartney خوفه بأن روسيا تستعد لحركة عظيمة نحوها (كاشغر) في عام ١٨٨٦م^[1]، ورغبة في مراقبة الأنشطة الروسية طلبت إنكلترا تسهيلات خاصة للتجارة فيها، وطلبت من رجال استخباراتها مساعدة الإمبراطورية المانشورية في تعزيز قدرتها للحفاظ على سنكيانغ، ومنع قوات القيصر في سيبيريا وآسيا الوسطى من التقدم نحو الجنوب.

وفي هذا الصدد قام الكونيل مارك بيل Colonel Mark Bell مدير الاستخبارات الحربية في الجيش الهندي برحلة من بكين إلى كشمير عبر حدود إمبراطورية المانشور، وفي نفس الوقت قام ف.إ. يونغهو زباند F.E.Younghusband البالغ من العمر ٢٣ عاما برحلة جريئة عبر طريق صعب، من صحراء غوبي إلى سنكيانغ كما عبر الجبال المنيعة إلى الهند، وتقارير هؤلاء الرحالة وغيرهم زادت من مخاوف البريطانية على مستقبل الإمبراطورية المانشورية، كما عززت من رغبة بريطانيا من أن يكون لها موقع رسمي في كاشغر، وخاصة أن روسيا بموجب اتفاقية ١٨٨١م، تحتفظ بقنصل عام لها هناك، وفي النهاية حصلت بريطانيا على تعيين مساعد خاص للشؤون الصينية للمقيم في كاشمير مع بداية عام ١٨٩٢م، وأول من تولى هذا المركز كان جورج ماكارتييني George Macartney ابن السير هالداي ماكلرتيني Sir Halliday Macartney .

وبصرف النظر عن مخاوف بريطانيا عن الأنشطة الممكنة لروسيا في سنكيانغ، أو من تهديدها العبور إلى شمال الهند عبر ممرات الجبال، كانت هناك مخاوف لروسيا من تعامل بريطانيا مع الأمراء المحليين في جنوب تركستان الروسية، وإيجاد موقع عازل بين القوتين العظيمتين كان مهما، وسنكيانغ فقدت أهميتها مع أنها كانت من المناطق المهمة لهما، فقد كان كل منهما في مناطق خطيرة تتنافس عليها في أوروبا والشرق الأدنى والشرق الأقصى.

[1] Cited in Kiernan, op.cit.p.207

وفي تسعينات القرن التاسع عشر عملا على تحقيق اتفاق ضمنى تجعل سنكيانغ منطقة متخلفة وعازلة بين القوتين، والخطوة الأولى في تحقيق هذا الأمر هو أن تتخلى روسيا وبريطانيا عن مناطق النفوذ في بامير، وتشكلت بعثة حدود بامير في عام ١٨٩٥م، وكان من عملها الفصل بين حدود روسيا وبريطانيا، بإيجاد الشريط الأفغانى في وادي واخان في أفغانستان، الممتدد عبر الجبال العالية إلى الطرف الغربى من سنكيانغ فى الصين.

ومع نهاية القرن التاسع عشر لم يكن هناك أى خلاف حاد بينهما على سنكيانغ، ثم تلاشت مخاوف البريطانيين بعد الاتفاق الإنجلو- اليابانى فى عام ١٩٠٢م، والحرب الروسية- اليابانية فيما بين ١٩٠٤-١٩٠٥م^[1]، ولم تعد سنكيانغ موضوع الاهتمام البريطانى بعد الاختلافات التى حدثت بينهما فى عام ١٩٠٧م، وجورج ماكارتينى القنصل البريطانى فى كاشغر فى عام ١٩٠٩م أثنى فى لندن على التزام روسيا بمواقفها، وأن سياستها تتصف بالتحديث الرائع، والعلاقات الروسية - الإنجليزية الجيدة أثارت مخاوف ألمانيا، وقد أشار كاتب بريطانى أن كلتا القوتين تتحركان بقلق بين شعوب آسيا، ونقل عن الجنرال كوروباتكين Kuropatkin فى تقرير له وهو وزير الحرب المرفوع إلى القيصر نقولاس الثانى Nicholas II « فى القرن العشرين ستكون الهند حملا ثقيلًا على روسيا، ولكن فى آسيا تزداد المقاومة فى المناطق غير المسيحية ضد المسيحيين، وفى هذه الظروف سنكون إلى جانب إنكلترا^[2]».

والثورة الصينية فى عام ١٩١١م أثارت مخاوف جديدة حول مستقبل سنكيانغ، ولكنها لم تزعج التعاون الإنجلو- الروسى، حيث قاومت الأحداث التى نتجت عن الحرب فى عام ١٩١٤م، واستمرت حتى الثورة السوفياتية عام ١٩١٧م.

[1] هذا الاتفاق الذى جعل اليابان تترقب سياسة البريطانية ضد روسيا وعندما تحدد الاتفاق بعد الحرب الروسية- اليابانية فى عام 1905 أضيف إليه حق الطرفين مصالح خاصة ليس فى الشرق الأقصى بل فى الهند.

[2] Cheshire, op.cit., p.17

ويمكن تخليص هذا الفصل في موضوعين، الأول: من الموقف العدائي من الجنرال القيصري سكوبليف Skobelev الذي كتب في عام ١٨٨١م في مقاله المشهور: «بدون أن يكون تقدم جدي من جهة قندهار نحو الهند، يستحيل التفكير في الحرب في شبه جزيرة البلقان»، ولكن سكوبليف على أي حال غير من تفكيره الذي لم يردده بعد ذلك، بل قال: ممكن أن نترك آسيا الوسطى كلها لتحالف جدي ومفيد مع إنكلترا^[1].

والنص الأخير يأتي من كتاب حديث لمسؤول بريطاني عمل مستشارا في مكتب الخارجية لشؤون الشرق الأقصى لمدة ثلاثين عاما:

طوال القرن التاسع عشر كان التوسع الروسي في آسيا الموضوع المثير في تقارير البريطانية في كل مدارس الفكر حينذاك، وأحيانا كانت الأصوات ترتفع أن إمبراطورية غير مقتدرة مثل روسيا لا يكون من قدرتها أن تتحمل متطلبات الغزو واحتلال الهند، ومع ذلك كان هذا الصوت دائما مرعبا، وقد أصررنا في مبالغة على قدرات روسيا كما لو كنا نقلل فيما بعد من مخاطر اليابان، ولكن من الصعب أن نفهم متى وكيف تتفاقم مخاوفنا من التهديد على الهند، وكان علينا من البداية أن نلقي بأنفسنا في طريق روسيا في الشرق الأقصى، وفي أنحاء أخرى من العالم تنازلنا عن دور فرسان إيرانت (Knight Errant) في العمل الدولي لمعالجة المآسي ومساعدة الضعفاء، ولم ن تدخل إلا عندما يكون ذلك مهددا لمصالح بريطانيا، ولكن من الصعب أن نجد ما يهدد مصالح بريطانيا في التوسع الروسي في شمال شرق آسيا في أواسط القرن التاسع عشر، وانتهاج سياسة واقعية كما ينفذها الذين ينافسوننا في أوروبا قد يكون مشجعا ومفيدا في اتخاذ ما يخفض من المخاطر المهددة للهند^[2].

[1] Cheshire, op.cit., p.96

[2] Sir John Pratt, War and Politics in China, London 1943, p.94

الفصل الثالث: السياسة الصينية في سنكيانغ

قمع ثورة المسلمين

سنكيانغ هذه الأراضي الحدودية الغربية التي أصبحت مقاطعة صينية باسم سنكيانغ Sinkiang في عام ١٨٨٤م، قد كانت معروفة عند الصينيين باسم شي — يو Hsi-yu أي: المنطقة الغربية، وتاريخ العلاقات الصينية بهذه الأراضي قديم يعود إلى عام ١١٥ ق.م. عندما بدأ الأمبراطور وو-تي Wu-ti من عائلة هان في إيفاد الرسل مع الهدايا إلى ملوك شي-يو حتى إذا كان عام ٣٦ ق.م كانت جميع ممالك شي-يو تعترف بالسيادة الصينية، وفي أواخر عائلة هان الصينية أجبر الصينيون خمسين مملكة على إرسال رهائنها إلى الصين، وعاد بعض أولئك الرهائن بزوجات صينية، أو بجنود صينيين، مما كان لهم النفوذ على السيادة المحلية، وعمل الصينيون على بث العداء بين تلك الممالك طبقا لسياسة (فرق تسد)، كما غزتها الجيوش الصينية عدة مرات، وكان أكبرها بقيادة الجنرال لي كوانغ لي Li Kuang-li الذي زحف إليها بقوة تقدر بمائة ألف جندي، ثم توالى إليها عدد من القواد الصينيين معهم الجنود والمستوطنين الصينيين؛ بغية في التحكم على واحات حوض تاريم حتى سقوط أسرة هان الصينية من الحكم في بداية القرن الثالث الميلادي.

وبعد بضعة قرون من الاضطراب وعلى إثر هزيمة الترك الغربيين في جونغاريا في عهد أسرة تانغ Tang عاد الغزو الصيني لمنطقة شي — يو، وأقام الأمبراطور الصيني حاميتين عسكريتين، أولهما في شمال تنغري تاغ Tien Shan وثانيها في جنوبها، واعترفت ممالك ألواحات بالسيادة الصينية خلال

الأعوام ٦٥٧-٧٥١ م.

وفي عهد أسرة تانغ تميزت السياسة الصينية بالعداء والاستبداد أكثر مما كانت في عهد أسرة هان، ولم تعمل السفارات الصينية التي ترددت إليها على رشوة الأمراء بقبول السيادة الصينية فحسب، بل عملت على جمع معلومات إستراتيجية عن المنطقة، وبدلاً من أخذ الأمراء رهائن، أخذت الصين مستوطنين إيرانيين كثيرين من منطقة شي — يو إلى مقاطعتي كانسو Gansu وشنسي Shensi، ولم يعمل الإيرانيون جنوداً في وحدات الجيش الصيني فحسب، بل تولى القواد الإيرانيون والأويغور مناصب إدارية في الصين، وتوسعت الإدارات العسكرية والمدنية، وتقدمت على جانبي تنغري تاغ، حتى إذا حل عام ٧٤٢م، كانت القوة الصينية تقدر بحوالي ٤٩٠٠٠٠ رجل، مع أكثر من ٨٠٠٠٠ حصان، تحت إمرة عشرة قواد يشرفون على القواعد العسكرية الحدودية، وأخيراً تمكن أمير تاشكند بمساعدة العرب من إلحاق هزيمة منكرة بالصينيين في معركة قرب نهر تالاس عام ٧٥١م. مما أدى إلى استقلال ممالك آسيا الداخلية عن الصين^[1].

وأما الغزو الصيني الثاني لمنطقة شي — يو فقد كان في عهد المانشور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، ثم أصبحت مقاطعة صينية باسم سنكيانغ بعد ثورة يعقوب بك في أواخر القرن التاسع عشر، واتصفت الإدارة المانشورية في المنطقة بالضعف العسكري، مما كانت عليها في عهد أسرة هان، وبالضعف السياسي عما كانت في عهد أسرة تانغ، ويلاحظ قسوة ووحشية الإدارة المانشورية في المذابح التي حدثت في جونغاريا، وضد ثورات الأويغور في حوض تاريم، التي لم يسبق لها مثل في التاريخ، وقد بلغت ذروتها في قمع ثورة يعقوب بك.

[1] Fan Wen-lan and others, A short General History of China, Shanghai, 1947, p.279. (in Chinese)

وقد حصل الصينيون على أول قرض أجنبي في تاريخهم لقمع ثورة يعقوب بك، وفي عام ١٨٧٦م تعيّن تسوتسونغ تانغ (Tso Tsung-tang) قائد صيني من مقاطعة هونان كان قد نجح في إخماد ثورة التابين Taiping وأظهر إخلاصه لبلاط الأمبراطور المانشوري) قائدا عاما على القوة المتجهة إلى سنكيانغ، كما تعيّن ليو جينغ-تانغ Liu Ching-tang نائبا له، ثم صار الحاكم الأول لسنكيانغ؛ لما أظهره من كفاءة، وعندما كان القائد تسوتسونغ-تانغ في مدينة سوجو Suchow بمقاطعة كانسو جمع كميات كبيرة من القمح، قدرت أنها تكفي لاحتياج جنوده لمدة سنتين، وبعد ذلك توجه بجنده إلى سنكيانغ، ولما وصل إلى قمول وباركول وكوجنغ تز قسم جنده إلى مجموعتين، واحتفظ بالجنود المهرة في الجيش النظامي، واستبقى بالأقل كفاءة في المدن الثلاثة؛ للاستيطان والزراعة على توفير المواد الغذائية لبقية أفراد الجيش.

ثم تقدم ليو جينغ تانغ نحو الغرب محتلا مدينتي اورومجي ومناس، ثم استدار إلى جنوب تنغري تاغ، حيث احتل مدن قراشهر وتوقسون وتورفان في عام ١٨٧٧م، وعلى إثر سماع هذه الهزائم انتحر يعقوب بك في كورلا، واحتل تسوتسونغ تانغ مدن كوجار وباي واقسو واوج تورفان في خريف عام ١٨٧٧م، ثم سقطت المدن الغربية كاشغر وياركند وبنكي حصار و خوتن في أوائل عام^[1] ١٨٧٨م، وكان الشعب الذي أنهكه يعقوب بك بالضرائب يرحب بالقوات الصينية.

وقبل هذا الغزو الصيني كان قد ثار جدل كبير في الصين عن أهمية غزو سنكيانغ، وكان لي هونغ جانغ Li Hung Chang في مقاطعة جي هيلي Chihli) ويعرف حاليا باسم هوبي Hopei) وباو يوان شينغ Pao Yuan Shing حاكم ولاية شانسي، يريان التخلي عن غزو سنكيانغ وتركيز الدفاع على الساحل،

[1] Yao Hsin-an "Development of Sinkiang policy toward and the end of the Ch'ing Dynasty" in Hsi Pei Yen Chiu, (Northwestern Research) Peiping 1932, No.3, p.32 (in Chinese)

ولكن تسوتسونغ تانغ على العكس من ذلك يصّر بعناد على إتمام احتلال الشمال الغربي، ويشير إلى المخاطر التي قد تنتج عن عدم الاحتلال.

وبالنسبة لرأي لي وباو كانت سنكيانغ طرفا من الأطراف النائية، بينما الساحل يشكل قلب الصين، فالعاصمة قريبة من البحر وذات صلة وثيقة بالدفاع عن الساحل، وفي حالة ضياع العاصمة، فإن احتلال سنكيانغ لن يجدي شيئا، والغزو العسكري للأراضي الغربية غير ذات أهمية وضرورية مثل الدفاع عن الساحل^[1]، علاوة على ذلك فهناك مخاطر عسكرية ومالية تواجهها الحكومة الصينية بدفع الجيش بالزحف العسكري إلى ما بعد سوجو Suchow، فقد كلف إخماد ثورة التايين Taiping الخزينة أموالا كثيرة، وكذلك فإن احتياج القوات الغازية لسنكيانغ ستجر إلى مشاكل مالية خطيرة، بالإضافة إلى أن فرصة نجاح هذه الغزوة ضئيلة^[2].

وحسب هذه الفكرة فإن الجمع بين الدفاع عن الساحل ومناطق الحدود الشمال الغربي، والاحتفاظ بسنكيانغ مستحيل وعبء كبير على الصين في أي حال؛ لأن سنكيانغ ليست منطقة ذات عوائد اقتصادية، بل تلزم حكومة الصين تمويلها بشكل كبير، كما أن احتلالها يسيء إلى علاقات الصين الدولية؛ لأن الصين ليست على قدر كبير من القوة لمواجهة روسيا وبريطانيا وإيران وتركيا التي لها مصالح في سنكيانغ، ومن الأفضل عمليا التخلي عن احتلالها، بدلا من الاستيلاء عليها مؤقتا، وكانت معلومات البلاط المانشوري محدودة عما قد تثيرها تركيا وإيران ضد الصين من مخاطر.

وبناء على ما سلف فقد أشار لي هونغ جانغ Li Hung Chang على البلاط المانشوري أن يسحب القوة العسكرية من الشمال الغربي، وأن يعمل على توطين بعض أفرادها ليس في سنكيانغ بل في كانسو وان هسي Anhsi وتونغ

[1] Yao Hsin-an, op, cit, pp.27-29

[2] Ibid

هوانغ Tung Huang حتى يتكون فيها قوة حربية دائمة يمكن الاستعانة بها وقت الضرورة، وإن هذا الأمر سيدفع الحكومات المحلية في أيلي واورومجي وكاشغر وغيرها للاعتراف بالحماية الصينية أو بالتبعية لها، مثلما تم في آنام وكوريا أو مياو Miao وياو Yao وتاي T`ai الإمارات القبلية على حدود يوننان Yunnan وكوي جو Kwei chow وسزجوان Szechuan.

وفي الاتجاه المعارض لسياسة التخلي عن سنكيانغ قاد تسوتسونغ تانغ بحماس شديد عملية الإطاحة بثورة يعقوب بك واحتلال سنكيانغ، ويتلخص رأيه: على أن سنكيانغ ذات أهمية استراتيجية لشمال الصين؛ لأن الدفاع عن بكين يقع على القواعد العسكرية في كالغان Kalgan وأوليا سوتاي Uliassutai وكوبدو Kobdo، كما أن الدفاع والاحتفاظ باورومجي وكذلك باركول عن منغوليا يعتمد على سنكيانغ، بينما الساحل الصيني لا تهدده القوى الأجنبية بالغزو، بل تتنازعه مصالح تجارية لا تهدف إلى توسع عسكري أو مدني، وأن تشديد السيطرة على سنكيانغ يتطلب الاحتفاظ بارومجي وكذلك باركول وقمول في الشرق، وجوكوجاك في الشمال الغربي، وأكد تسو عن اقتناعه بأن جونغاريا أكثر أهمية استراتيجيا من حوض تاريم، وعلى هذا فهو لن يصغي للأصوات المعارضة حتى تسقط سنكيانغ ويتم إدارتها جيدا.

وكان تسو قد اقتنع تماما بأهمية احتلال سنكيانغ، ولما اقترح الوزير البريطاني في بكين على البلاط المانشوري بأن يبقى على حكومة يعقوب بك محمية صينية، اعترض بعنف على هذا الاقتراح، وعندما حمل الوزير الصيني في لندن رغبة البريطانيين بالاعتراف بمملكة منفصلة في كاشغر، ردّ عليه تسو بقوله: «إذا كان البريطانيون صادقين في مشاعرهم نحو كاشغر، عليهم أن يمنحهم بعض الأراضي الهندية، وإذا رغب الوزير البريطاني في بكين أن يبحث هذا الأمر، عليه أن يذهب إلى معسكر تسو في سوجو Suchow^[1]، وبمثل هذا الإصرار

[1] Chiang Chun-chang, Hsinchiang Chin-Yin Lun, Nanking, 1936, especially the pref-

الذي اتصفت سياسته قاد تسوتسونغ تانغ جنوده من جونغاريا لاحتلال حوض تاريم.

وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت الصين فعليا تحت نفوذ ثالث يتكون من: تسوتسونغ تانغ ولي هونغ جانغ Li Hung-chang وجانغ جيه تونغ Chang Chih-tung نائب الإمبراطور المشهور في خوبيه Hupeh وهونان Hunan الذي تعاطف مع سياسة تسو أكثر من تعاطفه مع لي هونغ جانغ، وحبذا إرسال وفد إلى بتروسبورغ؛ لإجراء مفاوضات مع روسيا لاستعادة إيلي^[1]، وفي النهاية انتهى القرار لصالح تسو بدون رعاية لأمجاد الأسلاف الحربية^[2].

ومنذ أن احتل الإمبراطور جين لونغ Ch`ien-lung جونغاريا وحوض تاريم وضمهما إلى الصين في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ظهر كأن إهمال استعادة سنكيانغ وإيلي هو تخلي البلاط الإمبراطوري عن اتباعه^[3].

وفي سنكيانغ تميزت إدارة تسوتسونغ تانغ بالحذر واختيار الموظفين المدنيين والعسكريين؛ للتعامل بالقسوة والبطش ضد المسلمين بهدف منع ثورتهم في المستقبل، واستخدم تسو أقاربه وأبناء موطنه هونان في الإدارة، مما أدى إلى سيطرة الموظفين الهونانيين كاملة على إدارة سنكيانغ في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وكان الأويغور في نظر تسو شعبا عاصيا، بينما اعتبر المسلمين الصينيين خونة؛ لأن معظمهم من أصول صينية، كما أنهم صينيون لغة، وبهذه الفكرة قتل تسو الكثيرين منهم، كما انتهج سياسة فرق تسد، واستعمل بعض الاعتدال مع الأويغور والقازاق والمغول.

ace, by Ch`en Hsun-tze

[1] Ibid

[2] Yao Hsin-an, op.cit., p.30

[3] قامت خانيه مستقلة برئاسة ايبيل اوغلو Abil-Oghlu في وادي إيلي في عام 1871 وأصبحت محمية روسية حالما دخلتها القوات الروسية، وفي عام 1900 كان عدد سكان منطقة إيلي 170 000 نسمة وفي جوكوجاك 130 000 نسمة، انظر:

Entsiklopedicheskii Slovar, St. Petersburg 1903, Brokgaus I, Yefron, pp.805-809

وبالرغم أن تسو أكمل احتلال حوض تاريم، لكن النقاش الحاد بين الموظفين والبلاط الإمبراطوري استمر حول وضع المنطقة، إلى أن تبنى البلاط المانشوري رأي تسو، وصدر مرسوم إمبراطوري بتحويل سنكيانغ إلى مقاطعة وتسميتها سنكيانغ Hsin Chiang (أي: الأرض الجديدة، أو كما ترجمت حديثا بالمستعمرة الجديدة) [1]، وجعل أرومجي عاصمة لها وتسميتها: تي-هوا Ti-Hua، وتأسس أكثر من عشرين إدارة أقليمية فيها وذلك بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٨٨٤ م.

ويمكن تصنيف الصينيين الموجودين فيها حينذاك إلى أربع فئات (سيتم بحثهم بالتفصيل في الفصل الرابع) وهي:

أولاً- المجرمون والموظفون المنفيون من الصين خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ثانياً- عوائل وأسرى الموظفين الصينيين من عسكريين ومدنيين، ومعظمهم من مقاطعات الصين: هونان ويوننان وكانسو والمناطق المانشورية في الشمال.

ثالثاً- التجار ويشمل المرابين من شانسي وتين تسين Tientsin وتجار الشاهي من هوبه Hupeh وهونان.

رابعاً- الفلاحون والمهجرون إليها بالمرسوم الإمبراطوري الذي تضمن تقديم إعانات مالية إلى كل من يهاجر ويستوطن سنكيانغ في عام ١٧٧٦^[2].

وقد انتشر تجار تين تسين في وادي إيلي شمالاً إلى ماوراء مدينة غولجيه، وقبل عشرين عاماً تقريباً أشار سائح بريطاني إلى أن التجار الناجحين في غولجيه هم من القادمين إليها من تولىو Tou Liu ويانغ ليو جينغ Yang Liu ching، من

[1] Tung-hua hsu-lu ,1a-1b, kUanghsu 66; Ta Ch`ing Te Tsung Ching Huang-ti Shih-lu 190.27a-28a; and Ch`ing Shih Kao, Pen-chi, Vol.23.17a.

[2] Wang Hsien-chien, Tung-Hua Lu (Collection of State Papers) Imperia Edict of June 1776

مدن غرب تين تسين، وإن تجارة إيلي بقيت في أيدي هذه الأسر عبر الأجيال، وبالنسبة إلى علاقات الصينيين الاجتماعية فإنه لا يستغرب أن الصينيين القادمين إليها من تين تسين يشكلون جماعة واحدة، يمكن تمييزهم بين فئات الشعب من أصحاب الأملاك إلى الحلاقين في مدينة غولجه [1].

ومنذ أن أصبحت سنكيانغ مقاطعة في الصين، فالأقلية الصينية فيها تحكمها حكما غير مباشر، وهو الأسلوب الذي وجدته الإدارات الإستعمارية مجديا أكثر، ولم تتدخل حكومة الصين كثيرا في البناء الإقطاعي التقليدي للأويغور والقازاق والقرغيز والمغول، بل استخدمت الأمراء والحكام المحليين عملاء في الحكم والإدارة، وكانت النتيجة، كما هو الحال في سيكانغ Sikang والأجزاء الجنوبية في يوننان، وأدى هذا الحكم اللامباشر إلى انقسام الإدارة إلى طبقة عليا يسيطر عليها الصينيون، وطبقة سفلى تتكون من الأهالي، ومن مساوئ هذا النظام أنه لا يشجع على تطوير الإدارة والسياسة، بل يعزز نظام الإقطاع ويعيق التطوير و تحديث المجتمع.

وبينما تفشى الفساد والرشوة والانحلال في طبقة الإدارة السفلى، فإن طبقة الإدارة العليا خضعت لسياسة الحاكم أو رئيس حكومة المقاطعة، وبالنسبة لهذه الطبقة العليا فالسياسة الصينية مرت بثلاث مراحل هي:

النظام البيروقراطي القديم، الذي دام نصف قرن من ١٨٨٤-١٩٣٣م، ويمثل الحاكم يانغ تسنغ هسين Yang Tseng-hsin، والوالي جين شوجن Chin Shu-jin، وهما نماذج لأواخر البيروقراطية الإمبريالية القديمة، مع أنهما عملا لجمهورية الصين.

مرحلة أمير الحرب شنغ شيه ١ تساي Sheng Shih-tsai الذي بدء بسياسة تحررية، وانتهى بسياسة القمع الوحشي في فترة حكمه ما بين ١٩٣٣-١٩٤٤م.

[1] Journal of Central Asian Society, Jan.1931, Vol.18.pt.140

١- الفترة من ١٩٤٤م إلى سقوط سنكيانغ بيد الشيوعيين الصينيين القادمين من الشرق، والشيوعيين الروس القادمين إليها من الغرب، وقد تميزت سياسة الكومنتانغ في هذه المنطقة الحدودية بالانتهازية لمواجهة الأحداث المزممة.

الإقطاعية البيروقراطية 1884-1933م:

وكان من أهم الإقطاعيين البيروقراطيين هو يانغ تسنغ هسين -Yang Tseng-hsin ولد في يوننان من عائلة انتقلت إليها من نانكين، وبعد أن اجتاز بنجاح الخدمات المدنية الامبريالية عُيّن حاكما لمنطقة في كانسو، ثم ترقى إلى رئيس إدارة أقليمية (تاوتاي Taot`ai) في المقاطعة ذاتها، وكانت سجلاته الوظيفية جيدة، مما لفت انتباه وانغ شو-تانغ Wang Shu-t`ang مفوض الشؤون الداخلية في سنكيانغ، الذي اقترح تعيينه حاكما (Taot`a) على منطقة أفسو، ثم صار حاكما على اورومجي وباركول.

وفي عام ١٩١٢م بعد الاضطرابات التي صاحبت الثورة الصينية، تقاعد حاكم عام سنكيانغ، وتولى يانغ منصب الحاكم العام، وتفاوض يانغ مع الثوار في إيلي، وقمع ثورة إسلامية في قمول، كما أخمذ ثورة كولاو هوي Ko lao Hui (الإخوة الكبار) السرية في حوض تاريم ووحّد جميع إدارات المقاطعة.

وكان معظم القواد في الجيش والشرطة عند يانغ من موطنه يوننان وهم من الشباب المتحمسين لجمهورية الصين الجديدة، وفي عام ١٩١٦م عندما قام الجنرال تساي او Ts`ai Ao بتشكيل ثورة ضد يوان شيه كاي -Yuan Shih-k`ai لتأسيس مملكة في يوننان، أراد الشباب الانضمام إلى حركة الجمهوريين، وعندما رفض يانغ الانضمام إليهم قاموا بتدبير خطة لقتله، ولكن اكتشفت الخطة من قبل أحد رجاله من المباحث، ودبر هو خطة ماهرة ليتخلص منهم.

أولاً- طلب الموظفين اليونانيين للمثول بين يديه؛ للاستجواب عن المؤامرة، وعندما أنكروا ذلك قام بإعدام رجاله من المباحث؛ لإقناعهم بأن ما نقل إليه من المؤامرة كانت كذبة، ثم نقل عوائلهم إلى داخل الحي الذي يسكنه، ثم انتهز فرصة إقامة حفلة لمفتش وزير التعليم القادم من بكين، ودعا كل الموظفين اليونانيين المهمين إليها، وفي قاعة الطعام قام حراسه بقتل اثنين منهم، وتم اعتقال الباقيين ومعاقبتهم^[1].

ويتصف يانغ بأنه متوسط الارتفاع، مع وجه قاس، ويبدو عليه الوقار ولكنه مريب، وقد تولى حكم المقاطعة بشكل منفرد، بدون اهتمام كبير بتعليمات الحكومة المركزية في بكين، وبالرغم أنها حاولت إزاحته أو إحالته إلى التقاعد، ولكنه تمكن من الاحتفاظ بموقعه بالرشوة والقوة، والموظفون الذين تم إرسالهم لذلك تم احتجازهم في المقر الرئيسي حتى تأكد من عدم قدرتهم على العمل أو مقاومته، وأغرامهم بالهدايا والرشاوي وأعادهم بأدب.

وفي أثناء خمسة عشر عاماً لحكمه ركز أفراد عائلته في المقاطعة تماماً من طرف لآخر، وفي عام ١٩٢٧م كان حكام كل المناطق في جنوب سنكيانغ من كرية إلى كاشغر ممن يلوذون له بقرابة مباشرة أو بالمصاهرة ما عدا اثنين أو ثلاثة.

وخلال حكمه واجه يانغ مخاوف الثورة، ولكنه عالجها بالحذر في تعامله مع الشعب والأحداث، وكانت الصحف الصينية والأجنبية تحت الرقابة الصارمة، أي: الأخبار التي تثير الاضطرابات كانت تمنع من دخول المقاطعة، لم يسمح بصدور جريدة باللغة الأويغورية أو القازاقية^[2]، ومكتب البرقيات كان

[1] أخبر بهذه الواقعة هسيه بين Hsieh Pin وكان هو المفتش الذي حضر من بكين وحضر الحفلة وذلك في كتابه باللغة الصينية

Account of travels in Sinkiang, Shanghai, 1925, p.135

[2] W. Bosshard, "Politics and Trade in Central Asia" in Journal of the Central Asian Society, London 1929, Vol.16. pt.4, p.438 and also Hsieh Pin, op. cit., p.135

في مقر يانغ، ويشرف عليه بنفسه، إذ تولى بنفسه فتح وإغلاق المكتب، ولم يسمح بالموظفين العاملين فيه بالتحدث للآخرين، وتولى بنفسه مطالعة الوثائق المهمة التي لم يتمكن رؤساء الإدارات الاطلاع عليها بدون ترخيص منه.

وقد قام يانغ بتغيير مهم في إدارة المواطنين على مستوى بيكوات أو روساء الأويغور، وقبل عام ١٩١٠م، وبعد أن أصبحت سنكيانغ مقاطعة، كانت الحكومة الصينية قد منحت بيكوات ميزات المرتبة الصينية هسيانغ Hsiang Yeh رؤساء المناطق؛ لأن الحكام الصينيين يأتون ويذهبون من المقاطعة بينما هؤلاء رؤساء المناطق المحليين غالبا ما يستمرون في مكاتبتهم لمدة قد تستغرق عشرين أو ثلاثين عاما، ومحاولة إقالتهم كانت نادرة، وفي عام ١٩١٥م وجد يانغ طريقة يستطيع أن يتحكم بها على القوة المحلية، فأمر أن يتم انتخاب ولاية المناطق أولا، ثم يتم ترشيحهم من الحكام الصينيين، ثم يكون تعيينهم من قبله، ويمكن أن يعزل الوالي بعد تعيينه في أي وقت، ولكن يحتفظ بحق إعادة الترشح في الانتخاب^[1]، ومعنى هذا الترتيب في التعيين من الانتخاب والترشيح والتعيين أنه أيضا سيكون سببا بالتقدم بالشكوى ضد الولاية.

كرجل يمثل البيروقراطية القديمة عرف يانغ بالكرم في إنشاء العلاقات الجيدة، كما عرف بشدة العقوبة ضد المتهمين، وقد شاع عنه بعض القصص بين العامة، ذلك أنه حتى في تطبيق العدالة كان طاغيا، وفي إحدى هذه القصص كما يروى أنه بينما كان يتجول في شوارع العاصمة مثلما كان هارون الرشيد يعمل، رأى أحد الجنود يسرق ١٤ حذاء، فأطلق النار عليه في الحال^[2]. وفي ذات الوقت كان كريما مع اللاجئين الروس في سنكيانغ، حيث سهل لهم العمل وأعطى بعضهم قروضا، ويقال إنه قدّم المال لابن فان ياونان Fan Yao-nan مفوض الشؤون الخارجية وهو الرجل الذي اغتاله فيما بعد.

[1] Tseng Wen-wu, Chung Ku Kin Ying Hsi Yu Shih, Shanghai 1936, p.592 (in Chinese)

[2] Anonymous "His Excellency Yang Tsen-hsing" in Journal of Central Asian Society, London 1929, Vol.16.pt.I, pp.88-89

وفي سياسته تجاه القوميات غير الصينية في سنكيانغ استعمل يانغ السياسة التقليدية في استعداد بعضهم على بعض، واستغلال المعارك التي تحدث بين مختلف هذه القوميات، فقد كان مغول تورغوت في حكم المانشور لهم مزايا ضد القازاق، حيث منحت لهم حقوق الرعي في المراعي، بينما كانت قبائل القازاق يعاملون على أنهم مستأجرين لدى المغول، وفي استعمال طرق الهجرة وأراضي الغابات ومناطق الماء كان الأسلوب التقليدي في استغلال العداء بين الرعاة والشعوب المستوطنة وكذلك بين المجموعات المستوطنة نفسها [1].

وعندما وصل يانغ تسنغ هسين إلى الحكم في سنكيانغ كانت هناك ثورة في منغوليا الخارجية كما كانت في الصين، وخوفا من أن المغول في سنكيانغ قد يتعاطفون مع الأحداث في منغوليا الخارجية، حول يانغ اهتمامه من المغول إلى القازاق، ومنع المغول من حمل الأسلحة، بينما سمح للقازاق لأخذ الأسلحة من القوات الصينية في المقاطعة، واستثنى من ذلك المغول تورغوت في قرا شهر التي كانت بعيدة من منغوليا الخارجية، وسمح لهم بالاحتفاظ بقوة من الفرسان تم تدريبهم من قبل القوازق الروس.

لم يكن يانغ غافلا عن ظهور مظاهر الوطنية الحديثة، وفي مذكرة كتبها إلى الحكومة الوطنية في بكين في عام ١٩٢٥م عندما كانت الشعارات الثورية تنتشر في أرجاء الصين ذكر أن القوى والامتيازات عوامل رئيسة في الحركة الإسلامية بين المسلمين في أوروبا وآسيا، ويمكن ملاحظة مرئياته السياسية في سنكيانغ فيما ذكره بالآتي:

من خلال جمهورية فيدرالية فقط يمكن بالتدريج معالجة النزعات الأصولية، ومن المهم جدا تحقيق كل الإصلاحات السياسية والإدارية، ولا يمكن أن تعتبر أراضي المسلمين سمكا أو لحما وجعله هدفا للاستغلال، بل

[1] M. Nemchenko, "The Colonial Regime and Agrarian in Relations in Sinkiang" in Problems of China, Moscow 1931, 8-9 (3-4) pp.181-190 (In Russian)

يجب أن يكون مجالاً لحكم غير مباشر تكون السيادة الصينية فيه من خلال حكم ذاتي للمسلمين، وإلا من الصعب تفادي الأزمات الداخلية وتنامي العداء^[1].

كما أنه كان واعياً تماماً بضعف الإدارة الصينية في هذه المقاطعة الحدودية البعيدة، حيث ذكر في المذكرة ذاتها:

من المؤسف أن مقولة عائلة واحدة تتكون من خمس قوميات (الصينية — المانشورية — المغولية — الإسلامية — التبتية) بقيت قولاً ولم تصبح حقيقة، والموظفون الصينيون بدون شعور بالمسؤولية الأخلاقية، بل بنفوس مليئة بالجشع يسيئون الإدارة، وهناك الكثير من الموظفين السيئين والقليل من الجيدين، وهذا مما يفسر لماذا كانت أيام الاضطرابات كثيرة بينما أيام الهدوء قليلة، وهذا هو الواقع في كل المقاطعات، والأسوء منها في الحدود، ومن الصعب أن يحكم الموظفون الصينيون المسلمين بشكل جيد إذا لم تتحسن الإدارة جيداً^[2].

وقد قام يانغ في سبيل تحقيق بعض أفكاره التي عبر عنها في مذكرته، حيث نفذ بعض الإصلاحات في الوضع الاقتصادي في سنكيانغ، إذ في عام ١٩١٥ م أنهى احتكار تجارة بيض دودة القز، فقد اتهم الحكام الصينيين في كل من يار كند وقارغيليق وسوق كوما وخوتن ولوب وكريه من استيراد بيض دودة القز من روسيا والهند، وبيعها على الفلاحين بأكثر من ثلاثة تيه (Tael)، وأحياناً بأكثر من خمس تيله، بينما كانت تكلف واحد تيله بالأكثر^[3].

وفي عام ١٩١٦ م قام بإنهاء العمل بنظام السخرة المعروف عند المانشور بمصطلح وولا Wula، وقد كان يطبق في مقاطعات الحدود مثل سيكانغ Sikang وسزجوان Szechuan وجينغاي Chinghai وسنكيانغ، حيث كان الموظفون

[1] Tseng Wen-wu, op.cit., p.599

[2] Ibid.p.100

[3] Ibid. pp.595-596

والرحالة الصينيون بقوة السلطة الرسمية يحصلون على الطعام والسكن ومواصلات النقل من أفراد الشعب بدون مقابل، ولكنه لم يستطع من إلغاء ذلك، واستمر الوضع.

وفي العام نفسه قام بإصلاح آخر، ويتمثل في تخفيض رسوم فوائد قروض القمح على مخازن القمح العامة التي كانت تتصف إدارتها في كثير من المناطق بالفساد؛ لأن الموظفين المسؤولين يسعرون القمح بثمانية تو (Tou)، ولكن عندما يجمعونها يحسبون كل ١٢ بعشر (تو)، وبهذا الأسلوب كان يعملون على جمع أرباح تصل إلى ٥٠٪، وقد قام بمنع هذا التكسب غير القانوني بفرض معايير أساسية تحدد مستوى الربح في ١٠٪.

وكان الموظفون يشتغلون في الربا بدفع المال للمرابين، وفي حوض تاريم كانت متاجر الربا يعمل فيها تجار من قوميات: الصينية والأويغورية والهندية في حماية القنصل العام البريطاني في كاشغر، والتتار الذين كانت لديهم الجوازات الروسية والمسلمين الصينيين، وكانت نسب الربا تتراوح ما بين ٨ و ٧٨، وأحيانا ١٠ في المائة في الشهر، كما كانت مكاتب حكومية تقدم القرض بنسبة ١٪ في الشهر، والموظفون بدلا من مساعدة الفقراء بهذا يقدمون الأموال إلى المرابين بنسبة ٢٪ أو أكثر، وبالتالي هؤلاء المرابون يقدمونها إلى الفقراء بنسب عالية، وهكذا يتم إساءة استغلال هذا النظام في إيذاء الناس، وكان أغنياء التجار هم البكوات ورؤساء الإدارات المحليين الذين يستطيعون استغلال هذا النظام بحماية من الولاة الصينيين، وفي عام ١٩٢٢م قام يانغ بمحاولة منع هذا الفساد، أولا بمنع الجمع بين القروض الخاصة والإقراض الحكومي، ثم بإلغاء تقديم القروض الحكومية [1].

ومن الأمور التي تعامل معها بسهولة يانغ كان سياسة الميزان التجاري،

[1] لمعرفة هذه الإصلاحات أو محاولاته ينظر في: Tseng Wen-wu.op.Cit., pp.595-596

فقد طلب من التجار ألا يزيد قيمة ما يستوردونها عن قيمة الصادرات، وكان يهدف من ذلك منع خروج ثروات المقاطعة مع الأويغور التجار وتكدسها في بنوك روسيا وذلك قبل الثورة الشيوعية في روسيا، ومنع التجار الصينيين من سحب ثرواتهم من سنكيانغ إلى مقاطعاتهم، مع أنه هو نفسه بواسطة التجار الصينيين كان يبيع صادرات سنكيانغ ويودع أمواله في البنوك في الفلبين التي كان يحكمها الأمريكيان بدلا من الصين.

وفي عهد يانغ اضطرت سنكيانغ إلى تغيير نظامها المالي؛ لأنها قبل الثورة الصينية كانت المقاطعة تعتمد بشكل كبير على خزانة الإمبراطورية، وتلقى سنويا ميزانية قدرها ٢٩٢٠٠٠٠٠ تايل، ثم تم تخفيضها إلى ٢٦٠٠٠٠٠ تايل، ولكن في بداية الجمهورية الصينية ونظرا لعجز ميزانية الحكومة المركزية قطعت عنها الميزانية، فاضطر يانغ إلى إصدار عملات نقدية خاصة بالمقاطعة بقيمة عشرة ملايين تايل^[1]، مما تسبب في التضخم والغلاء في سنكيانغ.

ثم أصدر يانغ أربع عملات ورقية خاصة لكل من ولايات أورومجي وتورفان وإيلي وكاشغر في سنكيانغ، ويتم تداول وتحويل هذه العملات فيما بينها بضرائب مختلفة، وتقيم كل عملة منها بالتايل، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك عملات معدنية من قطع النحاس الصغيرة وقطع فضية يتداولها الناس بحكم تجارتهم مع الهند البريطانية وتركستان الروسية، واحتفظت حكومة سنكيانغ الإقليمية بحق إلغاء العملات من خلال الإشراف على رسوم تحويل العملات بين مختلف ولايات سنكيانغ، والاستفادة من تنوع العملات بممارسة الضغوط على رسوم التحويل.

وبموجب معاهدات ثنائية مع يانغ حصلت روسيا على تصريح لفتح فروع للبنك الآسيوي الروسي في كل من أورومجي — إيلي - جو كوجاك

[1] Chiang Chun-chang, Hsinchiang Chin-Yin Lun, Nanking 1936, (trprinted Chungking 1939) p.45 (inChinese)

— كاشغر، واستمر عمل هذه الفروع لعدة سنوات بعد الثورة الشيوعية في روسيا، وكان هذا البنك قد حصل على حق إصدار الأوراق النقدية مثلما كانت البنوك الأجنبية في الصين، والثورة الروسية التي بدأت في عام ١٩١٦م أدت إلى الإستنزاف المادي، مما دفع البنك المذكور أن يرفع إصدار الأوراق النقدية من مليون إلى خمسة ملايين روبل^[1]، ومع إنهيار الروبل الروسي انخفضت قيمة العملات المحلية وارتفع التضخم في سنكيانغ، وكان مجموع دخل سنكيانغ يزيد عن ٥٢٠٠٠٠٠٠٠ تايل، وبلغ عجز الميزانية ٧٠٠٠٠٠٠٠ تايل، وكانت رسوم الأراضي الزراعية أهم مصدر من مصادر الدخل الوطني، وقد بلغت مساحة هذه الأراضي ١٠٥٠٠٠٠٠٠ مو^[2] Mu، وكان الدخل من مناجم الذهب التي تشرف عليها حكومة سنكيانغ أو تحتكرها يقل عن ٥٠٠٠٠ تايل في ذلك العام.

وفي هذه الفترة لم تكن حكومة سنكيانغ تمتلك أموالاً لتمويل مشاريع الري واستصلاح أراضي زراعية جديدة، ولم يكن التضخم والعجز يعيقان التقدم الإقتصادي فحسب، بل أدى إلى تفشي الفساد بين الموظفين، وبينما ردد الموظفون الصينيون الشاء والمديح في كفاءة الحاكم يانغ تسنغ هسين فقد كتب السائح السويدي بوس هارد Bosshard:

في تركستان الصينية يتفشى الفساد في جميع الطبقات، وأصبح الخير مثل غيره من سلعات تجارية يباع ويشترى، ولم تعمل الحكومة الإقليمية على محاربة الفساد وتحسين الأحوال، إلا أنها شجعت كبار الموظفين على نهب أموال الشعب والإغناء غير المشروع في المدن والقرى على السواء^[3].

فقد كان موظفا رجعيًا ينتهج سياسة قديمة في الحكم، ولا يستحسن الحضارة

[1] Hsi Pei Yen Chiu (Northeast Research) Peiping 1932, Vol.6, issue of April 15, pp.55 and 129 (in Chinese)

[2] مو Mu وحدة تقليدية لمساحة الأرض تختلف من مكان إلى مكان، ويقاس كل ست مو بفدان في المتوسط.

[3] Bosshard, op.cit., p.437

الأجنبية مع أنه كان كريما في معاملة الأجانب، لكنه لا يكن لهم إلا الكراهية، ولما سأله أحد طلاب البعثة الصينية- السويدية التي كان يرأسها سفن هيدين Sven Hedin عن عدم الاستفادة من المهندسين في إدخال التقنية الحديثة إلى المقاطعة، أجابه بعنف: نعم هذا ما ترغبونه أنتم أيها الطلاب.. فأنتم مستعدون على بيع وطنكم إلى الأجانب^[1].

ومع أنه كان واقعا في معالجة بعض الأمور إلا أنه لم يتمكن من مواجهة الأحداث الدولية، ولما تولى يانغ القيادة العسكرية في سنكيانغ في عام ١٩١٢، قال في اجتماع رسمي:

عندما كانت الصين قوية ومستقرة في عهدي هان وتانغ كانت شعوب مناطق الحدود خاضعة لها، ولما أصابت الصين الضعف والعجز ثارت تلك الشعوب عليها، واليوم تغير الوضع تماما؛ لأن شعوب منغوليا الخارجية ومناطق الحدود باتت تهددها اليوم، وإذا فقدنا سنكيانغ هذه المرة لن نستطيع العودة إليها ثانية^[2].

وكان يانغ بعد أن تولى حكم سنكيانغ يعالج بنفسه مشاكل الحدود بين سنكيانغ ومنغوليا الخارجية، ولما التجأ القازاق إلى سنكيانغ على إثر ثورتهم ضد القيصر الروسي الذي أمر بتجنيدهم إجباريا^[3]، لم يمه القازاق من الدخول والانضمام إلى قازاق سنكيانغ، على الرغم من أعمالهم النهب وقتل رجال الحدود قرب بحيرة اسيق كول.

وبعد ما انفجرت ثورة أكتوبر ١٩١٧م في روسيا بدء اللاجئون أيضا يفدون إليها، وقد دخلت إليها مجموعتان من الروس، يقدر عددهم ما بين ٣٠٠٠٠-٤٠٠٠٠ رجلا في عامي ١٩٢٠-١٩٢١م، وكانت جماعات منهم تريد العبور

[1] Journal of the Central Asian Society, London 1929, Vol.16, pt.1, p.89

[2] A Survey of Sinkiang, edited by the Provincial Government, 1938, p.111. (in Chinese)

[3] The Rising of the Year 1916 in Kazakhstan, Documents and Materials, Ed.by B.S. Suleimanov. Compilers: F.N. Kireev, Sh. Ya. Shafiro. Academy of Science of the Kazakh S.S.R.. We have not had access to this volume but there is a review of it by M. Kim in Questions of History, Moscow-Leningrad ,9,1948, pp.111-113 (in Russian)

إلى الصين والهند، وجماعة منهم تريد الانضمام إلى الثورة الروسية في منغوليا الخارجية، ومع أن أفراد جيش يانغ لا يزيد عن عشرة آلاف جندي تقريبا، إلا أنه تمكن من إعلان حالة الطوارئ بهدوء وحزم، واحتجز أسلحة بعضهم وأنزلهم قرب مدينة كوجنغ تز، ثم تفاوض مع الحكومة الروسية لاستصدار عفو عام عنهم وتأمين عودتهم إلى روسيا، كما حصل على مساعدتها لنزع أسلحة الروس البيض النازلين في منطقة التاي على حدود منغوليا الخارجية، ثم استغل حالة الطوارئ على إعادة تشكيل منطقة التاي التي كانت تتميز بقوة النفوذ القازاقي والمغولي، بتقسيمها إداريا إلى ثلاث ولايات وثلاث مناطق، وقد كانت تخضع إداريا إلى الوالي السامي المانشوري المقيم في كوبدو في منغوليا الخارجية حتى عام ١٩١٢م.

وكان يانغ حذرا في علاقاته مع الحكومة السوفياتية الحديثة؛ لأن حكومة الصين الوطنية في بكين التي يخضع لها، ما زالت مضطربة ولم تقم علاقات دبلوماسية معها، وفي هذه الظروف اضطر يانغ أن يعالج بنفسه المصالح الروسية في سنكيانغ، والمصالح الصينية في الأراضي السوفياتية، وقد أغلق الطريق المؤدي من غرب كاشغر إلى روسيا عام ١٩٢٠م، وهي حركة فسرت أنها كانت لموقف بريطانيا العدائي من النظام السوفياتي، وخوفا أن يكون لبريطانيا التي لها نفوذ قوي في كاشغر ما يؤثر على الوضع المضطرب في آسيا الوسطى الروسية^[1]، وفي هذا العام أيضا أبرمت اتفاقية تجارية بين سنكيانغ والسلطات المحلية في الأراضي السوفياتية، وعلى ضوء هذه الاتفاقية تمكن من إعادة بعض اللاجئين الروس، والسلطات في تاشكند اتخذت موقفا وديًا في حل مشاكل الممتلكات الصينية الخاصة، التي تأثرت بنظام المصادرة

[1] ولمعرفة تقارير الضباط البريطانيين يمكن مطالعة:

L.V.S. Blacker, On Secret Patrol in High Asia, London 1922, and F.M. Baily, Mission to Tashkent, London 1944

السوفياتية^[1]، وأصبح الطريق عبر وادي إيلي طريقا تجاريا بدلا من طريق كاشغر التي أغلقت، وبدلا من سبع قنصليات روسية كانت موجودة في سنكيانغ تم الاقتصار على قنصليتين في وادي إيلي، في مقابل قنصليتين صينيتين بترتيب من حكومة مقاطعة سنكيانغ، وليس مع الحكومة الوطنية المركزية، الأولى: في سميبالاتنسك Semipalatinsk ، والثانية: فرخنه- يودينسك Verkhne-Udinsk على الحدود بين سيبيريا ومنغوليا الخارجية، ولا يعرف سبب إيجاد هذه القنصلية في الطريق التجاري الرئيسي بين روسيا ومنغوليا الخارجية، مع أن الحركة التجارية منه إلى سنكيانغ قليلة جدا، ومع أن الأهم منها ألغيت، وتعرض التجار والمسافرون لقيود محلية صارمة في كل مكان.

وفي عام ١٩٢٤م عندما أُسست العلاقات الدبلوماسية بين الصين والاتحاد السوفياتي، وتم توقيع الاتفاقية بينهما، ألغيت الترتيبات السابقة، وفي عام ١٩٢٥م فتحت القنصليات السوفياتية في كل من: جوكوجاك — شارسوم — غولجه Ining وكاشغر، ووصل القنصل العام السوفياتي إلى أورومجي في أواخر عام ١٩٢٥م، وفي المقابل تم تحويل قنصلية مقاطعة سنكيانغ إلى القنصلية الصينية العامة في سميبالاتنسك Semipalatinsk كما فتحت قنصليات في تاشكند وإنديجان وزايسان والماتأ.

وفي فترة الحرب الأهلية التي أدت إلى قيام الحكومة الوطنية لحزب الكومنتانغ بقيادة تشانغ كاي-شك في نانكين في عام ١٩٢٧م، كان يانغ يراقب السياسة الداخلية بحياد، ولكن في عام ١٩٢٦م عندما شعر أن جنود الجنرال المسيحي فنغ يو-هسيانغ Feng Yu-hsiang الذي يتراجع من جيش تشانغ كاي-شك قد يدخل سنكيانغ، تفاوض مع موسكو لفتح طريق السيارات من سيبيريا إلى أورومجي، فقد كان الروس على علاقة جيدة مع الجنرال فنغ، فقد كانت تمده بالأسلحة عن طريق منغوليا، مقترحا تراجع جنود فنغ إلى سنكيانغ.

[1] M, R. Norins, Gateway to Asia, N.Y. 1944, p.62

وفي عام ١٩٢٧م عندما قطع تشانغ كاي- شك علاقاته مع الاتحاد السوفياتي، استمر يانغ في علاقاته مع السوفيات في مجال تجارة سنكيانغ، من خلال مكاتب القنصل الصيني، وهكذا في ٢٨ ديسمبر ١٩٢٧م أرسل القنصل العام وسكرتيره في سمبيلاتنسك إلى الصحف المحلية يقولان: إن القنصلية ليست لها علاقة بما يجري في الصين، ولا تتحمل مسؤولية ما يحدث فيها، وأن اختصاص هذه القنصلية هي بغرب الصين، التي يهتمها المحافظة على صداقتها مع الاتحاد السوفياتي، وقد أشارت جريدة ازيستيا إلى العلاقات الودية بين غرب الصين (سنكيانغ) والاتحاد السوفياتي، وأن أهميتها لا تقوم في شؤون العلاقات التجارية فحسب، بل في الشؤون السياسية بينهما أيضا^[1].

ولم يعترف يانغ بالجمهورية الصينية إلا عندما غير العلم القديم ذا الخطوط الخمسة إلى علم الكومتانغ الجديد ذي الأرضية الزرقاء والشمس البيضاء في يونيو ١٩٢٨م، ومع ذلك فقد مارس الاستقلال في الإدارة بعيدا عن نفوذها، وفي هذا العام وصلت بعثة الصين — السويدية برئاسة سفن هدين Sven Hedin معززة من قبل الحكومة الصينية بعد رحلة طويلة عبر منغوليا الداخلية إلى اورومجي، فقيدت سلطات سنكيانغ حركات أعضائها الصينيين والسويديين والألمان، وسمحت فقط لرئيس البعثة سفن هدين بمغادرة اورومجي إلى قمول، وكتب هذا يقول: استقبال الصينيين في اورومجي كان سيئا، بعكس حفاوة السلطان في قمول^[2]، ولقد اغتيل يانغ في عام ١٩٢٨م بعد حكم دام ١٧ عاما وكان قد نجح في معالجة الأحداث، بدءا من الثورة الصينية، وثورة منغوليا إلى الثورة الروسية، ولما غير العلم وأعلن ولاءه الاسمي لحكومة نانكين، شعر يقرب نهاية حكمه، وحوّل ثروته الواسعة إلى البنوك الأمريكية والبريطانية، وبعث بعائلته إلى مانبلا، بعيدا عن السلطات الصينية^[3]، وكأنه استعد إلى لقاء

[1] Izvestiya, Moscow, Jan.8, 1928

[2] Sven Hedin "Hami or Kumul" in Journal of the central Asian Society, London, 1929, Vol.XVI. pt.1, p.92

[3] Bosshard, op.cit., p.436

مصيره الذي جاء على يد مساعده فان ياو-نان Fan Yao-nan بطريقة تعيد إلى الذاكرة خطته في قتل زملائه اليونانيين.

وقد أقام فان ياو-نان Fan Yao-nan مفوض وزارة الخارجية حفلة في ٧ يولييه ١٩٢٨م، بمناسبة تخرج طلبة مدرسة الحقوق الحكومية التي تستعمل اللغة الروسية في اورومجي، ودعا إليها المستشارين الروس وكبار الموظفين الصينيين، فوصل يانغ مع ٢٠٠ من حرسه مع حاشيته الخاصة، وكان حاشية فان- وعددهم ١٨- يحملون شارات حمراء على أكتافهم، وصور مسدس على أكمامهم، ويعملون في خدمة الضيوف، وحالما جلس الضيوف حول مائدة الطعام في الساعة الثالثة أطلق رجال فان النار على يانغ، فوقع قتيلًا في الحال، وقتل قائد حرس يانغ وبعض الموظفين، بينما هرب الضيوف الأجانب.

وفي الحال ذهب فان إلى مكتب الحكومة وتقلد الأمور الإدارية وبعث يستدعي تشن شو-جن Chin Shu-jin رئيس الدائرة السياسية، ولكن تشن لم يذهب إليه، بل بعث بقوات بقيادة نجل القائد المقتول مع يانغ، وقبض على فانغ بعد مقتل ثلاثة عشر من حراسه، وقيل: إن فان حاول تشكيل حكومة خاصة، وفي اليوم التالي ٨ يولييه أُعدم فان مع بعض من عملائه، ونفذ الإعدام على من بقي فيما بعد، وانتخب تشن شو-جن من قبل الموظفين الباقين قائدا ورئيسا لحكومة سنكيانغ.

ولم يكن تشن شو-جن يختلف عن يانغ، فهو إقطاعي متزمت مثله، وقد تولى في عهده إحدى الإدارات الهامة، ولكن لا يمكن مقارنته مع يانغ المتميز بالقدرة والحكمة، وبعد أن تولى الحكم أكثر تشن من رجال المباحث؛ خوفا على حياته، وأسند جميع المراكز الهامة إلى ذويه، أو إلى مواطنيه من مقاطعته الأصلية كانسو، وعيّن حراسه قوادا على الفرق العسكرية، كما جعل أحد أخويه قائدا عاما على القوات في كاشغر، بينما أصبح الآخر رئيس المكتب العسكري

في سنكيانغ، وأعدم عددا كبيرا من الموظفين الصينيين بتهم الفساد، وقام بجمع ضرائب الأرض بضعف الرسوم المقررة قانونيا، مما شجع على تزايد جشع الموظفين الصينيين، وزيادة مطالبهم المالية من بكوات الأويغور، كما تحكّم على ذهب كريبه وخيول خوتن بمقاولات خاصة، بينما باع المحاصيل بأسعار عالية تحت ستار الاحتكار الحكومي^[1]، وبمساعدة أفراد الجيش جمع جلود الماعز من الشعب بعشر قيمة السوق، واحتكر تصديرها.

مثل هذا الاحتكار في المعاملات التجارية والإنتاج من قبل السلطات الحكومية كان يجري العمل به في الصين، وبخاصة في مقاطعات الحدود، وقد كتب روسي زار سنكيانغ في هذه الفترة: أن ١٢٪ من تجارة العاصمة اورومجي بيد التجار الوطنيين، و٣٧٪ بيد الوكلاء الأجانب وأن ٥١٪ يحتكرها الموظفون الصينيون^[2].

وبينما أصدر يانغ من الأوراق النقدية ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ تايل، قام تشن برفع الإصدار إلى ١٤٥ ٠٠٠ ٠٠٠ تايل، مما أدى إلى ارتفاع التضخم، وفي عهد يانغ كانت قيمة الوحدة النقدية تايل واحد (تبعاً لتحويل الإصدارات المختلفة بين الولايات كما سبق ذكره)، ولكن تشن أصدر فئات مختلفة: ١-٣-٥-٨-١٠-٣٠-٥٠، وفي أحد الأوقات كان بالإمكان شراء فضة من فئة واحد تايل (كانت تساوي = ١,٣٠ أوقية) بورقتين نقديتين من التايل، وفي أواخر عهد تشن بيع فضة التايل الواحد بثمانين تايل ورقي^[3].

وبالإمكان وصف سياسة كل من يانغ وتشن بالحذر، وبصراحة كانا مريبان في علاقاتهما مع الأجانب، وطبقا لما ذكره سفن هدين: فقد كره تشن الأجانب،

[1] Chiang Chun-chang, Hsinchiang Chin-Yin Lun, as already cited p.137

[2] M. Nemchenko, The Colonial Regime and Agrarian Relations in Sinkiang, as already cited, p.187

[3] Chiang Chun-chang, Hsinchiang Chin-Yin Lun, p.136

فقد أصدر تشن أوراقا نقدية تصل قيمتها 145 000 000 تايل

سخر منهم ووضع العراقيين أمام أعمالهم، بينما أمر يانغ تخصيص مقر للبعثة مدة ما بقيت في سنكيانغ، مشجعا عملها الذي يعود بالفائدة على تطوير المنطقة، ولكنه طلب إيجارا غير معقول للمقر، وأعاق نشاطها، وتبع هذا أن تعامل بعض الموظفين الرجعيين بنفس الحقارة مع أعضاء البعثة^[1]، ومن جهة أخرى عندما كنت مع زوجتي نتجول في سنكيانغ عام ١٩٢٧م لقينا معاملة طيبة من تشن شو جن الذي كان حاكم آقسو آنذاك^[2].

ولما وصل قطار تورك سيب عبر الحدود الصينية إلى منطقة إيلي عام ١٩٣٠م شجّع التجارة بين السوفييات وسنكيانغ، وقد تجاوزت قيمة التجارة ٠٠٠٠٠٠٠ ٣٢ روبل في ذلك الوقت، ولكن بواذر التوسع الياباني في منشوريا عام ١٩٣١م بدء يهدد بالخطر على العاصمة اورومجي، إذ إن ثورة التونكان (الصينيين) المسلمين بقيادة ما تشونغ ينغ Ma Chung-ying الذي استعان بمستشارين يابانيين وبحماية يابانية قد استولى على باركول وقمول، وتولى قيادة ثورة إسلامية أصبح يهدد المقاطعة كلها، بل غدا خطرا على المصالح السوفيادية على الحدود، ولأن الثورة قطعت العلاقة مع الصين فقد أمر بالحصول على أسلحة من الاتحاد السوفياتي، ومنحه امتيازات واسعة بموجب اتفاق تجاري في أكتوبر ١٩٣١م، وبموجب هذه الاتفاقية أسس الاتحاد السوفياتي ثمانية مكاتب ووكالة في اورومجي — جوكوجاك- غولجه — كاشغر — آقسو- كوجار — ياركند- خوتن، وتم تخفيض التعرفة الجمركية على البضائع الروسية وفتح الاتصالات اللاسلكية والبرقيات بين سنكيانغ وروسيا، وقد وقع تشن على هذه الاتفاقية بدون ترخيص من حكومة الصين، كما لم يبعث بها إلى وزارة الخارجية، وعندما هرب من المقاطعة وعاد إلى الصين سجنته الحكومة المركزية على فعله.

[1] Sven Hedin, The Flight of Big Horse, New York 1936, p.3

[2] Owen Lattimore, High Tartary, Boston 1930, pp.304-306

فقد اضطرت الصين على البقاء خارج سنكيانغ بتوافق من العصيان والثورة وحركة قوات الروس البيض المرتزقة (المنفيين)، وكانت الثورة قد بدأت في قمول عام ١٩٣١م، وتوسعت بدخول المسلمين الصينيين (التونكان) من كانسو، وبهجومهم على أورومجي في شتاء عام ١٩٣٢م، وثانية في يناير ١٩٣٤م، وأدى ذلك إلى إعلان تأسيس جمهورية تركستان الشرقية في نوفمبر ١٩٣٣م، ولكن الحكومة المحلية تمكنت من السيطرة على الثورة في يونيو ١٩٣٤م، ولكن استمر وجود المسلمين الصينيين (التونكان) الذين يقدر عددهم بعشرين ألفا، وهم جنود قادمون أصلا من كانسو في كوما بازار بجنوب خوتن في حوض تاريم، وقد بلغ عدد ضحايا هذه الحركات الدامية مائة ألف قتيل.

وفي شتاء عام ١٩٣٠م مات آخر حاكم أوغوري على قمول، وذهب ابنه إلى اورومجي بطلب تعيينه محل أبيه، وقدم الرشاوي والهدايا إلى المسؤولين الصينيين، وفي هذا الوقت نصح قائد القوة العسكرية الصينية في قمول الحاكم العام الصيني بإلغاء الحكم اللامباشر، وتقسيم قمول إلى ثلاث مناطق إدارية، يحكمها ولاية صينيون، يتم تعيينهم حتى يتم جمع الضرائب مباشرة من الشعب، فقبل الحاكم بهذا الاقتراح، وفوجئ الناس بهذا التغيير وبزيادة الضرائب التي فرضت عليهم إلى الضعف أو ثلاثة أضعاف.

وهذا الوضع يوضح مدى تعقد الظروف في المقاطعة، حيث يكره المواطنون الحكام المحليين الذين يحكمونهم؛ بسبب فسادهم وجشعهم في جمع الضرائب، كما أن السلطات الصينية كانت تعمل على جمع الضرائب بالمضاعفة بدون النظر في أثرها على الناس، والإدارة الصينية الجديدة التي تولت حكم المقاطعة في عام ١٩٣١م لم تعالج الأزمات مما أدى إلى زيادة السخط الشعبي على المسؤولين الصينيين، وتعاطف الكثير من المواطنين مع طلب ابن الحاكم الأوغوري الذي كان يطالب بمنصب والده، وهو في

اورومجي على خوف من اعتقاله^[1].

وفي هذا الوضع المضطرب التجأ إلى سنكيانغ صينيون عددهم ٨٠ شخصا من كانسو، التي كانت قد تضررت بالجفاف، فأمر الحاكم العام الصيني أحد الحكام الولايات الثلاث الجديدة بنزع الأراضي الزراعية من الأويغور، وإعطائها إلى هؤلاء المهاجرين، ونقل الأويغور إلى أراضي جديدة غير صالحة زراعيًا، وكان من المعتاد في مقاطعات الحدود إعفاء مثل هذه الأراضي الجديدة من الضرائب بضعة أعوام، ولكن أجبر الموظفون الصينيون الأويغور على دفع الضرائب عن الأراضي الجديدة، بينما تم إعفاء الصينيين الذين تم منحهم أراضي الأويغور من الضرائب، وبالإضافة إلى هذه الإجراءات اتخذ مكتب الملح في قمول الإيجاري، وذلك بإلزام كل شخص على شراء كمية من الملح كل يوم، أو الحصول على بطاقة الملح بالدفع الإيجاري، ولكن لم يتوقف الأمر عند هذه الأمور، بل قام جابي الضرائب الصيني بإجبار والد فتاة مسلمة على تزويجه منها بالقوة، فثار المسلمون الأويغور ضد هذه الممارسات الجائرة، وقتل الجابي والصينيين المهاجرين من كانسو، وثار الشعب والتحق به الآف من المسلمين، ثم ذهب مندوبون منهم إلى كانسو يطلبون المساعدة من ماتشونغ - يينغ Ma Chung-ying شاب من أسرة مسلمة مشهورة وقائد الفرقة السادسة والثلاثين^[2]، وأفرادها من أتباعه الشخصيين مع أنهم جنود يتبعون الحكومة الصينية، وتلبية لطلبهم هجم ماتشونغ يينغ بجنود عددهم ٤٠٠ فارس من التونكان (المسلمين الصينيين) مدينة باركول، ونقطة تشي تشياتشنغ Ch`ichiaoching، التي تقع على طريق العربي بين كانسو واورومجي وقمول، ولكنه اضطر إلى الرجوع إلى كانسو لإصابته بجروح،

[1] Tu Chung-yuan, Sheng Shih-ts`ai and the New Sinkiang, Hankow, 1938, p.85

والأمير لم يكن في خطر في اورومجي، لأنه قدم رشوة سخية إلى تشين.

[2] وهو ينتسب ما بوفانغ Ma Pu-fang أمير الحرب في مقاطعة جنغهاي Ch`inghai (كوكونور) وإلى ما هونغ كوي Ma Hung-k`uei أمير الحرب في مقاطعة نينغشيا Ninghsia

ثم عاد إليها في مايو ١٩٣٢ م.

شنغ شي تساي حرباء الحرب :Sheng Shih-ts`ai

وفي شتاء عام ١٩٣٢ م عندما توجه ما شيه-مينغ Ma Shih-ming مساعد القائد المسلم ما تشونغ يينغ Ma Ch`ung-ying إلى ضواحي أروومجبي، أمر الحاكم الصيني شنغ شو- جن Sheng Shu-jen الضابط شنغ شيه تساي Sheng Shih-ts`ai المانشوري الأصل أن يتولى قيادة الجنود القادمين والمتراجعين من تقدم القوات اليابانية في سييريا، وتسهيل دخولهم إلى أروومجبي بمساعدة السلطات السوفياتية، وتمكن هؤلاء الجنود الصينيون بعد دخولهم سنكيانغ، وهم من منشوريا موطن شنغ من دعمه في إخماد الثورة، ودفع قوات ما شيه-مينغ على التراجع إلى الجنوب.

وفي أروومجبي في أبريل ١٩٣٣ م انضم الجنود الروس البيض المتمردون إلى المسلمين المحليين في الهجوم على مراكز حكومة المقاطعة، وقتل الأخ الأصغر لحاكم المقاطعة تشين شو — جن Chin Shu-jen الذي كان رئيس المكتب الحربي، وكان هؤلاء الجنود الروس المعروفون بالمقاتلين الشرسين المسرحين يقيمون مع الروس المنفيين في سنكيانغ، وقد عاملتهم الحكومة بقسوة، وبعدم الانتظام في منحهم المالية، وهذه الواقعة دفعت الحاكم على أن يهرب إلى الأراضي الروسية، ويعود منها إلى الصين، أما في أروومجبي فإن السلطات الصينية انتخبت لين وين — لونغ Lin Wen-lung مدير المكتب لرئاسة المقاطعة، وشنغ شيه — تساي Sheng Shih-Ts`ai قائدا للقوات المسلحة.

ومع أن يوان شي كان Yuan Shih-k`ai الذي كان القائد الأول في المقاطعة، فقد تمكن شنغ شيه — تساي من فرض شخصيته على حكومتها.

وقد ولد شنغ شيه — تساي Sheng Shih-ts'ai في مقاطعة لياونينغ Liaoning في جنوبي منشوريا، وتلقى تعليمه الأولى في شنغهاي ونانكين، ثم رحل إلى اليابان في عام ١٩١٥م، وفي عام ١٩٢٥م درس الاقتصاد السياسي والعلوم العسكرية، وكانت رحلته الثانية برعاية من شيانغ كاي شك Chiang Kai-shek فيما بين ١٩٢٦-١٩٢٧م، ثم عمل مع هو يينغ- تشين Hu Ying-chin رئيس هيئة شيانغ كاي شك الموفد إلى الشمال، وأدت الظروف إلى اعتلاء شيانغ الحكم في نانكين، ولكن التطورات لم تؤكد على إمكانية سيطرة الكومنتانغ على المقاطعات الشمالية الشرقية (منشوريا)، وكان من الضروري الاحتفاظ بضابط مخلص شاب في الشمال الشرقي، ولكن المارشال تشانغ هسوه ليانغ Chang Hsueh-liang قائد من قوات الكومنتانغ، انتهز الفرصة وفرض سيطرته على مقاطعات الشمال الشرقي، وبهذا تلاشت آمال شنغ شيه — تساي فيها، وفي عام ١٩٢٩م ذهب إلى سنكيانغ؛ بحثا لما يرغب تحقيقه في السلطة وتعيين فيها سكرتيرا في حكومة المقاطعة، وهي هيئة إقطاعية يرأسها الحاكم الصيني، ثم في عام ١٩٣٠م ترقى إلى مركز رئيس مكتب الرئاسة العامة لقوات الحدود.

وحالما تولى الحكم في سنكيانغ في عام ١٩٣٣م أعلن شنغ عن سياسته المشهورة، التي تتضمن ثمان نقاط: المساواة بين القوميات — الحرية الدينية — إعانة الرعاة — الإصلاح المالي — الإصلاح الإداري — التطوير التعليمي — تشجيع الحكم الذاتي — الإصلاح القضائي^[1].

وقبل أن يتمكن شنغ من تنفيذ الإصلاحات التي أعلن عنها، كانت ثورة المسلمين بقيادة ما تشونغ يينغ Ma Ch'ung-ying مشتعلة، الذي استولى على معظم الأراضي من قمول شرقا إلى كاشغر غربا، ودخل كوجينغ تزفي

[1] Tu Chung-yuan, Sheng Shih-ts'ai and the New Sinkiang, Hankow, 1938, pp.67-72 (in Chinese)

جونغارييا في يونيه ١٩٣٣م، وأن توجه إلى أورومجى، ولكن عمليات النهب والسلب التي قام بها الثوار في قمول وضواحيها أثارت كراهية المواطنين ضدهم، وأغلقت المتاجر والمحلات في قمول وفي معظم القرى، وفي شي شياو شنغ Ch`icgiaoching على الطريق التجاري الرئيسي كانت الشوارع مليئة بجثث الخيول والحيوانات، وقطعت طريق التجارة مع تورفان.

وقد اتجه شنغ بقواته لمواجهة ما عبر الجبال، واحتل تورفان المحور الرئيس لطرق التجارة ما بين الصين شرقا وكاشغر غربا، ومع بداية عام ١٩٣٤م، بعث شنغ بعضا من قواته لإخماد الثورة في إيلي، ولكن ما إن انتهز الفرصة لمهاجمة اورومجى حتى تلقى هزيمة ساحقة، ثم استطاع شنغ من الحصول على أسلحة من الاتحاد السوفياتي، ومن ضمنها طائرات، وضرب بها ما وقواته فيما بين توقسون وقراشهر، وهرب ما بصعوبة إلى كوجار ومنها إلى كاشغر، وأقام فيها من أبريل إلى يونيه عام ١٩٣٤م، ولما اقتربت قوات شنغ هرب منها إلى الاتحاد السوفياتي، حيث أقام في موسكو حتى بداية عام ١٩٣٦م، كما جاء ذلك في وسائل الأنباء^[1].

ولا شك أن شنغ شيه- تساي بالإضافة إلى علاقاته الجيدة مع الاتحاد السوفياتي كان محاربا جيدا ضد الاستعمار الياباني، وقد تلقى تعليما جيدا في اليابان، وكان مع ما تشونغ بينغ Ma Chung-ying عملاء يابانيين، يمكن وصفهم بالمغامرين أكثر من أنهم يمثلون السياسة اليابانية، والانتصارات التي حققها ما كانت تنسب إلى هؤلاء العملاء، ولما انهزم ما خسرت اليابان سمعتها.

ولكن لم تنته عمليات عملاء اليابان بهروب ما إلى روسيا، إذ وقعت ثورة في كاشغر فيما بين فبراير وأكتوبر ١٩٣٧م، واتهمت اليابان بتحريضها، وفي أكتوبر ١٩٣٧م ذكر تو تشينغ يوان Tu Ching-yuan الزميل السابق في

[1] Hedin, op.cit., p.247

الدراسة في اليابان لشنغ، وكان يعمل معه في اورومجي: أنه تعرف على عملاء الاستخبارات اليابانية في المناطق الإسلامية في نينغشيا وجنغهاي (كوكونور) المقاطعات الصينية التي تتصل بمنغوليا الداخلية والتبت، وأن تحويلات اليابان إلى سنكيانغ بموجب معاهدة تنتسبن Tientsin بلغت أكثر من ثلاثة ملايين في الأشهر الأولى، وتكون قد بلغت عشرة ملايين ين، ويصف تو تشينغ يوان كيف تم القبض على أربعة من كبار موظفي الحكومة، وبعض التجار بتهمة الخيانة^[1].

وبدء شنغ شيه- تساي بالإصلاح، وذلك بتنفيذ النقاط الثمانية التي أعلن عنها في عام ١٩٣٣م، وفي العام التالي أكد أن سنكيانغ سوف تصبح مقاطعة حديثة، وأن هذه النقاط الثمانية ستحقق عن طريق برنامج الأهداف الست العظمى، وأولها مقاومة الاستعمار (يعني مقاومة النفوذ البريطاني والياباني) وسياسة التقارب مع السوفييات، وتطبيق سياسة المساواة بين القوميات، تنقية الحكومة من العملاء، تحقيق السلام، تقويم البناء الاجتماعي.

ثم بدء في تعيين الأويغور والقازاق في وظائف عالية في مناطقهم، وسمح لجميع القوميات اللاصينية بتعلم لغاتها في مدارسها الخاصة، وارتفع عدد الطلاب من ثلاثة آلاف تلميذ عام ١٩٣٣م، إلى ١٥٠ ٠٠٠ تلميذ في عام ١٩٣٦م، بالإضافة إلى ٣٢٩ طالبا من اللاصينيين المبتعثين الذين يدرسون الطب البشري والبيطري والهندسة والزراعة في الاتحاد السوفياتي، وفتح المكتب التعليمي للمقاطعة في خمسة فروع في شارسوم - جو كوجاك - غولجه - أقسو - كاشغر.

كما أسس جريدة المقاطعة باسم جريدة سنكيانغ اليومية Hsin chiang JIH pao في اورومجي، وكانت تنشر باللغات السبع المحلية من المدن الخمسة

[1] Tu Chung-yuan, op.cit., pp.29-30, 62-63, 97

المذكورة سابقا، كما أسست الجمعيات الثقافية للأويغور والقازاق والتونكان والتتار والروس والصينيين، وكانت من أنشط هذه الجمعيات جمعية الأويغور ذات الأغلبية القومية في ثمان ولايات، و (٤١) منطقة فرعية، وتشرف على (١٧٣٦) مدرسة ابتدائية، يبلغ عدد طلابها (١٧٤ ١٢٤) طالبا، ومعاهد خاصة لتعليم الكبار، ومعاهد تخريج المدرسين^[1]، وكذلك تحققت نوعا ما حكومة خالية من الفساد، فقد كان في عهدي يانغ وتشن يستطيع أي حاكم ولاية أن يجمع ما بين (٨٠ ٠٠٠) إلى (١٠٠ ٠٠٠) دولار صيني في السنة، ولكن في بداية حكومة شنغ شيه — تساي انتشر المفتشون والمراقبون لمنع مثل هذا الاستبداد والجشع، وقد اعتمد هذا النجاح في تطبيق النظام الديمقراطي في المقاطعة، ولكن لم يستمر هذا الأمر طويلا، إذ تغير الوضع عندما تعين شنغ رئيسا على حكومة سنكيانغ رسميا في عام ١٩٤٠م، فقد أصبح إقطاعيا مريبا، وبدء المثل المحلي يتردد: قد يكون رئيس الحكومة أقل ثراء من مدير المكتب، وقد يكون هذا أقل غنى من حاكم الولاية، الذي لا يقل غنى عن حاكم المنطقة، الذي يتصل مباشرة بالشعب، ويستطيع بوسائله الأولية أن يصل إلى مصادر الضغط^[2].

ومثل كثير من الموظفين الذين يعملون على تأمين مستقبلهم ضد السقوط من الحكم، كوّن شنغ ثروة طائلة في سنواته الأخيرة، ولما عاد شنغ إلى تشونغ كين بعد سلسلة من الأحداث عام ١٩٤٥م، قال رئيس مكتب البناء الاجتماعي: إن شنغ أعطى لخزينة الكومنتانغ (٥٠٠ ٠٠٠) أوقية ذهباً، وكان هذا العطاء سببا أن تشانغ كاي شك لم يعاقبه على تصرفاته في سنكيانغ^[3].

وفي عام ١٩٤٠م عند ما كان شنغ في أوج قوته أفادني بريطاني زار سنكيانغ أن ملاحظاته التي كونها عنه من الوثائق وبخاصة من خطبه: تبين أن نظام

[1] Ibid, pp.80-84

[2] Chiang Chun-chang, op.cit, pp.80-84

[3] - Sa Kung-liao, Talks About Sinkiang "in Wen Tsia, Shanghai, March 21, 1946, No,22 (in Chinese)

الحكومة فيها أتوقراطي متطرف، وقارن بين سلطة شنغ في سنكيانغ وسلطة الجنرال شيانغ كاي شك في الصين، فوجد أن حاكم المقاطعة لا يخضع لأحد من الجنرالات، وما تميزت سياسة شنغ في سنكيانغ كانت نسبياً متطورة نتيجة تأثيرات الأحداث في الاتحاد السوفياتي عليها، كما نسب ذلك إلى انتشار البوليس السري وعمليات الإدانة والإعدام من الحاكم الذي كان يحاول تثبيت حكمه بقوة، وكان ضحية الخوف والشك، وفي رأي الزائر لا يمكن القول أن الحاكم يتبع الكومنتانغ أو الشيوعية، والحقائق التي لاحظها أن الوضع واختلاط شعوب سنكيانغ دفعت إلى اتخاذ سياسة خاصة حسب ظروف سنكيانغ^[1].

وقد اقتبس مدير تحرير جريدة المقاطعة قول شنغ: مع أنني لست عضواً في الكومنتانغ، ولكنهم عينوني عضواً في مجلس حزب كومنتانغ المركزي^[2]، واستقرار شنغ في حكم سنكيانغ كان بمساعدة القوات السوفياتية، وقد تفاوض مع الروس لاقتراض (٥) ملايين روبل لأغراض البناء الاجتماعي، ولم يتضمن هذا القرض شروطاً اقتصادية أو سياسية سوى أن تكون فوائده %٤^[3]. وطلب مساعدة فنية، وفي عام ١٩٣٧م وضع خطة لمدة ثلاث سنوات للبناء الاجتماعي مما اضطر إلى اقتراض مبلغ ١٥ مليون روبل، وأعاد تنظيم بنك المقاطعة التجاري باسم بنك سنكيانغ التجاري، برؤس أموال خاصة وحكومية في عام ١٩٣٨م، وأصدر أوراقاً نقدية جديدة ذات ميزانية ضخمة، وكان قد ألغى

[1] وفي عامي 1937-1938 كانت حكومة الصين الوطنية في هانكوي Hankow تفكر في الانسحاب من شنغهاي والتراجع إلى جونكين Chunking، فدعى شنغ شيه تساي مجموعة من المستشارين الشيوعيين من ينان Yen-an إلى سنكيانغ، ولكنه فيما بعد أعدم بعضهم واعتقل بعضهم، والأنسة آن لويس سترونغ Miss Anna Louise Strong التي تفضلت بإطلاع على مذكراتها المحفوظة و فيها مقابلاتها مع مجموعة من هؤلاء المستشارين الذين لاقوا التعذيب وعادوا إلى ينان بعد الحرب، وتشير هذه المذكرات أنه لم يكن الشيوعيون ضمن العاملين مع شنغ شيه تساي في الإصلاحات التي نفذها حتى عام 1938، ولكنها توضح أن الإصلاحات مهدت من قبل دعاة إنقاذ الوطنية وبعض الأحرار قبل وصول الشيوعيين، وعلى أي حال ظهرت حركة الإصلاح كأنها من عمل ماوتر-مين Mao Tze-min أخ لماوتسي تونغ الذي أعدمه شنغ شيه تساي في عام 1943

[2] Sa Kung-liao, op.cit.

[3] Tu Chung-yuan, op.cit., pp.93-94

الأوراق النقدية القديمة في عام ١٩٣٩ م، والمبلغ المرصود لتشجيع الاستثمار الزراعي والتجاري بلغ ٥٠٠ ٨٧٢ ١٧ دولار صيني خلال عام ١٩٣٩ م، واستخدم القروض السوفياتية في تعبيد طرق السيارات، وارتفع عدد الشاحنات من ٢٠ سيارة في عام ١٩٣٣ م، إلى ٤٠٠ في عام ١٩٣٨ م، ثم وصل إلى ٣٠٠٠ شاحنة في عام ١٩٤١ م، كما مدّ أكثر من ١٣٤٥ ميلا من خطوط التليفون، ومع إطلالة عام ١٩٣٩ م كان في سنكيانغ ٢٠ مصنعا، وعبرت أكثر من ٤٠٠ طن من الآلات السوفياتية لإنشاء مصفاة البترول في شمال غرب اورومجي.

وفي هذا الوقت تطورت الملاحة الجوية الصينية الوطنية في نانكين كما شمل هذا التطور حركة الطيران في سنكيانغ، وعند ما تم توقيع معاهدة السلام بين ناكين — موسكو في عام ١٩٣٧ م نشطت حركة الملاحة الجوية وأسست جمعية الملاحة الجوية الصينية- السوفياتية، وبموجب الاتفاقية التجارية التي وقعت في ١٦ يونية ١٩٣٩ م حصل الاتحاد السوفياتي على أولوية الطيران في مقاطعات الصين ومنها سنكيانغ.

وفي عام ١٩٤١ م وضع شنغ خطته الثلاثية الثانية، وتوسعت النشاطات التجارية لحكومة سنكيانغ من خلال التجارة الخارجية ومصادر الشركات المحلية وتوزيع رخص البناء، وأدى ظروف التضخم في الصين واتساع التجارة في سنكيانغ على الرفع من قيمة دولار سنكيانغ في التحويل، وبينما كان ٤٠٠٠ دولار سنكيانغ يساوي دولارا صينيا واحدا في عام ١٩٣٤ م، فقد أصبح ٦ دولارات سنكيانغ يساوي دولارا واحدا صينيا، وعند ما غادر شنغ المقاطعة عام ١٩٤٤ م كان كل خمس دولارات سنكيانغ يساوي دولارا صينيا، وقد ساعد على اتساع التجارة الاتفاقُ الاعتباطي في التحويل الرسمي بين الدولار الأمريكي والروبل الروسي، الذي مكنت جمعية التجارة السوفياتية — سنكيانغ من الشراء بأسعار طبيعية مشجعة، وفي هذه الفترة دخل كثير من الفنيين الروس إلى سنكيانغ، ومن ملاحظة السائح البريطاني الذي زارها في عام ١٩٤٠ م لم

تكن توجد دلائل تشير أن السوفيات يسيطرون على سنكيانغ.

وكان واضحاً أن شنغ شيه - تساي لم يلتزم بالنظام، وإنما كان ينتهز الفرص مع أنه كان ناجحاً في إصلاحاته في سنواته الأولى، ولم ينسَ خلالها من تحقيق مصالحه الخاصة التي تميزت بالشخصية والأنانية، ولم يكن مستقراً في سياسته مع الاتحاد السوفياتي، على عكس يانغ تسنغ - هسين الذي عرف بسياسة الحياد مع روسيا.

وفي الفترة من ١٩٣٣ - ١٩٤٠م اعتمد شنغ على الاتحاد السوفياتي معرضاً عن حكومته الصين الوطنية، ثم فجأة قطع علاقاته مع الاتحاد السوفياتي، ورمى بنفسه في أحضان حكومة الصين الوطنية بطريقة لم يكن على ثقة بمكانته في المقاطعة، ثم في عام ١٩٤٤م قطع علاقاته من حكومة الصين الوطنية معيدا علاقاته مع الاتحاد السوفياتي، ولكن لم تنجح مساعيه وباء بالفشل.

وخلال الفترة الأولى نفذ شنغ سياسته في الإصلاح معتمداً على أسس ثلاثة: العلاقات الودية مع الاتحاد السوفياتي - الديمقراطية - الاهتمام بمطالب ومصالح القوميات في سنكيانغ، وفي أكتوبر ١٩٣٨م عقد اجتماعاً إقليمياً لجميع القوميات في سنكيانغ، أدان فيها مكائد اليابان في منغوليا الداخلية، وتعهد بتقديم عشر طائرات إلى السلاح الجوي الصيني، ووعد بتسهيل عبور القوات السوفياتية إلى الصين عبر سنكيانغ، وزار شنغ موسكو بدواعي العلاج^[1]، ولكن بعد عامين في ٨ ديسمبر ١٩٤٠م انضم إلى الزعماء الصينيين لإدانة نظام نانكين الذي تزعمه وانغ تشنغ-وي Wang Ching-wei، وفي عام ١٩٤١م بعد الحادثة الحربية الرابعة (عندما هاجمت قوات الكومنتانغ القوات الشيوعية في وادي يانغتسي Yangtze قال شنغ لمراسل تا كونغ فاو Ta Kung Pao أكبر جريدة مستقلة في الصين: إن سنكيانغ تكرر جميع طاقاتها في البناء والتنظيم كي

[1] Sa Kung-liao, op.cit.

تعجل بالنصر، وإنه يجب على جميع الأحزاب والجمعيات مقاومة اليابان^[1]. وعندما تجمعت قوات ألمانيا لغزو روسيا، عرف شنغ أنه لا يمكن عليه الحصول على مساعدات من الاتحاد السوفياتي، ثم ازداد يقينا عند ما حاصر النازيون لينين غراد وستالين غراد، واعتقد أنه وإن لم ينتصر الاتحاد السوفياتي في الحرب إلا أنه لن يكون أحدى القوى العظمى، فاتجه بعلاقاته إلى تشونغ كين Chungking معتقدا أن الرجل الذي يحكم سنكيانغ يجب أن يحتفظ بعلاقات خارجية، وبالإضافة على تركيزه في حكم سنكيانغ فقد عمل على تكييف السياسة مع توجهات شونغ كين، فغير من سياسة الديمقراطية إلى سياسة التسلط واضطهاد الأويغور والقوميات اللاصينية الأخرى، وبدء العمل مع المستشارين الشيوعيين والصينيين الثوار.

وقد بدء هذا التغير السياسي المفاجئ بسجن وقتل تو تشونغ يوان Tu Chung-yuan^[2] الذي كان أستاذا له، واستدعاه إلى سنكيانغ ليرأس الحركة الثقافية، وجاء معه مجموعة من الشبان الصينيين المثقفين في فترة تطبيق السياسة الديمقراطية الأولى، ومع عام ١٩٤٤م سجن شنغ أكثر من ٨٠٠٠٠ شخصا، بالإضافة إلى أخيه مع زوجته، واتخذ أساليب التعذيب وسيلة لأخذ الاعتراف، وقد بعث كريستوفر راند مراسل جريدة نيويورك هيرالد تريبون بقصة رجل سلخ عملاء شنغ جلده، وبعد سلخ بوصة من جلده وقّع على الاعتراف المزعوم، وانتشر الرعب بشكل فظيع بين الخبراء والأساتذة الذين جلبهم شنغ لتطوير المقاطعة، فرماهم في السجون وأحضر غيرهم، كما طرد الأشخاص الذين يظهرون ميولا أدبية من المدارس؛ خوفا من انتشار آرائهم بين الشعب، وأصبح شهادة الدبلوم تذكرة الدخول إلى السجن^[3].

[1] Chen Chi-ying, A Bird's eye View of Sinkiang, Chungking 1941

[2] عن بعض تفاصيل نشاطات تو تشونغ يوان في سنكيانغ ونهايته على يدي شنغ، انظر المقالين:

Sa Kung-liao, in Kuo Hsin National News, semi-monthly, Hongkong, Nov.11 and 25, 1947, New Series, Vol. I, Nos 3 & 4 (inChinese)

[3] New York Herald Tribune, Sept.23, 1947

وقد تلاشت فكرة تعبيد الطرق في أنحاء سنكيانغ بالاعتماد على روسيا، وتحول الاتجاه نحو بريطانيا، وبالرغم من إعلان شنغ السابق مقاومة الاستعمار والتأكيد على صد النفوذ الياباني، ووضع القيود على التجارة بين الهند وسنكيانغ، فقد زار شيانغ كاي شيك الهند في فبراير ١٩٤٢م، وقام بتفقد طرق التجارة القديمة من شمال غرب الهند إلى آسيا الداخلية في سبيل تشجيع التجارة مع سنكيانغ، وفي نفس الوقت طار الجنرال تشو شاو-ليانغ Chu Shao-liang رئيس مكتب الجنرال شيانغ كاي شيك في سيان Sian في الشمال الغربي إلى اورومجي للتباحث مع شنغ شيه تساي (وقد كان شنغ في يوم ما موظف لديه)، وتم تعيين تشوسر هـ. وو Chaucer H. Wu (وو تشي هسيانغ Wu Chai-hsiang) مفوضا خاصا عن الشؤون الخارجية، وكان من ضمن الخطة تعيين الجنرال المسلم ما بو شينغ Ma Pu-ching الذي يعتبر المنافس لشنغ شيه تساي في مفاوضات السلام في غرب جنغهاي منطقة الحدود التي تشمل جزءا من هضبة التبت، وتشرف على البوابة الخلفي لجنوب صحراء سنكيانغ.

وطبقا لما قاله أحد الصينيين فقد حصل تشو Chu على جائزة قدرها ٥٠٠ دولار صيني، بينما كان يتوقع خمس هذا المبلغ^[1]، وفي هذا العام سافر شيانغ كاي شك إلى لانجو عاصمة مقاطعة كانسو، بينما طار تشو مرة ثانية إلى اورومجي مع المدام شيانغ كاي شيك مع وو تشونغ هسين Wu Chung-hsin الذي أصبح خلفا لشنغ بعد عامين.

وفي عام ١٩٤٣م عندما فشل شنغ في التعامل مع الأحداث الجارية سافر إلى تشون كين؛ كي يتشاور مع شيانغ كاي شيك، وكانت خزانة الحكومة الوطنية قد خصصت عشرة ملايين دولار صيني سنويا؛ لبناء سنكيانغ الحديثة، وباشرت تشونغ كين Chungkin في وضع برنامج واسع لاستغلال موارد

[1] Sun Hai-cheng, "Chu Shao-liang on the Wu Chuan Shan" in Hsin Wen Tien Ti (monthly) Shanghai, No.12, April 30, 1946 (in Chinese)

سنكيانغ، إذ كانت سنكيانغ تقارن بمواردها بولاية كاليفورنيا قبل عام ١٨٤٩م، ومنطقة التاي بولاية ألاسكا قبل عام ١٨٦٧م، وجرى نقل الصينيين الذين يعانون من المجاعة من مقاطعة هونان الصينية إلى سنكيانغ فيما بين ١٩٤٢ - ١٩٤٣م، فوصل أكثر من أربعة آلاف صيني إلى كوجينغ تزو (١٥٠٠) أسرة إلى اورومجي، وخصصت لكل أسرة خمسة عشر فدان من الأراضي الزراعية، ولكن ساء إدارة المشروع، وأصبح المهاجرون إليها مستأجرين وعمال فلاحة.

ومع ذلك بدء قوة تشونغ كين يتوسع في عام ١٩٤٣م، وبعثت الموظفين والجنود إلى سنكيانغ، وأخذ السوفييات يقبلون ظهر المجن، وبدء العمل بتخريب حقل البترول الرئيس الذي تم حفره في غرب اورومجي، ونقلت الآلات إلى أراضيهم، وسحب الفرقة المدرعة المعروفة بمتطوعي التاي، وكانت تضم المدربين الروس ورجالا مجندين من الشعوب غير الروسية المقيمين في سنكيانغ، ومنذ عام ١٩٣٠م كانت تتمركز قرب قمول لحماية شرق سنكيانغ من تقدم المدرعات اليابانية من منغوليا الداخلية، وبعد عام ١٩٤٣م اتضح أن اليابانيين لا يهدفون إلى مهاجمة الغرب، فسحب الاتحاد السوفياتي هذه الفرقة؛ لأنها لا ترغب بزعب القيادة الصينية في سنكيانغ^[1].

بالنسبة لشنغ شيه تساي فالمقارنة بين الاعتماد على الاتحاد السوفياتي والاعتماد على الحكومة الصينية الوطنية أمر مضحك، وبينما أمدّ الاتحاد السوفياتي الحاكم العام شنغ بكميات كبيرة من الآلات بنظرة تفاؤلية لبرنامج الإصلاح الذي جعله مشهورا بين قوميات سنكيانغ، أصرت تشونغ كين أن تساعد بالقليل، وعيّنت له موظفين يقاومون نفوذه الشخصي، مما دفع شنغ أن يتخلى عن الإصلاحات، وأساءت إلى سمعته بين القوميات في سنكيانغ.

وفي عام ١٩٤٤م كان شنغ يستعد لتغيير آخر، وعلى ضوء انتصار الاتحاد

[1] Eleanor, Lattimore, Far Eastern Survey, New York, April 11, 1945

السوفيياتي على الغزاة الألمان، اعتقد شنغ أن الاتحاد السوفيياتي سيكون قوة عظيمة، فادعى المرض واختفى من الاجتماعات العامة، وفي أبريل ١٩٤٤ م بدء بالقبض على الموظفين الموالين لحكومة تشون كين، وخلال شهر يونيه سجن الطلبة والأساتذة بتهمة التآمر، وفي أغسطس سجن كثيرا من الموظفين المعينين من قبل تشونغ كين بدون محاكمة، ويقال إنه طرد مائتين منهم وصادر أملاكهم^[1]، ثم طلب شنغ من جوزيف ستالين رئيس الاتحاد السوفيياتي أن يضم سنكيانغ إليه، ولكن الزعيم السوفيياتي الذي كان هادئا في هذا الوقت رفض عرضه، وقد علمت تشونغ كين بالخبر، وقررت تنحيته من حكم سنكيانغ بطريقة المفاوضة^[2].

وجاء إليه الجنرال تشو شاو ليانغ Chu Shao-liang إلى اورومجي، وأقنع شنغ بترك سنكيانغ، وقبول منصب وزير الزراعة والغابات في الحكومة المركزية في تشونغ كين (وكانت هذه الوزارة أيام الكومنتانغ عقوبة لمن يبعد عن السلطة؛ لأنه لا يستطيع تحقيق مصالح الإقطاعيين الذين يسيطرون على الكومنتانغ)، ونشرت جريدة سنكيانغ اليومية في ٢ سبتمبر ١٩٤٤ م عن قرار انتقال شنغ إلى تشونغ كين، التي غادر اورومجي في ١١ سبتمبر ١٩٤٤ م.

انهيار سياسة الصين في منطقة الحدود

فقد صنع كل من يانغ تشنغ هسين وتشن شو جن وشنغ شيه تساي حكّاما من أنفسهم على سنكيانغ، ينفذون أفكارهم ومصالحهم الشخصية، مع اعتراف من الحكومة المركزية بهم، وبعد أن تم خلع شنغ كانت حكومة الصين الوطنية تتخیر في ترشيح حاكم لها، وكان عليها أن تختار أحد هؤلاء:

[1] Han Hai Ch'ao (Tides of the dry Sea or Desert Tides) Urumchi, January 1947, p.19 also Shanghai Edition of the same day, p.21 (in Chinese)

[2] New York Herald Tribune, September 23, 1947
وقد أرسلها كريستوفر راند من اورومجي بتاريخ 22 سبتمبر 1947م.

ووتشونغ هسين Wu Chung-hsin — تشانغ شي تشونغ Chang Chih-ching - مسعود صبري - برهان شهيدي، مما يعني أن سنكيانغ بدأت تدخل في إطار سياسة حكومة الصين الوطنية المركزية.

وبعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م، تخلصت الصين من قواتها، وأصبحت جمعيتي سي.سي. سي. C.C. Clique ومجموعة العلوم السياسية Political Science Group تتحكما على السياسة في سنكيانغ، وكان نفوذ جمعية سي.سي. سي. أكثر قوة في الكومنتانغ في توجيه السياسة والتعيين من أي جمعية أخرى، وقد عرفت هذه الجمعية بالعنف والبطش واستعمال القوة؛ لاستئصال ما يقاوم نشاطها، وتستمد قوتها من الأخوين تشن كو فو Chin Kuo-fu وتشن لي فو Chin Li-fu اللذين ساعدا الجنرال شيانغ كاي - شيك في الوصول إلى الحكم، بينما مجموعة العلوم السياسية تضم الإقطاعيين والحكام القدامى المعروفين بالمكر والخداع من الموظفين الكبار، وقد فضلت هذه المجموعة الاعتدال حيثما أمكن.

وقد تنافس كلا الحزبين في استقطاب القواد العسكريين الأقوياء الذين يعملون حول شيانغ كاي شيك؛ لتركيز قوتها ونفوذها، وكان شنغ كاي شيك يستعين برجال هذين الحزبين في سياساته وخططه، وفي الواقع كان أعضاء هذين الحزبين يمثلون مختلف الآراء الكونفوشييين التقليديين، وبدلاً من أن يعمل هؤلاء بتمثيل الشعب فإنهم عملوا بالاستبداد على حكم الشعب، ومع أن هناك صراع بين هذين الحزبين إلا أن نظرتهما نحو الأقليات في الصين كانت واحدة، وهم يرون أن هذه القوميات لا تستحق التمثيل المتساوي في اتحاد الصين الفيدرالي، بل يجب دمجهم فيها.

وكانت هذه النظرة لا تتطابق مع رأي سان يان سن Sun Yat-sen الذي اعترف بالمسلمين الأتراك (الأويغور) في سنكيانغ قومية مستقلة، وطبقاً لما

جاء في المادة الرابعة في برنامج البناء الوطني، ونتائج اجتماع الكومنتانغ الوطني الأول في عام ١٩٢٤م: إن جميع مثل هذه القوميات في الصين مؤهلة للاستقلال الذاتي، وقد تبنى سان يات سن هذه الفكرة تماما في أواخر حياته، وذلك بتأثير من الروس والمستشارين الشيوعيين الصينيين، وبنجاح السياسة السوفياتة تجاه الأقليات الوطنية في روسيا القيصرية، ولكن الكومنتانغ تخلى عن هذه الفكرة بعد موت سان يات سن، وأعضاء الكومنتانغ المؤيدون لها لم تكن لديهم الخطة لتنفيذ سياسة الاستقلال الذاتي، وقد عارض هذه الفكرة المؤرخ المعاصر لي تونغ فانغ Li Tung-fang من جمعية سي. سي.: فزعم أن الأويغور ينحدرون من الهون (هسينغ-نو) وأن هؤلاء ينحدرون من الصينيين القدماء، وعليه ليس هناك اختلاف حقيقي بين قوميتي الأويغور والصينيين^[1].

وكان اتجاه الكومنتانغ الأخير هو تجاهل الاستقلال الذاتي واستبداله بالمساواة في المعاملة، وتعزيز الحكومة الذاتية، وكلتا الفكرتين تعرضت لتفسير خاطئ، وفي الاحتفال الخامس عشر لكومنتانغ أعلن شيانغ كاي شيك أن جوهر الوطنية هو تحرير الصين ومعاملة جميع القوميات فيها على مبادئ المساواة، وفي نوفمبر ١٩٤٤م أكد سن فو Sun Fo هذا الرأي^[2]، ووضع لي تونغ فانغ الإطار العملي لتنفيذ نظرية الحكومة الذاتية، وليس الاستقلال الذاتي، بحيث لا يكون ذلك في وحدة أكبر من ولاية في ضمن المقاطعة، وأن لا يكون ذلك في كل المقاطعة، وكان تشانغ شيه-تشونغ Chang Chih-chung يتخوف أن يؤدي الاستقلال الذاتي أتوماتيكيا إلى الانفصال ثم الاستقلال، وعندما كان حاكما على سنكيانغ خطب في اورومجي في ١٣ مايو ١٩٤٧م، قائلا: بعد عشرات السنين أو بضعة قرون ستستقل سنكيانغ، ولكن ليس الآن^[3]، وهكذا

[1] Li Tung-fang "Are the people of Sinkiang Turki?" in Altai, Chungkin, April 25, 1945. Vol. I. No.2 (in Chinese)

[2] كلمة سن فو ألقاها في الاحتفال بمرور 23 عاما على تأسيس حكومة السوفيات في نوفمبر 1944م.

[3] كلمة تشانغ تشيه-تشونغ نشرت في جريدة سنكيانغ اليومية.

تغيرت نظرة الكومنتانغ إلى الحكم الذاتي المؤدي إلى الاستقلال.

ولكن بسبب الظروف الطارئة في الصين لم تصبح المطالبة بالحكم الذاتي يؤدي إلى الاستقلال؛ لأن الحكم الذاتي في الحقيقة كان يؤكد حق البقاء ضمن الأسرة الصينية على أسس اتحاد المقاطعات فيدراليا مع التساوي في الحقوق، ولم تكن المطالبة بالحكم الذاتي يعني الانفصال، بل مقاومة ديكتاتورية المركز على المقاطعات البعيدة.

وقد لاحظ تيلمان دوردين Tillman Durdin مراسل جريدة نيويورك تايمز في موكدن كما جاء في برقيته بتاريخ ٣ فبراير ١٩٤٨ م: أن السبب الرئيس من استياء المانشوريين من الحكومة، أن سلوك الموظفين المعيّنين من قبل نانكين يعاملون المانشور كشعب يستعمرونه عسكريا، ويستغلونه اقتصاديا)، وبالطبع أن المانشور صينيون مسكنهم أصلا شمال الصين، بينما سنكيانغ تختلف، فالشعب معظمه غير صيني ذو صفات متميزة، وحتى مسعود صبري الذي اعتبره الأويغور عميلا لجمعية سي. سي. اضطر أن يقول في عام ١٩٤٥ م: إذا كانت الحرب ضد اليابان أبرز سياسة تشونغ كين في سنكيانغ، فإن القوات العسكرية كانت تمارس الاستعمار العسكري، وتشجع التسلط الصيني الذي أدى إلى اشتعال كثير من الثورات كما حدث في قمول^[1].

عند ما غادر شنغ شيه تساي سنكيانغ في سبتمبر ١٩٤٤ م ترك فيها ست فرق عسكرية، بالإضافة إلى أربع فرق عسكرية دخلت من تشونغ كين، وبعد عام انضم إليها فرقتان من فرسان التونكان من جنغهاي، وأصبح المجموع ١٢ فرقة، ومع عدد من الفئات العسكرية بلغ مجموعها مائة ألف جندي كانت

Hsinchiang Jih Pao Urumchi, August 14, 1947 (in Chinese)

[1] New York Times, January 30, 1948,

وتصريح مسعود حول القوات فقد جاء في مقاله:

Regarding Politics in the Northwest, in Altai, Chungkin April 25, 1945 (in Chinese)

تشكل تعزيزات قوية في الغرب^[1]، وقد وصف كاتب صيني الإجهاد الاقتصادي والاحتكاك الاجتماعي لهذه القوة العسكرية الكبيرة في مقاطعة قليلة السكان والموارد، التي تبعد من لانبجو عاصمة كانسو عبر الطريق الصحراوي ٢٠٠٠ ميلا إلى اورومجي، والنقاط العسكرية تنتشر في كل عشرين ميلا، ويحصل الجنود على المؤن ووسائل النقل بالقوة من السكان المنتشرين في المناطق حولها، ولم يكن الجنود يتحلون بالأدب، وكثيرا ما يعاملون أفراد الشعب بالقسوة والعنف^[2]، ونتج عن الاستعمار الصيني بالإضافة إلى استملاك الأقلية الصينية الأراضي الزراعية، أن وصل إليها كثير من المهاجرين الصينيين الفقراء، مما أدى إلى زيادة المتسولين واللصوص في المدن والقرى^[3]. وارتفاع الضرائب والتضخم المالي أثار الأحقاد ضد الصينيين، وصاحب ذلك استياء عام حتى بين الصينيين أنفسهم ضد النظام السياسي، وقال مراسل أمريكي: إنه يجب على الصين أن تقوم بإصلاحات خاصة؛ لإنقاذ سنكيانغ، ولكن على الجهود الصينية أن تعمل بشدة لمواجهة ازدياد روح الوطنية الأويغورية^[4].

وفي تنافس القوى السياسية في سنكيانغ في السنوات الأخيرة للكومتانغ كانت جمعية سي. سي. تتفوق على مجموعة العلوم السياسية في أغلب الأحيان، حيث نجح البيروقراطيون القدماء أمثال: وو تشونغ-هسين Wu Chung-hsin والجنرال تشانغ تشيه تشونغ Chang Chih-chung والأويغوري الغني عضو

[1] نقل هذا الرقم فرانك روبرتسون Frank Robertson الذي مكث ثمانية أشهر في سنكيانغ عام 1947م، وبعث رسالته في 28 يناير 1948م، ونشر في نيويورك تايمز في الأول من فبراير 1948م، وأما بالنسبة للقوات الحربية في عهد شنغ شيه تساي عند ما غادرت سنكيانغ فقد جاء في مقابله الصحفية مع تشانغ تشيه-تشنغ في جريدة سنكيانغ اليومية في الرابع من يولييه في عام 1949م بالصينية.

Hsinchiang Jih Pao, Urumchi, July 4, 1947

[2] Chung Shih," The Puzzle in Sinkiang "in Min Chu (Democracy Weekly) Shabghai, March 16,1946, Nos.21-22 Joint Issue (in Chinese).

[3] Ch`en SSu-ying, "Agriculture in Sinkiang "in Central Bank Monthly, New Series, Vol.I, No.6, Shanghai, June 1946 (in Chinese)

[4] Frank Robertson

الكومنتانغ مسعود صبري تحقيق كثير من المكاسب في مناطق الحدود، وقد عمل ووتشونغ - هسين ضمن جمعية سي.سي. في مناطق الحدود، وخلال عمله في منغوليا والتبت كان قد نشر الرعب بين الشعب، ثم عين حاكما على سنكيانغ في أكتوبر ١٩٤٤، ومع أنه خريج أكاديمية فاوتين Paoting العسكرية، ولكن معظم عمله كان في المجال المدني، وكان من قبل حاكما على مقاطعة أن هوي Anhui في عام ١٩٢٩م، ثم حاكم كوتشو Kuechow في عام ١٩٣٥ - ١٩٣٧م، وترأس الإدارة الخارجية في منغوليا والتبت خلال ١٩٣٨ - ١٩٤٤م، و ترأس خلالها أيضا بعثة إلى التبت ساهم فيها في اغتصاب أراضي الشعب التي أثارت المغول ضد الصين.

وقد تم تعيينه في سنكيانغ بدعم من الجنرال تشو شاو ليانغ Chu Shao=Liang الذي سبق ذكره وقد كان من أنشط الأعضاء في جمعية سي. سي.

ومن أعضائها أيضا ومن أهم أعوانه تسنغ شاو لو Tseng Shao-Lu السكرتير العام، ووزير الشؤون الداخلية تنغ تشيانغ هاي Teng Chiang-hai ووزير البناء يو تاو يون Yu Tao-yun ووزير المعارف هسو لين تشي Hsu Lien-chi ووزير المالية لو يو وين Lo Yo-wen.

وفي نهاية نوفمبر ١٩٤٤م أطلق وو سراح الموظفين المعينين من تشونغ كين، الذين سجنهم شنغ شيه-تساي^[1]، واستبقى كثيرا من السجناء الذين لا علاقة لهم بجمعية سي.سي. وتشونغ كين، كما لم يرد كثيرا من الممتلكات المصادرة إلى أصحابها، ولم يسمح بعودة اللاجئين السياسيين الفارين إلى المدن الأخرى في الصين والهند وأفغانستان ومكة المكرمة، وبلغت تكلفة إصدار جواز السفر ثلاثة أضعاف في البداية، ثم ارتفعت إلى عشرة أضعاف

[1] Yu Han, Sinkiang Memoir "in Tu Chih Wen Choi (Reader's Digest) Shanghai, July 16,1946, Vol.1, No.6 (in Chinese)

لكل من يرغب السفر من سنكيانغ^[1]، وانتشر الفساد وارتفع التضخم حتى غدا الناس يرددون: إن كان ذهب شنغ شيه - تساي فقد عاد اثنان مثله في الجشع، وفي مدة قصيرة تبلورت معارضة الحكم الصيني، واندلعت ثورة في وادي إيلي في نوفمبر ١٩٤٤م، واستمرت الثورة أكثر من أربعين يوماً حتى تراجعت القوات الصينية من غولجه، ويشار إلى هذه الثورة في الأدب الصيني السياسي بالشؤون الداخلية، وقد أدت هذه الثورة إلى زيادة الشعور القومي لشعب سنكيانغ.

وتمكن الثوار من تأسيس جمهورية تركستان الشرقية برئاسة ممثلي قوميات: الأويغور - القازاق - الروس البيض غير الشيوعيين الملتجئين إلى هذه المنطقة، وقادتهم العسكريين: على خان توره - عثمان باتور - عبد الغني باتور، وزعمائهم السياسيين: أحمد جان قاسمي - رحيم جان غولجيف - أبو الخير توره^[2].

وأعلن المستوطنون الصينيون أنه ليس لهم علاقة بسياسة حكومة المقاطعة الغاشمة، وقدم السيو الذين يمتنون الزراعة قرب المدن المؤن إلى الثوار^[3]، وانضم المواطنون الأويغور والقازاق إلى الثورة، والحقيقة أن وادي إيلي الذي كان مقر الثوار هو أهم منطقة في سنكيانغ، وإن كان الأويغور فيها ليست أغلبية سكانية.

وقد أشار مراسل أمريكي وصل المنطقة في وقت متأخر قائلاً: لا توجد أدلة تؤيد مزاعم الصين بأن الثوار المسلمين يحملون أسلحة روسية حديثة^[4]، وفي الواقع إن معظم الثوار الأويغور لا يحملون بنادق، وهم مسلحون بقنابل يدوية، وأهم الجنود هم الفرسان القازاق، وبعد معارك طاحنة طوال شهور:

[1] Hsin Wen Tsa Chih (News Miscellany) No.8, Chungkin, March 15, 1946 (in Chinese)

في عهد شنغ شيه تساي كان كلفة إصدار الجواز 150 000 دولار صيني، وفي عام 1946 ارتفعت التكلفة إلى 2 000 000 دولار.

[2] Revolutionary Eastern Turkistan, Kulga, July 30, 1946 p.1 (in Russian)

[3] نفس المنشور بتاريخ 26 ديسمبر 1946م، ص 2.

[4] Frank Robertson

يوليه وأغسطس وسبتمبر توسع حكم غولجه الثوري إلى منطقة جوجاك، ثم اتجه الثوار إلى الشرق مندفعين إلى مناس - المدينة الهامة التي تتفرع منها طرق تجار اورومجي أحدهما إلى إيلي والأخرى إلى جوجاك، وكان القتال ضاريا في مناس حتى انخفض عدد السكان من ٤٠٠٠٠ نسمة إلى ١٧٠٠٠ نسمة، وكان التدمير هائلا جدا^[1]، وفي هذا الوقت أذاع ثوار غولجه بأن لديهم أربعين ألف رجل مسلح، ويستعدون للهجوم على اورومجي، وجعلها مقبرة للصينيين، وتقدمت قوات المفرقات بقيادة هو تسونغ نان Hu Tsung-nan التي كانت في شمال الصين خلال الحرب اليابانية - الصينية وتشن حرب العصابات ضد الشيوعيين الصينيين، ولكنها فشلت في دحر الثوار.

وفي هذه الظروف الحرجة لقوات الحكومة الصينية أصبح التفاوض مع الثوار ضروريا جدا، فبعثت تشونغ كين الجنرال تشانغ شي تشونغ Chang Chih-chung إلى سنكيانغ في سبتمبر ١٩٤٥ م، ومع أنه رجل عسكري اكتسب مركزا مرموقا في السياسات الوطنية في الصين وسنكيانغ، ولكنه لم يكن قائدا حريبا يتولى قيادة الجنود في المعركة، وبعد أن تخرج من أكاديمية فاوتين Paoting العسكرية درس في ألمانيا، ثم تولى قيادة الفرقة الخامسة العسكرية، واشترك في الدفاع عن شنغهاي ضد اليابان في عام ١٩٣٢ م، ثم أصبح عميدا للأكاديمية العسكرية العامة، إلا أنه لم يظهر نشاطا فعلا في قيادة الجنود في الحروب، وكان قد ترأس حكومة مقاطعة هونان من ١٩٣٧ - ١٩٣٩ م، وفي عام ١٩٤٠ م أصبح مساعد الجنرال تشيانغ كاي شيك، وخلال الحرب الوطنية كان رئيس معهد التدريب السياسي في المجلس الوطني العسكري، ثم أصبح السكرتير الأول لجمعية شيبية سان مين تشو San Min Chu أحد معاقل جمعية سي.سي.، ولم يكن يميل إلى جمعية سي.سي. أو إلى مجموعة العلوم السياسية، ولكنه كان رجلا مخادعا يستطيع التعاون معهما، وعلى الرغم من

[1] Hsinchiang Jih Pao, Urumchi, February 22, 1947, (in Chinese)

ثقافته الجيدة عن التسوية والتعامل بعيدا عن فاشيسيت جمعية سي.سي.إلا أنها لم تعارض تعيينه مفاوضا مع الثوار في سنكيانغ، حيث لا تنفع المقاومة بالقوة العسكرية طويلا^[1].

وفي مجال التفاوض مع ثوار غولجه قام تشانغ تشيه تشونغ بثلاث رحلات جوية ما بين تشونغ كين - اورومجي: سبتمبر وأكتوبر ١٩٤٥م، ويناير ١٩٤٦م، وكان الاجتماع الأول مع ممثلي غولجه مفيدا؛ لحملهم على التخلي عن استقلال جمهورية تركستان الشرقية، إذا حققت تشونغ كين حكومة ذاتية مستقلة لكامل سنكيانغ، وكان تشانغ يرغب أن تحتفظ غولجه بقواتها باسم مجموعة حفظ السلام الوطني (ترتيب عام كان موجودا في الصين) مع التأكيد على سيطرة تشونغ كين العام على جيش المقاطعة والتحكم الكامل على علاقاتها الدبلوماسية.

ثم عقد الاجتماع الثاني في اورومجي في نوفمبر ١٩٤٥م، في وقت كانت الثورة قد انتشرت في حوض تاريم، وفقدت الحكومة الصينية السلطة في ياركند وقارغيليق، وحاصر الثوار المسلمون خوتن، ولم تتمكن تشونغ كين من إرسال قوات كبيرة إلى سنكيانغ رغم انتهاء الحرب مع اليابان، وإحراز التفاوض مع الشيوعيين تقدما ملحوظا، وفي هذه الفترة زاد الاهتمام بالتفاوض بشكل عام، فقد عملت أمريكا التي كانت صديقة الصين الأولى، وداعما للجنرال تشانغ كاي شيك وسيطا في التفاوض بين الكومنتانغ والشيوعيين الصينيين، والاتحاد السوفياتي الذي كان يدعم الشيوعيين وكان قنصله العام في اورومجي يقوم بدور الوسيط بين ثوار غولجه وحكومة الصين الوطنية.

[1] في عام 1949م بعد أن ترأس بعثة ممثلي الكومنتانغ المكون من ستة أعضاء والموفدة إلى بكين بهدف التفاوض السلمي مع الشيوعيين الصينيين جرى اتهامه مع أربعة من الأعضاء بفشل المفاوضات التي لم تكون لصالح الكومنتانغ، فاضطر أن يبقى في بكين يتعامل مع الشيوعيين حتى تم انتصارهم.

وفيما بين أكتوبر ١٩٤٥ م، ويونيه ١٩٤٦ م عقد ثمانية عشر اجتماعا رسميا، وأكثر من عشر اجتماعات غير رسمية بين ثوار غولجه وممثلي حكومة الصين الوطنية، وأصبح خلالها الجنرال تشانغ رئيسا لمكتب الرئيس الجنرال تشانغ كاي شيك في الشمال الغربي؛ لتعزيز موقعه في التفاوض.

وانتهت المفاوضات بثلاث اتفاقيات، وحوى الاتفاق الرئيس على ١١ مادة، منها المادة التاسعة التي بموجبها توقيع اتفاق إضافي لإعادة تنظيم حكومة المقاطعة، وعلى الاتفاقيتين وقع الجنرال تشانغ وثلاثة ممثلين من غولجه وهم: أحمد جان قاسمي وأبو الخير توره ورحيم جان غولجيف، والمعاهدة الثانية الإضافية التي انبثقت من المادة العاشرة لإعادة تنظيم القوات المسلحة لم توقع إلا في ٦ يونيه ١٩٤٦ م، حيث أقيم فيه احتفال عظيم في العاصمة أورومجي، و أبرق وو تشونغ هسين رئيس حكومة المقاطعة إلى جمع الولايات بطلب إطلاق سراح السجناء السياسيين^[1].

وكان الاتفاق الرئيس هو تعيين الولاية بطريق الانتخاب المحلي بدلا من تعيينهم من قبل حكومة المقاطعة، وأن يكون التعليم في المدارس الابتدائية باللغات القومية لغير الصينيين، وتكون اللغة الصينية إجبارية في المدارس المتوسطة، كما يكون من حق حكومة الصين الوطنية تعيين بعض أعضاء حكومة المقاطعة، ويكون من حق ممثلي القوميات الأخرى ترشيح الباقين، وأما الجنود المسلمون الأويغور والقازاق يتم التعامل معهم بلغاتهم في الأوامر والقيادة، وتدريبهم حسب نظام القوات الوطنية بشرط ألا تتمركز مع قوات حكومة الصين الوطنية في معسكر واحد.

وقد عالجت المعاهدة الإضافية الأولى تفاصيل تعيين ١٥ عضوا يرشحهم ممثلو القوميات مع تسمية مناصبهم في حكومة المقاطعة، كما عالجت المعاهدة

[1] Ta Kung Pao, Chungking edition, June 7, 1946 (in Chinese)

الإضافية الثانية تفاصيل تنظيم وقيادة قوات القوميات المحلية، وقوات حكومة الصين الوطنية، ومهدت لمعاهدة تالية تحدد الأماكن والولايات التي تتمركز فيها^[1]

وإذا تم تنفيذ هذه الاتفاقيات الثلاث ستكون القوميات غير الصينية في سنكيانغ قد حصلت على نصيب كبير من الاستقلال الذاتي، وعلى حكومة محلية معززة بجزء من قواتها المسلحة المحفوظة بها، وعلى ضوء هذه الأمور يتم المساواة بين القوميات في التعامل، بيد أن هذه الاتفاقيات لم تنفذ كاملة، وحال دون ذلك مطالبة جمعية سي.سي. بإصرار أن تتولى تمثيل حكومة الصين الوطنية والتنفيذ.

وعلى ضوء الظروف وبناء على الإجراء الأولي في تنفيذ الاتفاقيات تم تعيين تشانغ تشيه تشونغ Chang Chih-chung في محل وو تشونغ هسين Wu Chung-hsin حاكما عاما على المقاطعة في يولييه ١٩٤٦م، وتعيين مساعدين له أو يغوري وتتاري، كما عين أحد منسوب جمعية سي.سي. ليو منغ هسون Liu Meng-Hsun سكرتيرا عاما لحكومة المقاطعة وتعيين وكيلين له أو يغوري وقازاقي، ثم جرى تعيين وانغ تسنغ شان Wang Tseng-shan وزيراً للداخلية وتشاو تشين فنغ Chao Chien-Feng وزير للشؤون الاجتماعية وكو تشين-تشي Ku Chien-chi نائب وزير البناء في حكومة المقاطعة، وجميعهم أعضاء في جمعية سي.سي.

وبهذه اللعبة المزدوجة تمكن الجنرال تشانغ على تحسين الحكومة على الأقل في اورومجبي، ووضع بصفة مستعجلة دستوراً أساسياً للمقاطعة، يشمل على عشر نقاط، ويمنع بموجبه الموظفين من مزاوله التجارة، وشجع البنوك الخاصة لزيادة الإنتاج وعمل على تخفيض الضرائب وانتخاب محافظي وحكام

[1] الاتفاقيات الثلاثة نشرت كاملة من قبل وكالة الأنباء الرسمية للحكومة المركزية في نانكين في 29 يونيو 1946م.

الولايات في خلال شهور ثلاثة^[1]، كما أمر بتسهيل تجارة المقاطعة التي أقفلها شنغ شيه تساي^[2]، وأمر بحرق ٢٥٠٠٠ أوقية من الأفيون، ومنعا للاضطراب منع الزواج بين المسلمين وغير المسلمين، وألغى الضرائب المتأخرة، ووعده بتخفيض ضرائب عام ١٩٤٧م^[3]، ثم ذهب إلى نانكين بطلب معونة سنوية قدرها ١٦٥ مليون دولار صيني لسد عجز ميزانية المقاطعة^[4].

وأطلق سراح مائة شيوعي صيني تقريبا، ممن اعتقلهم شنغ شيه تساي، (وكان أكثرهم يعمل في برامج إصلاحاته)، وبعثهم إلى ينان Yenán في عربات خاصة^[5].

ومع اتباع الجنرال تشلنغ مثل هذه الإجراءات عرف بأنه الحاكم المعتدل الذي يحب التسوية، وفي الواقع كان يعمل بجدية في الوصول إلى تسوية عملية في سنكيانغ، فمثلا قال في خطاب له في اورومجي بتاريخ ١٣ مايو ١٩٤٧م: أجد نفسي مع الأقليات، فقد سويت الاختلافات معهم دائما بالتفاوض أو بالتنازل، وربما عكس هذا انطباع خاطئ في المحيط الخارجي بأننا ضعفاء حتى أننا سمحنا للمجموعة التي يقودها الحاكم المساعد أحمد جان أن تسيطر على كل شيء^[6]، ويشرح هذا الانتقاد أنه كان يعتمد على جمعية سي.سي بينما كان يتفاوض من جهة أخرى مع القوميات اللاصينية.

في الحقيقة كانت التسوية في هذا الوقت سياسة منطقية؛ لأن قوات حكومة الصين الوطنية التي يشرف عليها الجنرال تشانغ لم تتمكن من تخطي نهر مناس، وقد توقف وصول متوجات غرب مناس من الذهب والفحم والزيت

[1] Han Hai Ch'ao (Desert Tides) Urumchi, January 1947, pp.9-11 (in Chinese)

[2] Ta Kung Pao, Shanghai edition, August 13, 1946 (in Chinese)

[3] فقد نشرت تفاصيل تخفيض 16 ضريبة في إعلان رسمي صدر في جريدة سنكيانغ اليومية باللغة الصينية في اورومجي في 12 يناير 1947م.

[4] في نفس الجريدة بتاريخ 11 أبريل 1947م.

[5] Han Hai Ch'ao (Desert Tides) Shanghai edition, January 1947 (in Chinese)

[6] في كلمة له نشرت في جريدة سنكيانغ اليومية باللغة الصينية بتاريخ 14 أغسطس 1947م.

والقمح والدقيق واللحم إلى منطقة اورومجي، علاوة على ذلك أن كثير من زعماء الأويغور وحوض تاريم يطالبون نانكين باصرار على معاقبة شنغ شيه تساي^[1]، ومن المحتمل أنهم يجهلون أن شنغ اشترى نفسه بهدية ضخمة من الذهب قدمها إلى خزينة الكومنتانغ.

وتشبت جمعية سي.سي. المعارض ضد مرونة واعتدال الجنرال تشانغ مستغلة نفوذها التي تسلل إلى سنكيانغ منذ بداية عام ١٩٤٢م، عند ما بدء شنغ يغير وجهته من الاتحاد السوفياتي للاعتماد على الكومنتانغ، ومع أوائل يناير ١٩٤٣م، كان الكومنتانغ قد أقام مكتبا إقليميا وفرعا لمعهد التدريب السياسي في اورومجي بإشراف جمعية سي.سي.، ووصل خريجو هذا المعهد إلى أكثر من ٢٠٠٠ في عام ١٩٤٦م، وعند ما عقد الاجتماع الأول لمكتب الكومنتانغ الإقليمي كان الخريجون قد وصل عددهم إلى خمسين ألف^[2]، ولما أصبح الجنرال تشانغ حاكما على سنكيانغ كانت فروع الكومنتانغ (جمعية شباب سان مين تشو) يعملون في أورومجي وأقسو كاشغر، وكان تشن هسين تسنغ عضو جمعية سي.سي. يستطيع الإشراف على جميع هذه الأعمال، وكذلك يشرف على أعمال حكومة المقاطعة، بل أيضا على جماعة الفدائيين والسياسيين.

ولعدم وجود إدارة قوية مع تشانغ شيه تشونغ، تسلل أعضاء جمعية سي.سي. في جميع المراكز السياسية، ومع أن شعبيتهم سيئة بين الصينيين إلا أنهم تمكنوا من تجنيد أفراد من القوميات غير الصينية من خلال المكاتب العامة، ولم يتردد أعضاؤها من ابتزاز الأموال لتنظيم حركتهم، ليس في سنكيانغ فحسب، بل في جميع أنحاء الصين، وعمل الحكام والقواد العسكريين المنتمين إلى هذه الجمعية على تأسيس جماعات فاسدة، ونسبت إليهم التعامل مع العصابات

[1] Ta Kung Pao., Shanghai edition, November 16, 1946 (in Chinese)

[2] Hsinchiang Jih Pao (Sinnkiang Daily) Urumchi, March 1, 1947, also Han Hai Ch`ao (Desert Tides) Urumchi, January 1947 (Both in Chinese)

الخاصة لإفشال الانتخابات والاجتماعات العامة^[1]، ومن الأحداث التي نسبت إلى جمعية سي.سي. قتل ممثل الحاكم في إمين Emin بالقرب من جوجك في نوفمبر ١٩٤٦م، وكذلك الثورة الكبيرة التي حدثت في اورومجي في فبراير ١٩٤٧م، وقتل فيها خمسة أشخاص، وجرح الكثير، والثورات في تورفان وتوقسون وشانسن خلال شهر يولييه ١٩٤٧م، وتجد مثل هذه الحوادث في المناطق التي أسست فيها فروع جمعية سي.سي. في الصين، وإن كانت الصحف المؤممة تنسب هذه الحوادث إلى الأويغور والقوميات غير الصينية في سنكيانغ^[2].

ومع انهيار الوضع في الصين ذاتها كانت سياسة تشانغ التي عرفت بالاعتدال والتسوية في سنكيانغ تشبه كثيرا بسياسة النفس الطويل لكسب الوقت، بدأت قوميات سنكيانغ تظهر السخط والغضب، وتعبير عن الخدعة عوامل بها ثم تأزم الموقف، وتطور إلى الانتقاد الفعلي في الأشهر الأولى لعام ١٩٤٧م، وفي شهر فبراير ١٩٤٧م أعلن أحمد جان: أن تعبیر تركستان الشرقية لا يعني استقلالها فحسب، بل يعني أن الشعب تخلص من سياسة الاضطهاد التي لا يريد استمرارها... ومسألة اليوم هو تعزيز الوحدة الوطنية (وحدة قوميات سنكيانغ) ووضع السياسة الديمقراطية موضع العمل والتنفيذ، مقترحا برنامج إصلاحية يتكون من ثلاثة نقاط: وحدة جميع شعوب سنكيانغ وتولي الأويغور وغيرهم من القوميات اللاصينية الشؤون التنفيذية في المقاطعة، ما عدا الدفاع، وتكوين مجلس أقليمي يتولى السلطة القضائية العليا في البلاد، قائلا: لا نحتاج في

[1] Observer (weekly), Shanghai, March 22, 1947 (in Chinese)

[2] Hsinchiang Jih Pao, Urumchi, July 1, 1947 (in Chinese), also article by Chang Chi-yun (member of the C.C. Clique) in Ta Kung Pao, Tientsin edition, September 21, 1947 (in Chinese)

والجانب الآخر من هذا ظهر في البيان الصيني الذي صدر منطقة جوجوك التي تحت ثوار غولجه يندد تخريب الصينيين في اورومجي في فبراير 1947م، وقد نشرت في الطبعة الصينية من:

Ta Cheng Min Sheng Pao (Justice and the People's Livelihood) Chuguchak, April 30, 1947

سنكيانغ أن تتسلط قومية منفردة، وأن شرط السلام هو حدة القوميات والسياسة الديمقراطية كما جاء في إعلان غولجه^[1].

واتهم أحمد جان مستندا على أدلة قوية أن القوات وبوليس الأمن الصيني تدخل في كثير من الانتخابات في معظم مدن حوض تاريم، وضرب أفراد الشعب وسجن الطلبة والأساتذة ومنع الاجتماعات، بل هدد الجيش في إحدى المرات بتدمير سنكيانغ بقنبلة نووية^[2]، وبينما كان يجري العمل على تحميل السلطات الصينية وجمعية سي.سي.سي. مسؤولية هذه الأحداث، أبدى أحمد جان إمكانية الصلح بين الشعب الصيني وشعوب سنكيانغ غير الصينية، وقد جاء في حديثه من المستحيل فرض السلام في هذه المقاطعة بوسائل الإكراه والفساد والخداع والغدر، والشعب الصيني ليس عدونا، بل هؤلاء الأشخاص الذين يمارسون سياسة التسلط والإكراه، وينفذون سياسة استعمارية واغتصاب حقوق الشعب^[3].

وقام تشانغ شيه تشونغ في أبريل ١٩٤٧م، بأهم رحلة إلى مدن حوض تاريم لتعزيز مركزه بعد الحصول على المعلومات الأولى، وأدلى بحديث في اورومجي، حيث كانت حكومة الصين تواجه سياسة أحمد جان، محاولا تجنب إشعال الثورة: إن تطبيق الحكم الذاتي والديمقراطية عمليا في سنكيانغ يعني الاختيار بين نظام سان يات سن أو النظام الشيوعي، وأن معارضة غولجه (ثوار غولجه) لحكومة الصين تعني معارضة نظام جمعية سان مين تشو أو

[1] فقد تم نشر النص الكامل لحديثه في جريدة شينجانغ كزيتيه التي تصدر باللغة الأويغورية في 19 فبراير 1947م، وبسبب تحفظ الحكومة الصينية عليه لم يتم نشره بالصينية في طبعها الصينية.

[2] ويظهر في هذا الوقت موقف بعض القواد الصينيين في تحذير أصدره سونغ هسي لين Sung Hsi-lien القائد العام لقوات الحكومة الصينية حينئذ في سنكيانغ: عدونا الأول هو مجموعة غولجه وعدونا الثاني هو مجموعة الوطنيين، ويجب عليهم إلغاء شعار تركستان أولا أو أن يكون هناك فوضى كبيرة، كما في برقية فرانك روبرتسن

Frank Robertson, New York Times, February 1, 1948

[3] خطاب أحمد جان الذي سبق ذكره.

مبادئ سان يات سن الثلاثة الرئيسة، وهذا يعني اعتبارهم شيوعيين.

وقام الجنرال تشانغ بمعالجة بعض المشاكل القائمة بين الحكومة الصينية وثور غولجه، وكان أحمد جان المتحدث الرسمي باسمهم يريد الاعتراف بحق الحكومة الصينية بالإشراف على الدفاع عن سنكيانغ، وقد طلب الجنرال تشانغ إعادة تشكيل ست فرق عسكرية في الولايات الثلاثة: غولجه — جوجاك — التاي، وأن يسبق ذلك سيطرة القوات الصينية عليها تماما، ويشبه طلبه هذا بما عملته حكومة الصين الوطنية في مفاوضات عامي ١٩٤٥-١٩٤٦م، مع الشيوعيين الصينيين بواسطة المارشال، حيث وافق الشيوعيون على تخفيف قوتهم ووضعها تحت قيادة عليا، ولكن كان لهم شرط الاحتفاظ بوحدهم الخاصة، وأن يستمر تمركزها في الولايات الشيوعية، إلا أن حكومة الصين طلبت أن يكون لها حق التسريح والتجميع، وليس الإشراف فقط.

بالإضافة إلى مطالب أخرى تقدم بها الجنرال تشانغ، فقد طلب موافقة زعماء قوميات سنكيانغ بالموافقة على مد سكة الحديد التي ترغب الحكومة ربط مناطق الحدود مع الصين، ولكن الزعماء اعتبروه وسيلة لزيادة تدفق المستعمرين الصينيين إليها.

وطلب الجنرال تشانغ أخيرا إلغاء الأوراق النقدية الخاصة بالمقاطعة، واستعمال الأوراق النقدية لحكومة الصين، ومع أن هذا الطلب كان منطقيا في نظر الصينيين، ولكن بالنسبة لسنكيانغ كان يعني ضخ ثروتها إلى الصين بدون تعويض عائد إليها^[1].

وقبل أن يتورط الجنرال تشانغ في كثير من المأزق ترك رئاسة حكومة مقاطعة سنكيانغ مع الاحتفاظ برئاسة مكتب القائد العام في الشمال الغربي، الذي منحتة

[1] نشر النص الكامل لخطاب تشانغ تشيه تشونغ في جريدة سنكيانغ اليومية باللغة الصينية في 14 اغسطس 1947م، ولكن يلاحظ التأخير الطويل في النشر مما يفيد الاضطراب السياسي الذي حدث خلال هذه الشهور.

حق الإشراف العام على شمال غرب الصين وسنكيانغ، وتولى مسعود صبري رئاسة حكومة مقاطعة سنكيانغ في مايو ١٩٤٧م، وهو أحد وجهاء الأويغور من أسرة معروفة بالتجارة والثراء.

وكان مسعود صبري قد ذهب إلى تركيا للدراسة في عام ١٩٠٤م، وكان حينذاك في ١٧ من عمره، وبعد أن قضى ١١ عاما في إستانبول عاد إلى سنكيانغ عام ١٩١٥م، متأثرا بقومية كمال أتاتورك، وزاول الطب في إيلي عدة أعوام ثم رحل منها إلى كاشغر، ومنها عبر الهند وصل إلى الصين بحرا عام ١٩٣٤م، وتواصل مع جمعية سي.سي. وبمساعدة منها لا بترشيخ من زعماء سنكيانغ أصبح ممثلا عن سنكيانغ في اجتماع الكومنتانغ عام ١٩٣٦م، وبالتالي عضوا في جمعية الكومنتانغ التنفيذي المركزي، وخلال الحرب اليابانية وضعت جمعية سي.سي. في الهيئة السياسية الوطنية، ثم صار عضوا في الحكومة الوطنية في عام ١٩٤٢م، وهكذا أصبح مسعود صبري حاكما على سنكيانغ في عام ١٩٤٧م، وهو أول أويغوري يتولى هذا المنصب، ليس بسبب حركة وطنية مصدرها سنكيانغ، بل لأنه عميل لجمعية سي.سي.، وفي الحقيقة لم يعتلي مسعود الرئاسة بعملية من داخل سنكيانغ، بل عاد إليها بعد سنوات من الاغتراب، وترافق مع هذا عودة الجنرال سونغ هسي لين Sung Hsi-lien قائد البعثات العسكرية الذي سبق أن جاء إليها والجنرال تاو شيه يوه Tao Shih-yueh قائد الفدائين^[1].

وعلى هذا لا يدعو إلى الاستغراب أن عددا من أعضاء مجلس المقاطعة احتجوا على هذا التعيين، وقدموا اعتراضهم إلى الجنرال تشانغ على تعيين مسعود صبري قبل وصوله إلى اورومجي، ثم بعد توليه الحكم في ٣١ مايو ١٩٤٧م، قام أكثر من ٦٣ عضوا من أعضاء المجلس الأقليمي البالغ عددهم ٩٠ عضوا بتقديم معارضة شديدة في ٤ يونيو ١٩٤٧م، بينما قاد اثنا عشر هيئة

[1]

من الهيئات الوطنية مظاهرات في خارج المجلس^[1]، ووزعت هذه الهيئات منشورات تقول: إن مسعود صبري لم يكن موجودا في سنكيانغ عند اندلاع الثورات الوطنية فيها، ولم يشهد سقوط شنغ شيه تساي وليس له سجل وطني، لا من حيث الإدارة أو الزعامة^[2].

وعلى الرغم من معارضة هؤلاء الأويغور المستمر، وخاصة زعماءهم في المدن التي تحتلها القوات الصينية، تمكن مسعود صبري من جمع قوات كافية على قمع الحركة الوطنية، وبمساعدة جمعية سي. سي. والقوات الصينية منع انتخاب أعضاء السلطة القضائية وألغى التعينات في مجموعات حفظ السلام الأقليمي، وأجبر حكام الولايات الذين انتخبهم الممثلين الوطنيين في الاستمرار في تلقي الأوامر من القوات الصينية، وكان ٤٨ عضوا مسلما من أصل ٤٢١ عضوا في مكتب الأمن في اورومجي، و٨٤٪ منهم من الصينيين، وصارت الأوامر العسكرية تكتب باللغة الصينية، ومُنِع الجنود المسلمون من حمل الأسلحة، واستمرت سياسة الاضطهاد السري مع أنها ألغيت بموجب دستور المقاطعة الأساس الصادر في يولييه ١٩٤٦م^[3].

وبعد شهر واحد من تولي مسعود صبري رئاسة حكومة سنكيانغ ازداد التوتر، وهجم البوليس السري ومنسوبو جمعية شباب سان مين تشو بمساعدة من القوات النظامية مسرحا وطنيا كان يضم أكثر من ألف متفرج، وضربوا وألقوا القبض على أعضاء المجلس الأقليمي، ووكيل حاكم ولاية تورفان، كما تعرضت الجماهير لقسوتهم وألقي القبض على كل من يقرأ المنشورات الاتهامية التي وزعت ضد مسعود صبري في السجون^[4]، وعمل مسعود صبري على منع اجتماع المعارضة الذي جرى ترتيبه من قبل ممثل غولجه في المجلس الأقليمي.

[1] Ibid., July 3, 1947

[2] Ibid., July 24, 1947

[3] Ibid., June 24, and 29, 1947

[4] Ibid., July 9, 1947

وتزايدت الخلافات بين مسعود صبري وثوار غولجه القوميين، وفي يولييه ١٩٤٧م انسحب عشرون عضوا من المجلس الأقليمي من اورومجي إلى غولجه، ويمثلون قرأشهر - تورفان - خوتن - آقسو - غولجه، ثم لحق بهم اثنان وعشرون عضو يمثلون ولاية كاشغر، ثم عاد بقية الأعضاء برئاسة أحمد جان قاسمي إلى غولجه في أغسطس ١٩٤٧م^[1].

ثم وجه الجنرال تشانغ شيه تشونغ المشرف على مسعود صبري خطابا إلى أحمد جان زعيم ثوار غولجه مستفسرا عما إذا كان يريد سلاما أو حربا: إذا كنت لا تعارض السلام، نرجو عودتك إلى اورومجي، وفتح باب التفاوض مع الحكومة^[2]، وفي نوفمبر أجابت غولجه بعدم التصميم على الانفصال عن الصين، ولكن اشترطت على العودة تحقيق بعض المطالب الأساسية من ضمنها عزل مسعود صبري، وفي ديسمبر أجابته الجنرال أن الحكومة الصينية لن تعين خلفا لمسعود صبري بدون انتخاب، وجدد الدعوة إلى مزيد من التفاوض، وكان جواب غولجه هو تكرار الطلب بعزل مسعود صبري^[3].

ثم عاد الجنرال تشانغ شيه تشونغ إلى نانكين حيث قدم إلى الحكومة الصينية خطة خمسية على تطوير الزراعة والغابات والتعدين والرعي والصناعة في سنكيانغ، وفي يناير ١٩٤٨م خصصت حكومة الصين مبلغ خمسين بليون دولار بسعر العملة المنخفضة في ذلك الوقت، وكان ذلك لتعويض الممتلكات التي صادرها شنغ تشيه تساي، وجاء الممثل الرسمي لها في رحلة خاصة لدراسة الأمور وبقي ستة أسابيع في سنكيانغ، وبعد عودته حث الحكومة على تحسين المرافق الصحية والنقل.

[1] Hsinchiang Jih Pao, Urumchi, July 11 and 14 1947 (in Chinese)

[2] Times, New York, October 6. 1957

[3] برقية أرسلت من حون رودريك John Roderick من مقر الرئيس للجنرال تشانغ في لانجو في مقاطعة كانسو بتاريخ 5 أبريل 1948م، ونشرت في China Daily Tribune في شنغهاي في 7 أبريل 1948م.

وعموما بدء الوضع ينحدر إلى الأسوأ في سنكيانغ طوال عام ١٩٤٨م، واحتفظت الحكومة الصينية بقوة تقدر بمائة ألف جندي فيها، معظمهم مجهز بأسلحة أمريكية، وكانت هذه القوات قد تكونت خلال الحرب الأهلية مع الشيوعيين، وفي المقابل كان ثوار غولجه الذين يتكونون من الأويغور والقازاق يتراوح عددهم ما بين ٢٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠ نائرا، وقيل: إن الاتحاد السوفياتي مدّوهم بالمساعدة.

وأما من ناحية العمليات العسكرية فإن أهم الأحداث المثيرة لم تكن مع ثوار غولجه، بل في منغوليا الخارجية في منطقة باتيك بوغدا Batik Bogda، وهي منطقة جبلية تتصل بالتاي وتنتهي إلى صحراء جونغاريا في شمال سنكيانغ، وعندما استولت الإمبراطورية المانشورية على سنكيانغ ومنغوليا الخارجية لم تكن هذه المنطقة ذات أهمية، إذ كانت تقطنها قبائل تورغوت واولوت من مجموعة قبائل غرب منغوليا، التي تنتشر على منحدرات غرب التاي والتي تتوزع بين غرب منغوليا الخارجية وسنكيانغ، ولم يكن فيها قبائل خلخا Khalkha التي تعتبر القبائل الرئيسة في منغوليا الخارجية.

وفي هذه المنطقة أيضا توجد قبائل القازاق الذين تعتبرهم السلطات الإمبراطورية المانشورية رعاة مستأجرين من المغول على حد زعمها، بيد أن مناطق الرعي الصيفية حول باتيك بوغدا التي يعيش فيها بعض القازاق يعمل فيها بعض المغول في الزراعة والرعي، وكان من عادة القازاق ترك خيولهم ترعى شتاء في باتيك بوغدا حتى تتدرب على اكتساب طعامها من بين الثلوج، بينما ينقلون مواشيهم وأغنامهم إلى صحراء جونغاريا الذي يخضع لسلطة حكومة سنكيانغ، ويتجه بعضهم عبر الصحراء إلى منحدرات باتيك بوغدا السفلى قرب كوجنغ تز، وحكومة سنكيانغ تعيدهم إلى باتيك بوغدا خارج سيادتها؛ لأنها تعتبرهم عصابات ومثيري الاضطرابات ولأن باتيك بوغدا خارج حدود سنكيانغ.

ومع عام ١٩٤٨م تغيرت نظرة سلطات سنكيانغ وقوات الحكومة الصينية إلى هؤلاء القازاق؛ لأن زعيمهم عثمان باتور الذي سبق وانضم إلى ثوار غولجه انفصل عنهم واستغلته الحكومة الصينية، ودفعته بالتوجه واحتلال باتيك بوغدا التي ادعت ملكيتها. ومحاولات القازاق الناتج من تحريض حكومة الصين لقيت مقاومة شديدة من قوات خفر الحدود منغوليا الخارجية، وكانت أخبار هذه الحوادث مثيرة جدا، ولم تحدث معارك واسعة، وقلل المراسلون الأمريكيان في سنكيانغ من أهمية هذه الأحداث بعد الأنباء الأولية عنها^[1].

وحدود هذه المنطقة غير واضحة تماما، فالخرائط الصينية تظهر باتيك بوغدا ضمن حدود سنكيانغ، وتبدء حدود منغوليا الخارجية على طول ذروة التاي الرئيسة^[2]، ولكن الخرائط الروسية القيصرية والبريطانية القديمة تشير أن الحدود تعتاز منطقة باتيك بوغدا، أو جنوب التلال المرتفع الرئيسة.

وفي ديسمبر ١٩٤٨م قامت الحكومة الصينية بحركة هامة عندما عزلت مسعود صبري، وعينت بدلا عنه برهان شهيدي الوكيل حاكما عاما، وكان هذا مقبولا عند ثوار غولجه، وهو أصلا من التتار الروس، وصاحب مصالح تجارية واسعة ونفوذ كبير في سنكيانغ منذ عهد القيصر، وقد عاصر عهدو يانغ وشن وشنغ والكومنتانغ في سنكيانغ.

وعاد الجنرال تشانغ تشيه تشونغ إلى سنكيانغ في يناير ١٩٤٩م، وحاول التفاوض مع السوفيات بشأن معاهدة اقتصادية تحل محل معاهدة عشر السنوات التي وقعها شنغ تشيه تساي في عام ١٩٣٩م، وأذيع في هذا الوقت أن السوفيات يحاولون الحصول على امتيازات التعدين والتجارة، ولكن تبين أن الحكومة

[1] ومثلا ينظر في رسالة هنري ر. ليبرمان Henry R. Lieberman المرسله من اورومجي في 27 أغسطس 1948م، والمنشور في New York Times في 8 سبتمبر 1948م.

[2] ينظر في الخريطة صفحة 59 لمقال تشانغ تشيه بي Chang Chih-yi بعنوان:

“Land Utilization and Settlement Possibilities in Sinkiang” in Geographical Review, Vol.39, No. i, New York 1949

الصينية مهدت مجالاً لصراع بين المصالح السوفياتية والشيوعيين الصينيين، وذلك بمنح السوفيات حقوقاً واسعة في هذه المنطقة من حدود الصين، مما أدى إلى عدم توقيع معاهدة جديدة، واحتكر السوفيات حق الخدمات الجوية بين قمول ومدن الحدود السوفياتية بموجب المعاهدة القديمة لمدة خمسة أعوام أخرى^[1].

وبعد العودة من سنكيانغ وحضور عدد من اجتماعات التفاوض التحق الجنرال تشانغ شيه تشونغ بهيئة سلام الكومنتانغ المكون من خمسة أشخاص، وذهب إلى بكين كي يفاوض الشيوعيين الصينيين، وهناك مع بقية أعضاء الهيئة أعلن الخروج من الكومنتانغ والتحاقه لا إلى الحزب الشيوعي الصيني بل لحركة تشكيل حكومة ائتلافية تحت إشراف الشيوعيين، أخيراً في سبتمبر عام ١٩٤٩م تعقدت الظروف السياسية في سنكيانغ، لقد سافر سيف الدين عزيزي أحد أعضاء ثوار غولجه ممثلاً إلى المجلس الاستشاري الشعبي في بكين، الذي اجتمع بناء على دعوة الشيوعيين، وكان الجنرال تشانغ تشيه تشونغ (الذي كان في يوم ما ممثل الكومنتانغ في سنكيانغ) عضواً في هذا المجلس، وأعلن حاكم مدينة قمول في شرق سنكيانغ تأييد النظام الشيوعي الجديد بحماس، وتلا ذلك إعلان حكومة مقاطعة سنكيانغ الانضمام الرسمي إلى النظام الشيوعي^[2]، وبهذا انتهى فصل من تاريخ آسيا الداخلية ليبدء فصل جديد.

[1] ينظر أيضاً في رسائل المراسلين المنشورة في الصحف:

Henry R. Lieberman, Nanking, January 31, 1949 in New York Times; February 1, 1949; United Press, Nanking, February 13, 1949; Ibid., February 14, 1949. Henry R. Lieberman, Canton. February 28, 1949; Ibid., February 28, 1949. Walter Sullivan, Urumchi April 1, 1949; Ibid., April 6, 1949. Walter Sullivan, Urumchi, March 30, 1949; Ibid., April 18, 1949. Unsigned dispatch from Shanghai, May 11, 1949; Ibid., May 12, 1949. Frank Robertson, Canton, in Christian Science Monitor, June 6, 1949

[2] ينظر أيضاً في رسائل المراسلين المنشورة في الصحف:

Henry R. Lieberman from Shanghai, September 24, 1949 in New York Times, September 25 and 26 1949; September 25, 1949; Ibid., September 26, 1949; Tillman Durdin, From Hongkong, September 28, 1949, Ibid., September 29, 1949

الفصل الرابع: شعوب سنكيانغ

السكان:

إن موضوع إحصائية سكان المستوطنين في سنكيانغ يحتاج إلى دراسة جدية؛ لأنه لا يوجد إحصاء سكاني دقيق مرضي حتى الآن، وتختلف التقديرات جدا ما بين (٢٠٠٠٠٠٠) و(٨٠٠٠٠٠٠) نسمة، والإحصاء الذي قام به مكتب الأمن في المقاطعة في عامي ١٩٤٠-١٩٤١ م تبين أن عدد السكان (٧٣٠٠٠٠) (٣) نسمة وقد يكون هذا الرقم أهم ما يوجد من إحصاء سكاني حتى يتم إجراء إحصاء أكثر دقة^[1].

وثلثا أراضي سنكيانغ غير مسكونة، والمناطق الرعوية ذات كثافة سكانية ضئيلة، وتشكل ربع مساحة المقاطعة، وتضم ١٠٪ من السكان، والمناطق الزراعية ذات الكثافة السكانية تشكل ٥٪ من مساحة سنكيانغ، ولكنها تضم ٩٠٪ من السكان، وأما التركيز السكاني الكبير فهو في جنوب تيان شان، أو أكثر دقة في الركن الجنوب الغربي قرب الحدود السوفياتية، فالمناطق الأربع كاشغر وخوتن وأقسو وياركند تضم أكثر من ثلثي السكان،، كما أن التركيز الثاني هو في شمال تيان شان قرب الحدود السوفياتية أيضا، في وادي إيلي.

[1] - ومن مؤشرات توزيع السكان الجغرافي من الأرقام التي تم الحصول عليها بدقة تقريبا من المناطق الإدارية العشرة للمقاطعة فيما بين 1940-1941. فقد كان عدد سكان هذه المناطق حسب الأكثرية كالاتي:

كاشغر: 900 000	خوتن: 605 000	أقسو: 581 000	ياركند: 561 000
اورومجي: 372 000	غولجه: 351 000	جوكوجالك: 144 000	
قراشهر: 106 000	شاراسوم: 63 000	قمول: 48 000	

ويتوزع السكان اقتصاديا بين الذين يعتمدون على الزراعة وآخرين يعتمدون الرعي، وأما المهن والحرف الأخرى مثل التجارة والإنتاج اليدوي فإنها أقل ممارسة، وأما من الناحية الدينية فالمسلمون يشكلون الأغلبية العظمى من السكان، بالإضافة إلى أقليات كونفوشيسية تاوست وبوذية لاما والمسيحية الأرثوذكسية^[1].

وينتشر المسلمون في ألواحاتهم ولكنهم أقل تمسكا بالشعائر الدينية من الشعوب الإسلامية الأخرى، إلا إنهم أكثر تمسكا من المسلمين الرعاة الذين يحتفظون كثيرا من عقائدهم الشامانية البدائية.

ولم تذكر التوزيعات العرقية أو صافها بالصبغة العلمية المفيدة، ولكن المعلومات العلمية الضئيلة المتوفرة تشير إلى نماذج عنصرين، أحدهما: العنصر الألبى الذي يتصف نسبيا بطول القامة وتموج الشعر والعين الداكنة أو الرمادية والأنف المستقيم والبشرة البيضاء، والعنصر الآخر يعرف بأشباه المغول، قصير القامة نسبيا ومستقيم الشعر وسواد العين والأنف العريض وبشرة بيضاء تضرب إلى الأحمرار وقلة الشعر في الوجه والجسم، وتحمل ملامح صفات شعوب شرق آسيا.

وأما التاجيك أو ساري كول سكان تاشقورغان في جنوب سنكيانغ الغربي، ويمثلون بشكل واضح العنصر الألبى هم أقلية يتكلمون الإيرانية، ومن الشائع المعروف أنهم بقايا شعوب كانوا يقطنون معظم سكان آسيا الداخلية، ومن التابع تظهر الصفات الألبية بوضوح في الشعب المستوطن في حوض تاريم، وهم الأويغور الذين يشكلون ثلاث أرباع سكان المقاطعة، بينما تظهر الصفات المغولية البارزة بين الصينيين والمغول وتتبعهما المجموعات الرعوية الرئيسة في

[1] إحصاء غير منشور استنتجه السيد تشانغ تشيه بي عن الأديان في سنكيانغ:

المسلمون: 3 439 000 بوذيون كونفوسيسيون تاوست: 215 000

بوذيون لاما: 63 000 مسيحيون أرثوذكس: 13 000

مرتفعات المقاطعة وهم القازاق والقيرغيز. وهكذا يظهر التكوين العرقي تداخل شعوب المغول القبلية الاختلاف البين مع السكان الألبين المستوطنين قديما.

وبالرغم من التصنيف العلمي السابق الذي يعتبر أفضل تصنيف علمي لسكان سنكيانغ، يظهر كثير من الاصطلاحات المتغايرة مثل العنصر التركي أو العنصر القيرغيزي، بينما هذه الاصطلاحات فعليا لا تعني العنصر بل تعني جماعات لغوية.

وإذا صنفنا اللغة على أنها وحدة لغوية تضم العبارات المفهومة المتبادلة بين مجموعة واحدة، وتستبعد اللغات التي تختلف معها، عندئذ يمكن أن تكون هناك عشر لغات رئيسة منطوقة في سنكيانغ، وهذه تتوزع في ثلاث أسر لغوية متميزة هي: الألتائية- الهندوالصينية - الهندوأوروبية.

وتنقسم مجموعة الألتائية إلى ثلاثة فروع هي: التركية والمغولية والتونغوزية، وهنا اللغات العشر مع عدد المتكلمين بها في سنكيانغ^[1]:

أ- الألتائية:

١. أ- التركية^[2]:

٢٩٤١٠٠٠	١. الأويغورية
٣١٩٠٠٠	٢. القازاقية
٦٥٠٠٠	٣. القيرغيزية
٨٠٠٠	٤. الأوزبكية
٥٠٠٠	٥. التتارية

المجموع: ٣٣٣٨٠٠٠

[1] Ibid.

[2] لم تكن لغة الحديث تصنف باللغة التركية التي لم تكن معروفة إلا من خلال قراءة القصص، وفي مؤلفات القرن التاسع عشر استعمل مصطلح (التركية على اللغة التي يتحدث بها شعب الأويغور وعلى أنفسهم، وأصبح هذا الاستعمال حاليا قديما.

٦. ب- المغولية: ٦٣٠٠٠

٧. ج- التنغوزية: ١٢٠٠٠

المجموع: ٣٤١٣٠٠٠

2- الهندو- الصينية:

٨. الصينية: ٢٩٤٠٠٠

2- الهندو- أوروبية:

٩. الإيرانية: ٩٠٠٠

١٠. الروسية: ١٣٠٠٠

المجموع: ٢٢٠٠٠

وإن محاولة تحليل وتصنيف سكان سنكيانغ بدقة على أسس عرقية أو قومية عملية معقدة، بسبب سوء استعمال المصطلحات المضطربة وغير العلمية التي استخدمها الرحالة الأجانب، والتي اصطبغت بدوافع السياسة الصينية وزعماء القوميات التركية، ومما زاد الموضوع تعقيدا، أن ما كتبه الرحالة والمكتشفون والجغرافيون في المؤلفات الروسية والغربية عن سنكيانغ لمدة قرن تقريبا، كثيرة ومتداخلة، ولكن مع الأسف الشديد أن التصنيف العنصري والقومي والسياسي في الجزء الأكبر غير محدد ومعين، فمثلا كاتب أمريكي يذكر الملامح الآرية لمجموعة أقليلية على أنها عنصر قيرغيزي، وكذلك على شواهد الدم التركي والمغولي في كاشغر^[1]، والحال إن كلمة (آري) تستعمل مصطلحا لتصنيف اللغات فقط وليس البشر، بينما الشعوب التركية التي تتكلم اللغات التركية والقيرغيزية والمغولية متنوعين كثيرا ومختلفين في الأصول.

ولعل اضطراب المصطلحات العلمية في المؤلفات الأجنبية يؤدي إلى سوء

[1] William James Morden, Across Asia's Snows and Deserts, New York, London '927

الفهم والإثارة، ويشكل خطرا سياسيا عندما يستعمل في صياغة نظريات الحكام الذين يتولون الحكم، والنظريات السياسية الصينية المعاصرة في تصنيف الآراء عن العنصر والقومية هامة جدا، تحتاج إلى دراسة متعمقة؛ لأن السياسة الصينية في ممارساتها تواجه تزايد حركات الوطنيين الذين يقاومونها، وبات من الضروري فرز المصطلحات المستعملة من قبل الحكام الصينيين والزعماء الوطنيين، قبل إيجاد تصنيف دقيق ومنطقي لكثير من الشعوب التي يتكون منها سكان سنكيانغ.

وحاولت الصين تصنيف شعوب سنكيانغ بطرق تقوي سياستها الحكومية في اتجاهات، أربع:

١. النزعة الأولى: تدعى « تا هان تشوي » « uhC naH aT-I » وهي نظرية الصين العظمى، وقد عارض هذه النظرية بعض الصينيين خوفا منها، وقاومها المغول والأويغور والقوميات الأخرى؛ لأنهم بهذه النظرية تصبح جميع الشعوب غير الصينية ضمن سياسة الصين مجرد سلالات من عنصر الصين العظيم القديم، وينبغي بقائهم ضمن معيار العنصر الصيني، ولكن الجناح اليميني خلال فترة انتصار الكومنتانغ شجّع هذه النظرية بهدف بناء قوى عسكرية وإيديولوجية واسعة.

٢. النزعة الثانية: تعارض فكرة الامتصاص الإجباري، وتؤكد على برنامج الاختلافات الثقافية، ويمكن تصنيفها بالاستقلال الثقافي وأنصارها الرئيسيون هما: شنغ شيه تساي الحاكم السابق لسنكيانغ، وتشانغ تشيه تشونغ gnuhc-hihC gnahC رئيس بعثة الكومنتانغ إلى سنكيانغ بعد عزل شنغ.

٣. النزعة الثالثة: يمكن تسميتها « بالقومية التركية » وتؤكد

على حقيقة أن معظم سكان سنكيانغ يتكلمون اللغات التركية، وهم مسلمون عقيدة، ويؤيد هذه النظرية كثير من الأويغور مع بعض أنصارهم من القازاق.

٤. النزعة الرابعة تتركز على فكرة استقلال الأرض والثقافة، وعلى هذا يمكن تعريفها ببساطة «بالفيدرالية» وتستمد فكرتها من السياسة القومية السوفياتية، وقد ناصرها الشيوعيون الصينيون، وكانت فرصة طيبة لممارسة الأقليات غير الصينية وغير الشيوعية ذاتيتها الوطنية والمستقلة مع الصينيين في دولة واحدة، وهي فرصة تجعل القوميات تشعر بالتساوي والاستقلالية داخل الكومنتانغ وخارجه، وكان هذا التوجه يعني التسوية بين مجموعة الأحرار من منسوبي الكومنتانغ ويمكن أن تغلب على المخاوف التي قد تنتج من تطبيق أي برنامج شيوعي.

وكان شيانغ كاي شيك النصير الأول لنظرية «الصين العظمى» كما جاء في كتابه (قدر الصين. China's Destiny) كذا في الترجمة الرسمية، ويشير إلى أن جميع شعوب الصين هو ضمن شعب واحد (الصينيون Chunghua)^[1]، وأن هذا الشعب الصيني يتكون من مجموعات وصفتهم الترجمة الرسمية بالسلالات، والاختلافات في رأي شيانغ بين هذه السلالات تنحصر في العادات والتقاليد والعقائد والبيئات الجغرافية، ولا تعني العنصر، وبالاختصار يقول: إن السلالات المختلفة في الصين لا تكون شعبا واحدا فقط، بل عنصرا واحدا^[2].

والمبادئ العامة التي جاء ذكرها في كتاب «قدر الصين» طبقت في المشاكل

[1] Chiang Kai-shek, China's Destiny, New York, 1947, p.3, (كما بين الهالين في أصل) الترجمة

[2] Ibid. p.13

الشعب أو القومية في الاصطلاح الصيني مين-تسو min-tsu تعني السلالة تسونغ-تسو tsung-tsu وتستعمل غالبا بمعنى العشيرة.

الوطنية في سنكيانغ من قبل عضو جمعية سي.سي. في الكومنتانغ وهو رجل سياسي يعطي أعماله تفسيرات حكومية في تكوين الفكرة أو النظرية التي يقضلها شيانغ، وحسب اصطلاحه فقد تم تقسيم شعوب سنكيانغ إلى أربع عشرة سلالة، ثم استنتج أن هذه السلالات ليست قوميات مستقلة، بل سلالات فقط من شعب واحد، لا يخولها اكتساب حق الاعتراف بالسياسة المستقلة، وهو موضوع عالجه كتاب آخرون في مجالات الثقافة أيضا، واقترح أن تقوم الحكومة الذاتية في سنكيانغ على وحدات جغرافية صغيرة، بصرف النظر عن اختلاف الشعوب القاطنة ضمن هذه الوحدات، ولكي يمنع التفسيرات لعبارة «الحكومة الذاتية» ندد في أحاديث كثيرة خطأ تعريف الحكومة الذاتية بالحرية والاستقلال^[1].

وفي مقابل نظرية الامتصاص الإجباري لجمعية سي.سي. كانت سياسة شنغ شيه تساي تحكم سنكيانغ، ذلك لأنه عندما كان في سنكيانغ بعد الحرب اليابانية في الصين عام ١٩٣٧م، استعان شنغ ببعض رجال الإنقاذ الوطني في حكومته، وظهر أن هؤلاء أداة في بسط سياسة التسوية المؤثرة بين احتكار الموظفين لحكومة المقاطعة وتزايد الوطنية بين الشعوب غير الصينية.

وكان رجال الإنقاذ الوطني الصيني في هذا الوقت يمثلون فكرة هيئة سياسية لمواجهة الطوارئ التي نتجت من الخطر الياباني، ويدعون إلى الالتزام بسياسة ائتلافية واسعة نشطة، والعمل على تقريب جميع الاختلافات السياسية، بدءا من الانقسام الكبير بين الكومنتانغ والشيوعيين، وانتهاء إلى جميع المشاحنات الحزبية الصغيرة، وكانت نظرتهم مناسبة جدا لإيجاد تناسب معنوي في زمن الحرب في سنكيانغ، وبوحي من رجال الإنقاذ الوطني الصيني أعلن الجنرال شنغ برنامج «سياسة النقاط الست العظمى»^[2]، وبموجب أحد هذه النقاط تم تصنيف شعوب سنكيانغ رسميا إلى أربع عشر قومية، وبموجب وثائق هذه

[1] Cf. Articles by Li Tung-fang in Altai, I, No.2, Chungking, April 25, 1945, pp.8-9 and pp.15-18

[2] انظر الفصل الثالث.

الفترة قائمتها كالاتي:

الصينيون: ٢٠٢ ٢٣٩	التارانجي: ٤١٣٠٧
المانشور: ٦٧٠	التتار: ٤٦٠١
المغول: ٦٣٠١٨	القيرغيز: ٦٥٢٤٨
المسلمون تونكان: ٩٢١٤٦	الأوزبك: ٧٩٦٦
الأويغور: ٢٩٠٠ ١٧٣	السيبو: ٩٢٠٣
القازاق: ٣١٨٧١٦	السولون: ٢٤٨٩
التاجيك: ٨٨٦٧	الروس: ١٣٤٠٨

وأسس هذا التصنيف غير واضح تماما، فقد شرح مستشار شنغ أن الاضطراب في أسس هذا التصنيف يعني التخلص من أي عمل علمي يعتمد على التصنيف العرقي^[1]، كما لا يعتمد على مفهوم جغرافي لأن كل جماعة من الجماعات المصنفة لا تنحصر في منطقة واحدة، ولا تعتمد على أسس اقتصادية محددة؛ لأن معظم الجماعات تتكون من الرعاة والمزارعين، ولا يستند على مفهوم ديني، لأن التصنيف صنف المسلمين الصينيين (التونكان) قومية مستقلة، ولم يكن كذلك بالنسبة لأتباع الأديان الأخرى لم يشملها هذا التصنيف، ولم يصنف الأويغور وهم مسلمون حسب ديانتهم، وكذلك لا يقوم على عدد الولايات التي تتكون منها سنكيانغ وهي عشر ولايات، بينما تم تصنيف القوميات أربع عشر قومية، وأخيرا لم يعتمد هذا التصنيف على أي ارتباط ملحوظ بين هذه الأسس.

مع كل ما في هذا التصنيف من ثغرات كانت الوسيلة التي أظهرت مرونة الإدارة الحاكمة في سنكيانغ أكثر من سياسة الصين السابقة، وهو في الواقع محاولة اقتباس حذر لما طبقها السوفييات تجاه أقليتهم في الاتحاد السوفياتي، وعلى أي حال لم يدم هذا الأمر طويلا، لأن شنغ كما تبين من تاريخه لم يكن

[1] Martin R. Norins, Gateway to Asia: Sinkiang, New York, John Day, 1944, p.91

تابعا جيدا للاتحاد السوفياتي أو لأفكاره، وكان التأكيد الوحيد في برنامجه هو تشجيع ثقافات أقليات الشعوب، الذي سمح لها بالاستقلال الثقافي بينما يضغط على الاستقلال السياسي أو الأقليمي، وظهر بالتأكيد (خاصة في نظر حكومة شنغ) أنه يهدف بهذا إلى تقوية سلطة الأقلية الصينية في سنكيانغ، وكان تصنيف شنغ في الواقع متأثر بالمفهوم السياسي وإن لم يكن دقيقا وعلميا، فعلى الأقل يمثل عصر الإمبراطوريات القديمة.

وقد احتضن تشانغ شي تشونغ هذا البرنامج الذي نفذه شنغ شيه تساي عندما أصبح حاكما على سنكيانغ، وكان مثل سلفه أكثر إصرارا على تأكيد الاختلافات الثقافية بين القوميات الأربع عشر، وبخلاف جمعية سي.سي.سي. الحاكمة يبدو أن تشانغ وافق على منح شعوب سنكيانغ قاعدة من الحكم الذاتي بدلا من وحدات إدارية مثل المناطق فقد قال: إن إدارة سنكيانغ يجب أن تعهد إلى الجماعات العرقية المختلفة، ويجب أن تعمل بقيادة الزعماء الوطنيين في سنكيانغ^[1]، وهذه الجملة تعكس حقيقة أن تقسيمات سنكيانغ الإدارية لا تتطابق مع توزيع الجماعات العرقية المختلفة، وتظهر قيود الحكم الذاتي من الآتي:

تؤكد الحكومة الصينية المركزية أن تخضع لها جميع القوى السياسية لشعوب سنكيانغ، وأن لا تؤدي الأراضي والسلطة القومية الذاتية إلى انفصال الأقليم، وزوال سيادة الحكم المركزي، الذي لن يتسامح بالأمور التي تؤدي إلى الإضرار بوحدة الأراضي الصينية أو سيادة الدولة ولو أدى ذلك إلى الحرب^[2].

وفي مواجهة سياسة الصين المشار إليها بعاليه تزعم مجموعة من الزعماء الوطنيين الدعوة إلى «القومية التركية»، وهم يهتمون بشعوب سنكيانغ في إطار يهدف إلى تقوية سلطتهم على جميع الشعوب المستوطنة ضمن حدود المقاطعة، ومن أوائل هؤلاء الزعماء الحاكم المنتدب من الكومنتانغ الدكتور

[1] Chang Chih-chung, Dikemma in Sinkiang "Pacific Affairs, XX. New York ,1947, p.426

[2] Ibid, p.428

مسعود صبري الأويغوري الثري والتاجر في غولجه، ويمثله في الشهرة محمد أمين الأويغوري الذي درس عدة أعوام في تركيا، ويعد من أشهر زعماء سنكيانغ البارزين^[1].

وعلى رأي مسعود وأمين لا تضم الصين أمة واحدة أو قومية واحدة منفردة، كما أن سنكيانغ لا تضم أربع عشرة مجموعة من الشعوب أو قوميات أو أي مصطلح آخر حسب تصنيف حكومة الصين، وعلى رأيهما فإن مصطلح القومية الذي يستعملانها على تصنيف شعوب سنكيانغ لا بد أن تقوم في نظرهما على الأسس التالية:

- ١- وحدة اللغة، ٢- وحدة الأرض، ٣- تشابه العادات والتقاليد،
- ٤- وحدة الهدف، ٥- وحدة العقيدة، ٦- وحدة العنصر،
- ٧- وحدة الملبس والتزين، بالإضافة إلى عناصر أخرى مثل روابط القرابة.

وعلى أسس هذه المعايير استنتج الزعيم أن الجماعات السبع الذين صنّفهم شنغ شيه تساي بالأويغور والقازاق والقيرغيز والتارانجي والأوزبك والتتار والتاجيك لا يشكلون إلا قومية واحدة، وفي رأيهما أن هذه الجماعات تشكل «الشعب التركي» على الرغم أن التاجيك لا يتكلمون اللغة التركية بل الإيرانية.

وقد عرض كل من مسعود وأمين المصطلحات مثل الأويغور والقازاق على المجموعات الأخرى، وأنه يجب تصنيفها قبائل لأنها جميعاً أعضاء ومنحدرون من الشعب التركي الذي عرفت دولته مثل (هسي يونغ نو - Hsiung nu) و (يوه تشيه Yueh — chih)، والشعب التركي الذي ذكرهما يشكل تسع أعشار سكان سنكيانغ، بينما العشر الباقي ينقسم إلى ثلاث قوميات وهي:

[1] بشأن آراء هؤلاء الزعماء انظر مجلة التاي: Altah, Vol.I, No.2, Chungking, April 1945

الصينية والمانشورية والمغولية، والقومية الصينية تضم جماعتين كان شنغ صنفهما بالصينيين والمسلمين، ومصطلح (مسلم) هنا مرادف لاسم (تونكان) وهم مسلمون عقيدة وصينيون لغة؛ وأما المانشورية تضم: المانشور والسيبو والسولون وهم الذين صنفهم شنغ قوميات منفردة، وأما الروس في قائمة شنغ قد يكونون القومية الخامسة، مع أنهما يعترضان على ذلك، لأن الروس في سنكيانغ هم مواطنون للاتحاد السوفياتي وليست لجمهورية الصين الوطنية.

ومفهوم القومية التركية بهذا المعنى العلمي ظهر من عمل دعائها مع الحكومة الصينية من جهة ومن جهة أخرى من احتكاكها مع القوميات الأخرى في سنكيانغ، وقد انعكس هذه المجاذبات في الاستعمالات العلمية في مطالب القومييين الأتراك في الانتخابات الوطنية، وفي النقاش الذي دار بين لي تونغ فانغ Li Tung-fang مع محمد أمين الذي انكر رغبة الأتراك في «الاستقلال» وأنهم لا يريدون حتى «الاستقلال الذاتي» والذي ذكره منحت للأقليات في الصين بموجب بيان سون يات سن في اجتماع الكومنتانغ الأول في عام ١٩٢٤م، وهو مع القومييين الأتراك لا يريدون أكثر من حق «الحكومة الذاتية»، بينما يطالبون إدارة الحكومة الذاتية لأنفسهم، وبشدة تعلقهم بالوطنية التركية لا يريدون التخلي عن هذا الحق لقوميات أخرى، ولأن الأتراك ينتشرون في كل بقعة من سنكيانغ، وأن اسم المقاطعة يجب أن يتغير إلى أحد الاسماء التي تعكس انتشارهم الشامل متجاهلين مصالح القوميات الأخرى، وعلى هذا فهم يطالبون تسمية جميع سنكيانغ باسم «تركستان» رسمياً.

وهكذا إن دعاة القومية التركية يعرضون اتجاهين متناقضين، فهم يرون قبول التبعية للأغلبية الصينية في جمهورية الصين، غير أنهم يريدون الحصول على مراكز القوى على جميع سكان سنكيانغ، وفي هذه المسألة يتنازع القوميون الأتراك مع حكومة الصين، ولكن درجة الخلاف السياسي بينها التي يمثلها لي تونغ فانغ Li Tung-fang وبين القومييين الأتراك الذين يمثلهم محمد أمين

ومسعود لا يمكن المبالغة فيه، فقد كان بينهما اتفاق، ذلك أنه تم تعيين مسعود صبري حاكما عاما على سنكيانغ من قبل الكومنتانغ وهو عضوفي جمعية سي.سي.

وفي مقابل هاتين النظريتين الصينية والتركية نشأت نظرية «الفيدرالية» التي تدعو إلى وحدة الأراضي والثقافة، وتقضي على الخصومات القائمة بين الجماعات المختلفة ثقافيا وعرقيا وجنسيا، وعلى الرغم أن الكثير في الصين نفسها وزعماء الأقليات القومية رحبت بالفيدرالية رغبة في معالجة الخصومات، ولكن الصينيين الشيوعيين لهم كان رأي آخر في تنفيذ نظرية وبرنامج الفيدرالية، إذ يرون التأكيد على أهمية الأخذ بالفوارق والاختلافات.

فقد اقتبس الشيوعيون الصينيون النظريات السوفياتية التي تعتمد على تعريف ستالين القائل: إن الشعب تطور تاريخي ووحدات لغوية وأقليمية واقتصادية ونفسية ثابتة تجمعت في الوحدة الثقافية، وعلى ضوء هذا التعريف فالجمهورية الصينية تتكون من قوميات عديدة مختلفة، والصينيون يكونون الأغلبية الحاكمة، والقوميات الأخرى تشكل أقليات ومنها: المغول — التبتيون — Yi — Miao - - Yao - خوي Hui، واستعمال خوي Hui على جميع المسلمين بدون تمييز بين المسلمين الصينيين (تونكان) والمسلمين الأتراك.

وبالرغم من دقة الشيوعيين في تعريف القومية، لكن لم يكن لهم التزام على تنفيذ آرائهم على تحديد القوميات، أو العمل على إيجاد ديمقراطية شيوعية متكاملة في سنكيانغ، وكذلك لم تتطرق مناقشاتهم موضوع الوحدات الإدارية التي تعمل تحت قيادتهم تنفيذ سياسة القومية الفيدرالية، وعلى أي حال ظهرت مخططاتهم العامة تجاه شعوب جمهورية الصين في الاجتماع الذي ضم الشيوعيين الصينيين في عام ١٩٣٠م، كما يتضح من القرار الثاني^[1]:

[1] The Soviets in China, Moscow ,1933, p.440 (in Russian)

«في مناطق منغوليا والتبت وسنكيانغ ويوننان Yunnan كويتشو Kweichow حيث أغلبية السكان قومية غير صينية، فمن حق هذه الجماعات الكادحة أن يكون لها حق الاختيار الذاتي، عما إذا يريدون الانفصال عن جمهورية الصين الشيوعية وتأسيس دولة مستقلة لها، أو يريدون الانضمام إلى جمهوريات الاتحاد السوفياتي، أو يكون لها حكومة ذاتية مستقلة ضمن الصين الشيوعية»^[1].

وقد تخلى الشيوعيون الصينيون عن النظام الإشتراكي بدعوى «الديمقراطية الجديدة» ولم يكن لهم عمل إيجابي في سياستهم تجاه الأقليات القومية، وفي اجتماع الحزب الشيوعي عام ١٩٤٥م صرح ماوتسي تونغ: (أن الصينيين يهدفون إلى معاملة أفضل مع الأقليات القومية في الصين، وبناء على هذا فإن حق الحكم الذاتي وتكوين الوحدة مع الصينيين من المواضيع المستعجلة) ولكن ماو فشل في تنفيذ الحقوق الأولية التي منحت حق الانفصال التي قد تعني وجود فكرة وحجة الدول الوطنية باسم «الجمهوريات الديمقراطية المتحدة» من البداية^[2].

وتأكدت الضرورة إلى إيجاد نوع من الترتيب الفيدرالي بسبب استمرار الثورات المسلحة التي نتجت عن ضغط القومية المحلية، وثورة غولجه التي سبق ذكرها في الفصل الثالث كانت من هذا النوع، وتميزت أنها شطرت الحركة القومية الأويغورية إلى اتجاهين رئيسيين: الإتجاه الأول، يتزعمه الحاكم مسعود صبري وبرهان شهيدي ومحمد أمين وعيسى بك، وهم زعماء مشهورون لدعاة الوحدة الأويغورية، ولكنهم ينحازون إلى الصين ضد ثوار

[1] في هذا القرار أعلن الشيوعيون الصينيون بمبدأ حق الانفصال، وفي خطاب 24 أغسطس 1945م، في سياق الاعتراف بجمهورية منغوليا الشعبية اعترف شيانغ كاي شيك أيضا بحق الانفصال ليس للمغول فحسب بل لجميع الأقليات غير الصينية الأخرى، وقد كرر هذا الرأي فيما بعد في كتابه (قدر الصين) وفي مناسبات أخرى أيضا. وبهذا يكون الرئيس شيانغ والشيوعيون يتفقون مبدئيا على حق الانفصال، ولكن لم يعمل دعاة الاندماج الصيني والقوميون الأتراك بهذا الحق.

[2] Mao Tze-tung, The Flight for a New China, New York, New York 1945, pp.35 and 44

غولجه، والاتجاه الثاني وبتزعمه أحمد جان ويؤكد على مطالب ثوار غولجه، ويقف ضد الصينيين وأتباعهم، وقد تفاقم هذا الانشقاق في أغسطس ١٩٤٧ م.

ومجموعة زعماء الأويغور المعروفين بميولهم نحو التقارب مع الصينيين ضمن حركة القومية التركية سبق ذكرهم في مقدمة هذا الفصل. وأما الأويغور المؤيدين لثوار غولجه تبين لهم أن القومية التركية ستكون حجر عثرة في طريق تعاونهم مع القوميات الأخرى، وانتهاز أحمد جان الفرصة وقضى على سوء التفاهم باكتساب تأييد القازاق لحركة غولجه الائتلافية، ونال قسطا كبيرا من التقدير وكان قد تجاهلهم في السابق.

ولم يظهر زعماء ثوار غولجه معارضة واضحة لآراء زعماء القوميين الأتراك مثل مسعود صبري، كما لم تكن لهم آراء واضحة عن سياستهم القومية وأهدافهم، (وتنقصنا المعلومات الكافية عن مدى معارضتهم لسياسة حكام الصينيين القدماء التي أدت إلى تبنينهم فكرة الفيدرالية المعززة من قبل الصينيين الشيوعيين)، ويظهر من النظام الأول لثوار غولجه أنهم يهدفون إلى الاستقلال التام، كما يعني ذلك استعمال «جمهورية تركستان الشرقية»، ولكن معاهدة غولجه أسقطت كلمة «جمهورية»، وفي ١٦ أكتوبر ١٩٤٧ م أكد زعماء ثوار غولجه على عدم استخدامهم لأي مصطلح مباشر أو غير مباشر، علني أو سري يؤدي إلى التعبير عن انفصال سنكيانغ عن جمهورية الصين، وأنكر أحمد جان وجود رغبة الانفصال قائلا: (المشكلة اليوم هي التأكيد على الوحدة القومية وتنفيذ سياسة ديمقراطية فعّالة، لا تهدف إلى تسلط شعب أو جماعة على شعوب أو جماعات أخرى، والحكومة الذاتية الوطنية تهدف إلى بسط سلطة كاملة في مقاطعتنا بقوة تنفيذية عامة، ليس بإشراف الأويغور أو الجنس التركي فقط، بل بوحدة جميع شعوب مقاطعتنا وعبر تحقيق السياسة الديمقراطية^[1]).

[1] Sin Cang Gezeti, February 19, 1947 (in Uighur)

ولم يظهر المناضلون الأويغور إلى أي عمل جدي سوى رغبتهم على حفظ كيانهم في داخل الدولة الصينية، وتتجلى مقاومتهم في الانتخابات التي تمت بعيدا عن التخويف الصيني الذي حاول ترويع الأهالي بتأكيدات تقول: (نملك القنبلة الذرية)^[1]، وأن (٨٠ ٠٠٠ جندي أمريكي سيدخل سنكيانغ لفرض النظام)^[2]، وأما الزعامة الوطنية فقد عملت من خلال مجالس الشعب على تحقيق بعض مطالب الأهالي، ومن ذلك رغبتهم في استعمال لغتهم الخاصة، حيث كان الأويغور أكثر حرصا على ذلك، فقد جاء في المادة الثالثة من معاهدة غولجه الفاشلة: (إن اللغتين الصينية والأويغورية تستعملان في جميع الوثائق الرسمية، وأن العروض تقدم في لغة مقدم الاستدعاء)، وفي المادة الرابعة منها: (إن التعليم الابتدائي والمتوسطي سيكون بلغة الطلبة، وتعلم اللغة الصينية إجباري في المدارس المتوسطة، وأما التعليم العالي سيكون بالصينية أو الأويغورية طبقا لظروف الطالب).

وهذه المواد أكدت على مطالب الأويغور (والأقليات الأخرى في سنكيانغ على حفظ ثقافتهم، وتحقيق رغبتهم بالاحتفاظ على لغتهم وأدبهم وتقاليدهم من الهيمنة الصينية.

وقد طالبت جميع الأحزاب السياسية الأويغورية بالحرية الدينية أيضا، ورفرف العلم الإسلامي الذي يحمل الهلال والنجم على قماش أحمر على المدارس في غولجه وجوجاك، ولكن بعد الانشقاق الذي حدث بين غولجه وأورومجي طلب تشانغ تشي تشونغ من ثوار غولجه لأيضاح أهدافهم على رفع أعلام تعكس أطيافهم القومية على المدارس ومعسكرات الجيش.

ويظهر أن الحركة الوطنية بين الأويغور لم تصل إلى ثورة نضالية تشبه ما قامت به فيت مينه Viet Minh والجماعات الأخرى في الشرق الأقصى؛ لأن

[1] Ibid.Loc, cit

[2] Sin Cang Gezeti, Feb. 12 and 13 1947 (in Uighur)

طلب الأويغور كان يتركز على نوع من الحريات التي تكفل لهم كيانهم الشعبي الواحد تحت حكومة ذاتية ينتخبون رجالها، ولم يمانع بعض زعماء الأويغور في انضمام شعوب أخرى معهم وقد ضمت حركاتهم بعض الصينيين.

وأخذنا في الاعتبار بتاريخ سنكيانغ القديم وأهداف الثورات الحديثة في المقاطعة تشير كلها أن مطالب شعوبها لن يتم تحقيقها إلا بتطبيق نوع من الاستقلال الأقليمي والثقافي على الأقل، وهذا يعتمد على أن تصل الأقليات إلى توافقات مع الأغلبية الصينية في الدولة، ولكن يبدو أن سلسلة الخلافات كبيرة بحيث يعقد توافق القوميات على تحديد مطالبها وتحقيق الديمقراطية.

والموضوع ليس بالسهل الذي يتصوره الباحث الذي يهتم فقط بتصنيف شعوب المقاطعة؛ لأن تصنيف الشعوب يواجه ندرة المعلومات، وتعقد العواطف الوطنية التي يتسلط عليها المفكرون القوميون، وصعوبة الحصول على المعلومات المادية التي تلقي الضوء على تحليل السكان، وفي هذا الجانب يمكن أن يقدم جدول اللغات بعض الصفات الإجمالية التي تميز شعب عن آخر، ويلاحظ أن معظم متكلمي اللغات العشر (الأوبغور- القازاق- القيرغيز- المغول- الإيرانيون- الصينيون- الروس - المانشور - الاوزبك - التتار) لا يجدون صعوبة التفاهم.

والأويغور المسلمون الذين يتكلمون أحد اللهجات الأويغورية واضحة التفاهم فيما بينهم وينتمون إلى عائلة أدبية وفنية واحدة، ويعيشون عموماً حياة زراعية ويشتركون في تاريخ واحد، ويشكلون ٩٥٪ من السكان في حوض تاريم (حيث يتركز ٩٠٪ منهم) وفي مراكز أخرى يظهرون كثيراً من الوحدة القومية، وفي الطرف الآخر يوجد الصينيون في سنكيانغ وثلثهم مسلمون، بينما الثلثان منهم يعتنقون البوذية التاوية والكونفوشيسية، وتؤكد الحكم التاوية والطقوس الدينية أهمية الدين في حياة معظم الصينيين، وهم لا يشكلون أغلبية سكانية في

منطقة ما، وينقسمون إلى جماعات متضاربة الولاة.

وموضوع الروابط التي توحد المسلمين الصينيين والصينيين الملحدين في قومية مشتركة واحدة موضوع خلاف^[1]، ويحوم الغموض أيضا بقية شعوب السكان، ويتضح أن قوة الوحدة اللغوية بين الصينيين المسلمين وغير المسلمين منهم أقوى مما يفرقهم الدين، وحينئذ يبدو أن جدول اللغات الذي يحتوي على الصفات المحددة على توزيع السكان إلى عشر قوميات واقعا.

زمن بين الجماعات الغوية العشرة في سنكيانغ يشكل الأويغور ٨٠٪ من سكانها، والجماعة الكبيرة التي تليهم هم القازاق ويشكلون أغلبية قزمية في شمال غرب سنكيانغ على حدود جمهورية قازاقستان السوفياتية وعلى طول حدودها مع منغوليا، كما أن القيرغيز يكونون الجزء الأكبر من سكان المرتفعات على حدود جمهورية قيرغيزستان السوفياتية كما ينتشرون على مرتفعات بامير، ويشكل المغول الأغلبية السكانية في شمال شرق سنكيانغ على حدود جمهورية منغوليا الشعبية، وكذلك يتواجدون على مرتفعات جبال تيان شن في وسط المقاطعة.

وأما الإيرانيون والذين يعرفون بالتاجيك أو ساري كول فهم أقلية بالنسبة لشعوب سنكيانغ، إلا أنهم يكونون الجزء الأكبر من سكان وادي تاشقورغان المتاخمة لجمهورية تاجيكستان السوفياتية.

الأويغور والقازاق والقيرغيز والإيرانيون يتميز كل منهم بحقيقة تكوين الأغلبية السكانية في مناطق محددة، وأقلية في أجزاء أخرى من المقاطعة، وفي المقابل فإن بقية الشعوب لا تكون أي واحدة منها أغلبية سكانية في أي مكان من المقاطعة، بل في أحسن الأحوال هي أغليات محلية منعزلة في القرى

[1] المسلمون الصينيون في سنكيانغ ظروفيهم حرجة لأن تأييدهم لمسلمي المقاطعة يدفع حكومة الصين إلى اتهامهم بالخيانة لأنهم صينيون تم تجريدتهم من مناصبهم ومعاملتهم بالخيانة، وانحيازهم إلى حكومة الصين اعتبرهم المسلمون أيضا خونة و منافقون وعملاء.

والمدن، مثل مسألة الصينيين الذين يشكلون ثلثي سكان العاصمة اورومجي، في حين أن الصينيين والروس والمانشور والأوزبك والتتار شعوب تنقصهم جميعا مناطق أقليمية خاصة بهم، بينما الأويغور والقازاق والقيرغيز والمغول والإيرانيين قوميات تعيش في مناطق خاصة، وهي قابلة على التطور بمعنى الشعور الوطني المرتبط بالأرض.

القوميات وصفاتها

١- الأويغور الأغلبية القومية في سنكيانغ:

فقد تطور استعمال اسم الأويغور في الأعوام الحديثة، وقد ظهر تاريخيا في سجلات عائلة تانغ الملكية (٦١٨-٩٠٧م) في الصين اسما على اتحاد قبلي لقبائل الرعاة القاطنين على طول نهر سلينغا Selenga الذي يقع في الجزء الشمالي لجمهورية منغوليا الشعبية، وخلال الأعوام ٧٤٥ — ٨٤٠م تمكن قوات الاتحاد من غزو آسيا الداخلية وبسط سيادتهم على شمال وجنوب جبال تيان شان، ولكن قبائل القيرغيز الآتون من منطقة بيكال ينسي Baikal Yenisei قضت على دولة الأويغور في اورخون في عام ٨٤٠م وتراجع بعض الأويغور من الجنوب الغربي إلى شمال تيان شان، واحتلت جموعهم الكثيرة ألواح الشمالية وبسطت سيادتهم على السكان المستوطنين، وتورد الوثائق الصينية اسم الأويغور على شكل: خوي — خو Hui-hu، وي — وو — اره Wei-wu- erh وبالتالي ظهر اسم خوي Hui أو خوي-خوي Hui-hui الاسم الصيني الشائع على عموم المسلمين.

والشعب أو الشعوب التي احتضنت الأويغور واستوعبتهم اكتسبت اسم الأويغور، بينما كانت تزاوّل حضارات متنوعة استمرت لأكثر من ٥٠٠ عام تقريبا، وقد اكتشفت في ألواح بأقصى شرق سنكيانغ وثائق مكتوبة بالحروف الصغدية يعود تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد، كما اكتشفت أن لغات هذه

الوثائق تنتمي إلى مجموعة الهندو-إيرانية، مع أن الصغد يتمركزون في سمرقند وبخارى، إلا أن لغاتهم كانت منتشرة في آسيا الداخلية خاصة بواسطة التجار، وتوقفت واحة خوتن من تدوين الوثائق باللغة التوخارية Tokharian ولغة الساكا Saka وكتاهما تنتمي إلى مجموعة الهندو-إيرانية التي كانتا مستعملة فيها فيما بين ٢٠٠-٤٠٠ م. التي كتبت بالخط الخاروشي Kharoshthi الذي أتى من الهند، وحضارة ساكا تتصل بثقافة دولة الكوشان التي كانت في شمال غرب الهند وتظهر مؤثرات الهلينية، وفي نفس الوقت ازدهرت في واحتى كوجار وتورفان حضارة استعملت اللغة التوخارية أيضا، والمثير في هذه اللغة أنها تنتمي مثل اللغات الهندو-إيرانية إلى عائلة اللغات الهندو-أوروبية، ولكنها أكثر ارتباطا بمجموعة لغات «كنتوم Kentum» المنطوقة في غرب أوروبا أكثر من اتصالها بلغات الشرق الأقصى.

بالإضافة إلى حديثهم باللغات الهندو-إيرانية تميز شعوب ما قبل الأويغور بشغفهم بالبوذية والمانوية، وبالفن البوذي - اليوناني، وأهم المكتشفات الفنية والأدبية في حوض تاريم تبين ارتباطهم بهذه الديانات.

وعندما دخل الأويغور منطقة حوض تاريم كان جماعة منهم قد اعتنق المانوية بواسطة التجار الصغد، وبعد اتصالهم بالشعوب المستوطنة فيها تحول كثير منهم إلى البوذية، وبالمقابل انتشرت لغتهم بين الأهالي، ثم كلتا الجماعتين تأثرت بالمسيحية النسطورية لاحقا. وأخيرا أصبح الإسلام الدين المسيطر على جميع المنطقة، لقد كانت مدينة كاشغر أول مدينة اعتنقت الإسلام في القرن العاشر، إلا أن الإسلام انتشر ببطء ولم يُقَضَّ على البوذية حتى القرن السادس عشر.

انتهت فترة حكم الأويغور في الربع الأول من القرن الثاني عشر على أثر توسع حكم قراختاي الذي قضى عليه جنكيزخان في بداية القرن الثالث عشر، واستمر حكم خانات المغول على المنطقة حتى سقوط عائلة يوان Yuan

المغولية في الصين، وتميز حكم المغول بشائية إدارة الحكم، فقد احتفظ الأمراء الوطنيون والزعماء الدينيون وشيوخ ألواحات بقدر ملحوظ من سلطتهم، ومع انهيار المغول قبض الشيوخ المسلمون المعروفون بالخجوات على زمام الحكم تماما في عام ١٥٦٦م، وبهذا نشأت دولة ثيوقراطية، واستمر نفوذهم حتى بعد غزو المغول الجونغار عام ١٦٥٠م، وبعد غزو المانشور لجونغاريا في عام ١٧٥٦م.

وفي تاريخ سنكيانغ يظهر الأويغور أنه الشعب الوحيد الذي قدم إليها، ويصرف النظر عن واقعية الاندماج مع السكان المستوطنين، وتمكن الأويغور من فرض لغتهم على الشعوب الأخرى، ولكن لا ينبغي المبالغة في تعظيم نتائج تأثيرهم؛ لأن سكان حوض تاريم الحالي من الناحية الطبيعية أكثر ارتباطا بالعنصر الألبى من العنصر المغولي، لأن ثقافة السكان الحاليين وأسلوب حياتهم مع الصفات الأخرى لا تتصل إلا قليلا بالأويغور القادمين إليها من منغوليا في القرن التاسع.

وقد تجدد استعمال اسم «الأويغور» في سنكيانغ مع أن اللغة الأويغورية يستعملها الشعب الذي يسمي نفسه أويغور ما هو إلا توجهات سياسية رئيسية.

وفي عهد عائلة مينغ Ming عندما كانت علاقة الصينيين بالمنطقة ضعيفا كانت في إدارة الترجمة قسم باسم سزو أي كوان Szu I Kuan يتعامل بشؤون المسلمين عموما، وقسم آخر يختص بشعب «كاو-تشانغ Kao-Ch`ang» ويعني تورفان الذي اعتبرتهم عائلة مينغ الصينية أنهم شعب الأويغور، وفي عهد حكم المانشور عرف سكان حوض تاريم في وثائقهم غالبا باسم «تشان خوي Ch`an Hui» يعني المسلمون ذو العمائم، وأما الصينيون في كلامهم وحديثهم سموهم «تشان - تو Ch`an-t`ou»، وأما الأجانب القادمون إلى المنطقة منذ القرن التاسع عشر فقد سموا السكان «تركا» أو «سارت» والمنطقة

«تركستان»، واستعمل الروس كلمة «سارت» الشائعة في آسيا الداخلية على الشعوب المستوطنة الناطقة بالتركية عموما.

واتخذ جغرافيو العرب كلمة «تركستان» المصطلح الفارسي الذي يعني «أرض الأتراك» في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين على منطقة شمال غرب سيراتريا، واستعملها الروس أخيرا اسما على تعريف ممتلكاتهم في آسيا الوسطى، واستعملت أيضا اسما إداريا على جزء من أفغانستان، وأما البريطانيون فأطلقوه على آسيا الوسطى الصينية، مع أن هذا الاسم لا يعني اسما إداريا، وسموا السكان بالأتراك.

وفي الاجتماع الذي عقد في تاشكند في عام ١٩٢١م، طلب المهاجرون من حوض تاريم القاطنين في آسيا الوسطى استعمال اسم «الأويغور»، وفي عام ١٩٣٤م تلقت حكومة سنكيانغ الإقليمية طلبا من جمعية تشجيع التعليم الأويغوري على استعمال الاسم، وأذيع قرار تضمن هذا الاسم بتوقيع الحاكم شنغ تشيه تساي وخوجه نياز الزعيم الوطني الذي كان وسيلة لإنهاء جمهورية تركستان الشرقية في منطقة تورفان في الثلاثينات من القرن الماضي، وقد أدى ذلك إلى تزايد انتشار اسم الأويغور، وكان هذا مقياس على زيادة الشعور الوطني بين أفراد الشعب الذي كان يتسمى بالكاشغري والتورفاني الذين يمثلون سكان واحات مخصوصة منذ قرون عدة.

وإن أهم الواحات في حوض تاريم هي تجمعات أغلبية أيغورية خاصة في جنوب تيان شان، ولكن في شمالها فهم لا يكونون إلا أقلية، وقد تذوب شخصيتهم بين الشعوب الأخرى، وكان حوض جونغاريا تاريخيا المنفذ الرئيس لجموع المهاجرين، وهذا يفسر أسباب اختلاط شعوب الشمال، ويتكون سكان حوض جونغاريا الحاليون من مهاجرين جدد تقريبا، فبعد احتلال المانشور له في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أبادت القوات

المانشورية ٣٠٪ من سكانه، ومات ٤٠٪ منهم نتيجة الأوبئة والجوع وهرب ٢٠٪ منهم، ثم استهدفت السياسة الاستعمارية على توطين هذه المنطقة بنقل جماعات من الأويغور والصينيين والمغول، وعرف المهجرون الأويغور إلى منطقة إيلي باسم «التارنجي» أي: المزارعون في تلك الفترة، وصنفهم شنغ شيه تساي قومية مستقلة ضمن القوميات الأربع عشر، وفرق بين هؤلاء التارنجي وهم من أصل الأويغور عن بقية الأويغور حتى يمنع وحدتهم السياسية.

والأويغور جميعا يشتركون في لغة واحدة ماعدا لهجات محلية مختلفة بسيطة، كما تكتب بالأحرف العربية التي تناسب معها من أي لغة تركية أخرى، لذا لم تتأثر بالحركة التي قام كمال أتاتورك في تركيا أو التطور الذي حدث في الاتحاد السوفياتي في ٢٠-٣٠ القرن العشرين الماضي لاستعمال حروف مستمدة من اللاتينية والسلافية، بيد أنه كانت هناك بعض الاقتراحات البسيطة في الأحرف العربية منها الأحرف الصوتية مقترحين أن تكتب كلها كما تلفظ، واقتراح آخر أن تكتب اللغة كما تنطق بها، ولكن ذلك واجه مشكلة الانفاق على اللهجة التي تكون معيارا واحدا ومستعملا بين الجميع.

واللغة الأويغورية هي أحد مظاهر وحدتهم، مع أن جميع السكان يعتمدون على الزراعة والمهن الأخرى، ولكن يستثنى منهم الدولان الذين يعيشون على الرعي على طول نهري تاريم وباركند، وقد يكون هؤلاء ظهر من الاندماج مع آخر، مع أنهم يتكلمون الأويغورية، إلا أن أصلهم يعود إلى قبيلة القبجاق أحد قبائل القازاق الوسطى (وينتسب قازاق سنكيانغ إلى القبائل الشرقية) ولكن يكتنف قرابة الدولان بهم غموضا، لأن نسائهم يضعن غطاء مميز على رؤوسهن مثل التي تستعملها نساء القييرغيز، ولا تزال هناك جماعة صغيرة تتكلم الأويغورية الدارجة، وهم المعروفون باللوب (لوب ليق) الذين يعيشون في منطقة لوب نور، وتتميز حياتهم بالاعتماد على صيد السمك^[1].

[1] Katanov- Menges

ويعيش الأويغور في جماعات متناثرة بين الحقول أو في المنازل على طول شوارع ضيقة في الواحات أو المدن، وتتكون منازلهم عادة من غرف مبنية باللبن حول فناء مفتوح، وفي الصيف يقضون معظم أوقات النهار في أسواق مفتوحة أو شوارع مظلة بالأشجار المشهورة.

ويشتهر الأويغور بالخمول وحب اللهو مع الهيام بالموسيقى والمسرح والأكل الجيد، وقد لاحظ الرحالة ماركو بولو اهتمامهم الشديد بالأمور الجنسية والطلاق من الأمور السهلة، والقروض المؤقتة شائعة، ونظام الأسرة غير مستقر بين الشعوب التي تدين بالإسلام.

ويتفاوت التأثير الديني على السكان، ويتقلد رجال الدين أهم المراكز في الحياة الإسلامية، والتي توارثوها من أجيال طويلة، وينتسب معظمهم إلى الملاك الإقطاعيين والموظفين الذين يسيطرون على المجتمع الأويغوري، وغير مستغرب على الطبقة العليا غيرتهم على الإسلام، وأما الطبقات الفقيرة يختلفون في حماسهم الديني واحترام رجال الدين، ويقول مثلهم: (افعل ما يقوله العالم ولا تفعل عمله).

وتؤكد العلاقة الوثيقة بين الطبقة العليا ورجال الدين على أهمية الدين والفنون الأدبية التي تتضمن مواضيع دينية وأخلاقية، والأدب الأويغوري الماضي والحاضر يؤكد دور الدين في مقاومة الأويغور لاضطهاد الصينيين والحكام الأوائل لهم.

٢- القوميات الأخرى ذات الأقليم الخاص:

◀ القازاق:

ويبلغ عدد القازاق في سنكيانغ رسمياً ٣١٨٧١٦ نسمة، ويتصلون تاريخياً بشعب جمهورية قازاقستان السوفياتية في الاتحاد السوفياتي، وقد ظهر شعب

القازاق حديثا في التاريخ، وكان في الأصل من الأولوس Ulus أو من عائلة جغتاي أحد أبناء جنكيز خان، ثم أصبح جزءا من خانية أوزبك أحد حلفاء اولوس أو جزء من مملكة جوجي أصغر أبناء جنكيز خان التي يسميها الروس القبيلة الذهبية، وقد عانت خانية الأوزبك الانقسامات المستمرة بين زعماء القبائل والسلاطين، وفي منتصف القرن الخامس عشر غادر سلطانان من قبيلة باراك التي كانت من آوى معارضي الخان أبو الخير حاكم خانية الأوزبك، وانتقلا إلى خانية مغولستان المجاورة مع قبيلتيهما، وكان خان المغول يحكم المنطقة التي تمتد من شرق تاشكند إلى جونغاريا، وكانا يأملان أن يتخذهما حلفاء ضد منافسه خان الأوزبك، ووضعهم على طول الأراضي الرعوية الممتدة من شمال نهر جو إلى غرب نهر ساري سو، وهذا التحول لهذه المجموعة الصغيرة إلى وحدة وطنية وسياسية لم تكتمل حتى نهاية القرن الخامس عشر، عندما غزا الأوزبك ألواح الجنوب لآسيا الداخلية، ومن خلال حياتهم الوثيقة مع سكان ألواح المستقرين تغيرت حياتهم الرعوية، وفي هذا الوقت انفصل عدد من القبائل عن حانية الأوزبك وبقيت في السهوب الشمالية، منضمين إلى القازاق الذين تحركت حدودهم نحو الغرب إلى ما يعرف اليوم بسهوب القازاق. والقازاق من أصول قبلية مختلفة عرقت بالقازاق الذي يعني «الهارب أو الرجل الحر الذي عزل نفسه من قبيلته»، وبتحريف هذا الاسم حسب صوتيات اللغة السلافية إلى «كوساق Cossacks» استعمله الروس والأوكرانيون والبولنديون ومن ذلك «الروس الكوساق».

وفي القرن السادس عشر انقسمت خانية القازاق التي أسست حديثا إلى ثلاث دول في ائتلاف فضفاض نادر ما اتحدت تحت ضغط الحرب، وانهار اتحادهم السابق جاء نتيجة اغتناء القازاق من غزواتهم لبعض ألواح الجنوبية عند الأوزبك في القرن السادس عشر، مما دفع بعض سلاطين القبائل على عدم الاعتماد على الخان في الشؤون الاقتصادية والسياسية، ومن هذه الدول الثلاثة،

كانت «الدولة القديمة Old Horde» التي وصلت أراضي مراعيها شرقا إلى الحدود السوفياتية — الصينية في سنكيانغ.

وخلال القرنين ١٨ و ١٩ تمكن الروس من التسلل إلى أراضي القازاق ومع نهاية القرن التاسع عشر وقعت أراضي الدول الثلاثة فريسة الاستعمار الروسي، ما عدا الجزء الشرقي من الدولة القديمة الذي كان تحت سيطرة الصين، وحتى بعد رسم الحدود بين شعب القازاق في الغرب والمجموعة الصغيرة في الأراضي الصينية، وتعرضت المنطقة لكثير من التطورات التاريخية ولكن الرعاة بطبيعتهم لا يراعون لهذه الحدود التي شقت أراضيهم القبلي وهم يتنقلون عبرها ذهابا وإيابا.

وأراضي القازاق الرعوية في سنكيانغ تقع على طول الحدود بين سنكيانغ وجمهورية قازاقستان السوفياتية الاشتراكية، وبين سنكيانغ وجمهورية منغوليا الشعبية، من نهري تكس وكونغوز في منطقة إيلي إلى الشمال الشرقي في منطقة جوكوجاك، ومنها إلى الجنوب الشرقي على طول التاي المغولية، وهناك أيضا القازاق في الجانب الآخر من الحدود تحت سيادة جمهورية منغوليا الشعبية.

والقازاق قبائل رعوية ترعى الأغنام والماعز والمواشي والخيول والجمال، ويسكنون في الخيام من اللباد في الصيف، ولكن معظم القازاق في أكواخ طينية في الشتاء أو صناديق خشبية في المناطق الجبلية، وتعتبر الأغنام والماعز السلعة الاقتصادية، ويستخدمونها وحدات في تبادل السلع، ويعتمد الفقراء منهم على الحليب والجبن أكثر من اعتمادهم على اللحم، وأما الأغنياء وملاك القطعان يأكلون اللحم كثيرا، ويدمغون جلود الماعز ويستعملونها مع الصوف في إعداد الملابس، وأما الأقمشة القطنية تستعمل للألبسة الخفيفة أو تلبس الملابس الجلدية، ويحصلون عليها من التجارة، كما يستعمل اللباد لتغطية سقوف الخيام المستديرة.

ويحتل الخيل أهمية خاصة عندهم، وبالأخص أيام الحرب، وقد نال التكريم في أغاني القازاق الشعبية لجماله وشجاعته وإخلاصه، ويحتفظ الغني منهم بقطعان من الخيل، وبخاصة الفرس حتى يتمكن من الاستفادة من حليبيها لصنع مشروبه المخمر «القوميز».

ومثل جميع رعاة آسيا الداخلية يعرف القازاق أصول الزراعة، ويستأجر الأغنياء منهم الأويغور أو الصينيين لزراعة الحبوب لهم في الأراضي المناسبة، وأما الفقراء منهم الذين لا يملكون قطعانا كبيرة من الأنعام يؤجرونها للأغنياء في الصيف، ويعملون هم في الزراعة وجمع الأعلاف للمواشي وتخزينها.

ومثل الرعاة الآخرين لا يتجول القازاق في السهول بحرية؛ ذلك لأن المراعي الصيفية تخص مجموعة من الأسر ضمن عشيرة ينتسب أفرادها إلى جد واحد، وهذه المراعي تقع ضمن أراضي واسعة حددتها سلطة عليا مثل القبيلة، وأما المراكز الشتوية تخص عادة عائلة واحدة غالبا ما تكون عائلة كبيرة عاش أفرادها معا، والهجرات الرئيسة تكون في الربيع من المراكز الشتوية إلى المراعي الصيفية، وفي الخريف من المراعي الصيفية إلى المراكز الشتوية، وأخطر الهجرات في الربيع عندما تكون القطعان ضعيفة بعد شتاء قارس، وعند ما يحل مواسم ولادة النعاج، وعند ما تهب العواصف في الربيع ويتسبب في تلف كبير.

وإيجاد المراكز الشتوية الجيدة أكثر صعوبة من إيجاد المراعي الصيفية؛ لأنه في الشتاء يجب أن تكون الملاجئ والطعام في متناول اليد، وتوفر المراكز الشتوية والمراعي الصيفية المناسبة تقرران مقدار السكان التي تستوعبها منطقة القبيلة، وأما العائلات الغنية تستخدم القوى السياسية الحاكمة في العشيرة أو القبيلة لاختيار أجدود المناطق الرعوية.

وبالرغم مما يحدث في المراكز الشتوية من الاضطرابات بين العشائر

والقبائل، ويحدث أيضا في المقابل في الأراضي الزراعية الجيدة مشاكل بين القازاق والمغول والأويغور المستوطنين والمزارعين الصينيين.

والتطور الاقتصادي لقازاق سنكيانغ وقازاق الروس لم تتم إلا بعد قيام الثورة السوفياتية، ولم يتحسن الاقتصادي الرعوي لقازاق سنكيانغ كثيرا؛ لأن السلطات الصينية دعت الأويغور والصينيين للاستيطان في مناطقهم، وأما في الناحية السوفياتية من الحدود فقد تعدل الاقتصادي القبلي التقليدي كثيرا؛ لأن «التجمع العشائري» تم توجيهه إلى «التجمع الاشتراكي»، فالمراكز الشتوية والمراعي الصيفية تحولت إلى التجمع الاشتراكي، ولم تكن بالضرورة ترتبط إلى منسوبي العشائر، وقد تحسن سلالة الأنعام وتحسين الزراعة التي ترتبط بالاقتصاد الرعوي، بالإضافة إلى إدخال التصنيع في كل المجالات مثل مناجم الفحم والنحاس، وفي مناجم الفحم خاصة تم تشغيل عدد كبير من العمال القازاق، وقد أدى هذا التطور في الصناعة والزراعة وتربية الحيوانات إلى فتح فرص التعليم العالي والتدريب التقني.

وتتفرع لغة القازاق من مجموعة اللغات التركية للأسرة الألتائية، وهي ذات صلة وثيقة باللغات التركية في آسيا الداخلية والتركية العثمانية، ولغة قازاق سنكيانغ والسوفيات متماثلة تماما، وكان الأمية منتشرة بينهم في كلا الطرفين قبل الثورة الشيوعية، وكان المتعلمون قليلين، يوجدون في الطبقات العليا ورجال الدين، ويستعملون الأبجدية العربية التي لا تتناسب لأصول النطق في اللغات التركية، ولكن بعد الثورة البلشفية فرض عليهم استعمال الأبجدية اللاتينية مع حروف خاصة، ثم حل مكانها الأبجدية السلافية عام ١٩٤٠م، التي جاءت أيضا بحروف معدلة خاصة أيضا، وكانت مكافحة الأمية بطيئة في السنوات الأولى من النظام الشيوعي، وفي عام ١٩٣١م كان لا يزال ٧٧٪ من القازاق أميين، ثم حدثت تغيرات سريعة صاحبة العمليات الجكاعية فكان ٧٦٪ منهم أميا في عام ١٩٣٩م.

ولم يتحول أكثر القازاق إلى الإسلام إلا في القرن السابع عشر الميلادي، ولم يلاحظ عليهم قبل ذلك تمسك كثير منهم بأحكام الإسلام في حياتهم اليومية، إذ لم تحتجب النساء أو تعتزل؛ لأن الحياة الرعوية تتطلب الأعمال التي يعيقها الحجاب، والرجال والنساء الآن يختلطون في كثير من الأعمال التي تتم في المعسكر، بالإضافة إلى جهلهم التام بتفاصيل الواجبات الإسلامية، ما عدا الامتناع عن أكل لحم الخنزير، ولا يلتزم كثير منهم بالصلوات والصوم وبالتالي يهملون ختان الأبناء.

◀ القيرغيز :

فقد كان هناك اختلاف ملحوظ على استعمال اسم القيرغيز، وأطلق الروس اسم «القيرغيز» (رغبة من الابتعاد من تداخل الأسماء مع القوازق الروس)، على كل من القازاق والقيرغيز معا، مع تمييز بينهما بإضافة «قرا- أسود» على القيرغيز الأصليين، و«اق- ابيض» على القازاق وسموهم «اق قيرغيز»، واستعمل هذا التمييز بينهما عند ما كان ذلك ضروريا، وأما في التعابير اليومية فكلا الشعبين يعرفون بالقيرغيز، ولكن مع ظهور مناطق الحكم الذاتي لكلا الشعبين منفصلين في الاتحاد السوفياتي ظهر الاختلاف جليا بين القيرغيز والقازاق، والقيرغيز مثل القازاق ينقسمون اليوم بحكم الحدود بين القيرغيز في سنكيانغ بالصين وجمهورية قيرغيزستان السوفياتية في الاتحاد السوفياتي، وحتى عصر الثورة السوفياتية كان التطور التاريخي لهم في كلا الجانبين من الحدود الصيني والروسي واحد تماما، ثم بظهور جمهورية قيرغيزستان الاشتراكية السوفياتية بدء تطور الشعب القيرغيزي في الجانبين من الحدود سريعا ومتنوعا، وبينما نظم الروس القيرغيز ضمن جماعات منظمة ونال درجة عالية من الثقافة والسياسة الذاتية إلى حد ما، فقد استمر قيرغيز سنكيانغ في حياتهم التقليدية.

وكان وطن القيرغيز الأصلي هو أعالي نهر ينسي، وتشير مصادر الصين القديمة إليهم باسم «جين-جون Chien-chun» حتى بداية القرن المسيحي، وأما الاسم القبلي أو العشائري «بوروت Burut» يبدو أنه استعمل على العنصر الشمالي، ويشير إلى علاقاتهم مع أجداد قبائل بوروت المغولية، وفي عام ٨٤٠ م. تمكن القيرغيز من هزيمة الأويغور في منغوليا مما دفع الأويغور على الهجرة جنوبا إلى سنكيانغ، ثم جاءت هزيمتهم من قبل قراختاي في القرن العاشر، وعاد قسم منهم إلى بلادهم القديم حوض نهر ينسي بينما تحرك القسم الآخر في هجرات تدريجية نحو الجنوب حيث يقيمون اليوم، وجاء ذكرهم في المصادر التركية في القرن السادس عشر، واستعمرهم الروس مع القازاق في القرن التاسع عشر، ما عدا أولئك المقيمون تحت السيادة الصينية المانشورية.

ويصل تعداد قيرغيز سنكيانغ الرسمي إلى ٢٤٨ ٦٥ نسمة، وهو شعب جبلي مثل أولئك الذين يقيمون على الجانب الآخر من الحدود في جمهورية قيرغيزستان، ومنتشرون من وادي تكس في تيان شان إلى آقسو في الشرق، وعلى طول الحدود الجبلية الغربية بين سنكيانغ وروسيا إلى جبال بامير وقراقورام.

والقيرغيز مثل القازاق قبائل رعوية ولكنها جبلية، في حين أن القازاق قبائل سهلية تقضي فصل الشتاء على حواف سفوح الجبال، ولعوائل خاصة مراكز شتوية، فالقيرغيز يؤسسون مراكزهم الشتوية على ضفاف الأنهار، ويشترك فيها جميع أفراد العشيرة، ويختلفون عن القازاق بأن مراعيهم الصيفية على سفوح الجبال، وتتحرك كل عشيرة بحرية بين المراكز الشتوية والمراعي الصيفية في المرتفعات، ولكن ضمن منطقة محدودة لكل عشيرة؛ لوجود عشائر أخرى في الوديان المجاورة، ويقوم اقتصادهم على منتوجات المواشي بشكل عام مثل القازاق تماما، ولكنهم يملكون الكثير من المواشي ذات القرون، والياك وهو حيوان مدرب على الرحلات الجبلية، والقيرغيز أقل غناء من القازاق من الناحية الحيوانية، ولكنهم أكثر خبرة في الزراعة والري.

وتتنمي لغة القيرغيز إلى اللغة الجغتائية التركية والأويغورية أكثر من القازاقية، ويتكلم قيرغيز السوفيات نفس اللغة في الجهة الأخرى من الحدود، والقيرغيز في سنكيانغ أميون، ويكتبون لغتهم بالأبجدية العربية فقط، وبينما هبط نسبة الأميين بين قيرغيز السوفيات لاستعمالهم الأبجدية القيرغيزية الحديثة المشتقة أصلا من الأبجدية اللاتينية، ثم حل مكانها الأبجدية السلافية.

والقيرغيز مثل القازاق مسلمون اسما مع تمسكهم الشديد ببعض المظاهر الشامانية، وقد وصفهم رادلوف Radlov منذ قرن بأنهم يعتبرون أنفسهم مسلمون مثاليون، وهم أقل تسامحا مع غير المسلمين من القازاق، ويمكن تلمس هذه الحقيقة في الأدب الفلكوري حيث يكون دور الحرب ضد الكفار ذات أهمية كبيرة.

◀ المغول:

يبلغ تعداد المغول في سنكيانغ ٦٣٠٠٠ نسمة تقريبا، ويتشرون تماما في نواحي المقاطعة، وأما تمر كزهم الأكبر فهو في منطقتي جو كوجاك وإيلي، حيث يصل تعدادهم في كل منها ٢٥ ألف نسمة تقريبا، وتقيم مجموعة أخرى تقدر بحوالي ١٣ ألف نسمة في الأراضي المرتفعة في منطقة قراشهر، وهناك قلة منهم في الشمال الشرقي على طول الحدود بين سنكيانغ وجمهورية منغوليا الشعبية، وآخرون يتشرون في الجزء الشمالي للمقاطعة.

وتقع أكثر المنطقة التي تشكل الأغلبية المغولية عند انتهاء الحدود الغربية لسنكيانغ مع جمهورية منغوليا الشعبية، ومع ذلك فهي لا تشكل إلا جزءا يسيرا من مجموع السكان، فيما المناطق التي يكثر فيها المغول مثل جو كوجاك وإيلي يسيطرها عليها القازاق.

وتشرح التغيرات التاريخية توزيع المغول الجغرافي في المنطقة، وينقسمون إلى ثلاثة جماعات قبلية:

١. المغول الغربيون وهم: أولوت stolO وتورغوت stugroT
وخوشوت tohsohK.

٢. المغول جاهار.

٣. اوريانغاي iahgnairU.

ولكن هذه الوحدات السياسية لا ترتبط ببعضها كثيرا، بل بين عشائرها، حيث نظم المغول ثلاثة أحلاف ومجموعتين خاصتين: حلف اونين سوسوكتو Unen Susuktu المكون من عشرة عشائر من تورغوت، ويتشرون على شكل واسع وتفصل عن بعضها الشعوب غير المغولية، وأهم مجموعة فيها تورغوت التي تقطن في تيان شان وفي نواحي قراشهر، وآخرون يسكنون السفوح الشمالية لتيان شان، والبعض الآخر على المنحدرات الجنوبية لجبال التاي.

حلف باتو ستخيلتو Bato Setkhiltu يتكون من ثلاث عشائر من خوشوت Khoshot في هضبة يولدوز في قلب تيان شان الوسطى.

حلف جينغ سفخيلتو Ching Setkhiltu ويضم ثلاث عشائر من خوشوت، وسبع من اوريانغاي، ويتمركز جميعهم في منطقة جو كوجاك — التائي.

وأما المجموعتان اللتان لم يضمهما الأحلاف فهما: جاهار الذين يعيشون في وادي بوروتالا Borotala في الطريق من اورومجي إلى غولجه؛ وأولوت Olot في وديان نهري تكس وكاش في منطقة إيلي، وهذا النظام المعقد من الأحلاف والعشائر تظهر فعالية السياسة التي تمارسها الدوائر المانشورية؛ لإضعاف الوحدات السياسية بين المغول.

وقد نقل الصينيون المغول جاهار من مراعيهم القديمة التي تعرف بمقاطعة جاهار من منغوليا الداخلية إلى جونغاريا بعد الغزو المانشوري في القرن الثامن عشر، ولأنهم غرباء ويصعب تعاملهم مع المغول الغربيين فقد وضعوهم إستراتيجيا للتحكم على الطريق الرئيس بين أورومجي وإيلي، وكذلك قبائل

اوريانغاي الذين يقال إنهم من المغول الغربيين في سنكيانغ كما يشير إليه اسمهم، فهم في الواقع ينتمون إلى قبائل تقطن منطقة اوريانغاي أطلق عليهم اسمها وتسمى الآن تانو توفان Tannu Tuva التي ضمت إلى الاتحاد السوفياتي أخيراً، وكانت لغتهم الأصلية التركية ثم تحولت إلى المغولية في القرن التاسع عشر .

وجميع مغول سنكيانغ من المغول الغربيين ينتمون من حيث اللغة والترابط التاريخي مع القبائل في منغوليا الخارجية (جمهورية منغوليا الشعبية) ومع مغول كوك نور أو جنغهاي Chinghai على الجهة الشمالية لهضبة التبت، أو بالقالموق على نهر فولغا السفلى في روسيا، والأصل أن المغول الغربيين عموماً هم من قبيلة تسمى اويرات Oirat التي هاجرت إلى سنكيانغ في القرن الرابع عشر من نهر انغارال Angaral الذي يجري من بحيرة بيكال إلى نهر ينسي، وتوجد عدة احتمالات تشير إلى انتماء أكثرية المغول الغربيين إلى سلالات القبائل التي كانت أصلاً قبائل جبلية، هاجرت فيما بعد إلى السهوب حيث تحولت إلى قبائل رعوية.

وقد كون المغول الغربيون اتحاداً فيدرالياً أخيراً، عرفت في المصادر الصينية باتحاد اويرات، ويعرف أيضاً باتحاد اولوت (الصيغة المغولية لرسم اولوت « Ughelot »).

وفي القرن السابع عشر حاول الجونغار^[1] وقد عرفت المنطقة باسمهم جونغاريا (يشكلون الجناح الأيسر لهذا الاتحاد) التسلط على بقية الاتحاد، ولم تخضع بقية قبائل الاتحاد وهم: قبائل تورغوت وخوشوت، وشقت طريقها نحو الغرب عبر الأراضي التركية حتى وصلت إلى نهر فولغا السفلى، حيث عرفت هناك باسم «القالموق» وهي مشتقة من الكلمة التركية التي تعني

[1] وفي اللغة المغولية المكتوبة جيغون غار jeghun gar تعني «اليد اليسرى» وترجمت بالجناح الأيسر، وفي المغولية اليسار يعني الشرق.

«الباقى»، وبعد ثمانين عاما أباد المانشور الجونغاريين تقريبا عند احتلالهم سنكيانغ، ودعا الإمبراطور المانشوري أولئك القالموق على العودة إلى مناطقهم السابقة فعاد بعضهم، ومنهم عشيرة تورغوت إلى سنكيانغ بينما بقي الآخرون في روسيا.

ويمثل مغول سنكيانغ في حياتهم الاقتصادية القازاق، وأما في التكوين الاجتماعي يتمتع الأمراء المغوليون بنفوذ أوسع وحقوق أعظم من سلاطين القازاق، ومن مظاهر هذا الاختلاف أن المغول الفقراء أكثر فقرا من فقراء القازاق، بالإضافة إلى أن اللاما (رجل الدين البوذي) يملك حق تكوين إقطاعية تسمى إقطاعية الكاهن، وكما أدى فرض الضرائب التي تدفع إلى الأمراء ورجال الدين وكان السبب الرئيسي على تدهور حياة المغول الاقتصادية بالنسبة إلى القازاق.

وحتى الثورة الصينية عام ١٩١١م كان أمراء المغول يتمتعون بحكم وإدارة مناطقهم وقبائلهم ذاتيا، وبعدها دعمت السلطات الصينية ذلك الوضع، وفي نفس الوقت زادت من السيطرة الصينية على الأمراء أنفسهم، وكان من هذه السياسة زوال الإقطاعية المغولية بالإضافة إلى تلاشي العداء ضد الصينيين.

وعملت الإدارة الصينية على زيادة الخلافات بين المغول والشعوب الأخرى، وفي عهد حكم يانغ تسنغ هسين Yang Tseng-hsin تم تسليح القازاق، ومنحهم حق الاستيطان في منطقة التاي؛ كي يتم عزل مغول سنكيانغ عن ثورة إخوانهم المغول في جمهورية منغوليا الشعبية، ومن جهة أخرى تم تسليح مغول تورغوت قراشهر المنعزلين جغرافيا عن المغول الآخرين؛ بسبب أنهم المتجاورون مع الأكثرية القازاقية، وتجهزهم بسلح الفرسان المتطور وتدريبهم من طرف القوازق الروس المهاجرين من سيبيريا بعد الثورة الروسية، وأما الآن مع تزايد القومية والثورة الوطنية في سنكيانغ بدء بعض المغول

والقازاق يتعاونون معا في قضايا عامة، وتدفتت وفود من المغول والقازاق لمساعدة حكومة ثورة غولجه الائتلافية ونظامها، وأما أكثر العناصر الثورية من مغول سنكيانغ يتطلعون لعلاقات أكثر مع جمهورية منغوليا الشعبية، ولا توجد دلائل على وجود شخصيات وطنية مغولية بين زعماء سنكيانغ الوطنيين.

◀ الإيرانيون: (ساري كول- تاجيك):

في أقصى الركن الجنوب الغربي من سنكيانغ تقطن مجموعة من الناس الذين يتكلمون اللغة الإيرانية، ويتمركزون في وادي ساري كول وتاشقورغان ويشكلون الأكثرية السكانية فيها، ويتواجدون بقلة في المناطق المجاورة، ويقدر عددهم ٨٠٠ ٨ نسمة، ويوصفون عادة بشعب ساري كول، ولكن الحاكم شنغ شيه تساي صنفهم بالتاجيك ضمن قائمة شعوب سنكيانغ، كما أن الباحثين الروس الحاليين يسمونهم أيضا تاجيك، ولكن ليس من الواضح أي منهم اقتبس التصنيف من الآخر.

ويقع وادي ساري كول حيث تتقابل الحدود الروسية والصينية والأفغانية، ولكن هذه الحدود لم يتم رسمها بشكل رسمي، وقد كانت مشار النزاع في الماضي، ولعلها تكون منطقة اضطراب مرة أخرى.

وشعب ساري كول مستاء جدا من الحكم الصيني الذي يستعمل الرجال والحيوانات بدون مقابل أو لقاء ثمن زهيد، حتى يبقى الطريق الجبلي المرتفع بين سنكيانغ والهند مفتوحا يستعملها المسافرون الرسميون والتجار، وقد أدى ذلك إلى زيادة الاستياء ومحاولات الانفصال عن الحكم الصيني، ولكن لا يبدو واضحا لمن يرغبون الانضمام إليهم من الشعوب المجاورة.

وهناك لغتان إيرانيتان في المناطق المجاورة، أحدهما لهجة بامبير المتداولة في وادي واخان في أفغانستان، والأخرى هي التاجيكية في منطقة بدخشان الجبلية الذاتية في جمهورية تاجيكستان السوفياتية المجاورة، وهذا السؤال

الهام: ما إذا كان شعب ساري كول يتكلم التاجيكية أو لهجة بامير الإيرانية؟ ولا يوجد جواب واضح.

ويقول كرنارد Grenard: أن شعب ساري كول هم من بقايا سكان خوتن القدماء الذين وجدت وثائقهم مكتوبة في لغة ساكا من اللغات الهندو-أوروبية في الفترة من ٤٠٠-٢٠٠ ق.م. وفي المصادر الصينية لعائلة تانغ المالكة ذكر أن شعب ساري كول يشبه في مظهره الخارجي ولغته سكان خوتن، وفي ذلك الوقت كانت ديانتهم البوذية ولهم ما لا يقل عن عشرة معابد في مملكتهم الصغيرة، ويرجع أول غزو صيني لها إلى عهد عائلة تانغ التي أسست فيها مركزا عسكريا حتى نهاية الاحتلال العسكري الصيني لآسيا الوسطى.

وقد تحول الشعب تدريجيا إلى الإسلام واعتنق المذهب الإسماعيلي الذي يعترف بزعامة آغا خان ومقره في مومباي، وأما من الناحية الثقافية فهو أميٌّ تماما، ومازالت لغتهم غير مكتوبة.

ويعيش معظم الناس مستقرين يعملون في الزراعة، بالرغم أن وادي ساري كول لا ينخفض أبدا عن عشرة آلاف قدم عن سطح البحر، ويزاولون الري، ومحصولهم الرئيس الشوفان والشعير والليغوم Legumes، وعلى الرغم أن الأوضاع صعبة إلا أن الأراضي تبدو أنها تستطيع استيعاب سكان أكثر من الحاليين.

وفي عهد عائلة تانغ كان من السكان خمسة آلاف راهب وقوة عسكرية لا تقل عن ألف رجل، ولكن في القرن الماضي هبط عدد السكان بسبب غارات عصابات تجار العبيد من شعوب شمال الهند في الفترة قبل وبعد حكم يعقوب بك.

وأما في الوقت الحاضر يعيش السكان بجوار قبائل القيرغيز الرعوية، وتبدو العلاقة بينهما ودية، ومن جهة ثانية فإن علاقة سكان تاشقورغان مع الحكومة

الصينية عدائية خاصة في السنوات الأخيرة، وقد تكونت هيئة عرفت بـ «جماعة الخيام الحمر» من القيرغيز والإيرانيين، توحدت جهودهم في مقاومة حكومة المقاطعة الصينية وناصرت نظام ثوار غولجه، ولا يمكن التأكيد من أن هيئة الجماعة قررت الجدية في سياستها.

٣- قوميات بدون مناطق أساسية لها

◀ الصينيون:

من الملاحظ في سنكيانغ وهي مقاطعة صينية لا توجد فيها منطقة معروفة بالأكثرية الصينية، مع أن السياسة الصينية تخللتها منذ القرن الثاني قبل الميلاد، ووجد الصينيون ضمن مجموعة الشعوب المتناثرة في المقاطعة، ولا يشكلون مستوطنين أصليين أو أغلبية سكانية في مساحة من الأراضي، وفي الفترات ما بين قدومهم وبقائهم أقلية أجنبية عاد كثير منهم إلى بلادهم، كما اختفى بعضهم في مذابح هم في الغالب سبب حدوثها بسبب سوء حكمهم.

وفي النصف الثاني من القرن الماضي هرب الصينيون تقريبا بسبب اندلاع الثورات الوطنية التي هزت كل الجزء الشمال الغربي للإمبراطورية المانشورية، ثم بدء قدومهم بعد ذلك، وبالإستثناء من المنفيين المجرمين الذين ترسلهم حكومة المانشور من الصين إلى سنكيانغ أبان حكمهم.

ينقسم الصينيون القادمون إليها في الفترات الأخيرة حسب ارتباط المقاطعة بالتاريخ السياسي:

الهُونانيون، وجماعة من وادي يانغتسي Yangtze السفلى ويشكلون طبقة البيروقراطيين منذ وقت طويل، وجماعة من ولاية تينتسين Tientsin ويحتلون مراكز هامة في التجارة، وهناك رجال من شانسي Shansi يزاولون قيادة القوافل التي تحمل البضائع بين منغوليا وسنكيانغ وشمال الصين، وأما مقاطعة كانسو

فقد أتى منها المزارعون.

وعندما دخل المقاطعة تسوتونغ تانغ Tso Tung-tang القائد من هونان الذي خدم المانشور في قمع ثورة التابين Taiping قضى على ثورة المسلمين في سنكيانغ بقوات أغلبهم من الهونانيين، وبقي كثير منهم فيها بعد العمليات العسكرية، وأصبح بعضهم ملاكا للأراضي، وموظفين في حكومة المقاطعة، حيث مارس الهونانيون نفوذا قويا مسيطرا، حتى قيل إن سنكيانغ مستعمرة هونانية.

كما جاءت معه أعداد كبيرة من تجار تينتسين Tientsin الذين يعملون في التجارة مع الجنود في الطريق، ثم استقر بهم الحال في سنكيانغ، والتحق بهم ذويهم فيما بعد، وهكذا ظهر تجار تينتسين في جميع المراكز المدنية فيها.

وخلال حكم يانغ تسنغ هسين Yang Tseng-hsin الذي استمر إلى ما بعد الثورة الصينية في عام ١٩١١م استقدم زملاء له من يونان؛ لدعم مركزه في سنكيانغ، كما دخلها قلة من الصينيين من مقاطعة كانسو خلال حكم تشن شو جين Chin Shu-jin فيها وأخيرا دخل سنكيانغ عشرة آلاف جندي صيني من مانشوريا خلال تراجعهم من القوات اليابانية في سيبيريا، وسمح لهم السوفيات بدخولهم بعد ما تولى شتغ شيه تساي المانشوري الأصل حكم سنكيانغ، وبعد ذلك قدم اللاجئون الفارون من مجاعة هونان Honan عام ١٩٤٤م، وأسكنتهم الحكومة الصينية المركزية في مناطق نزعت من القازاق.

وبالإضافة إلى ما ذكر أعلاه من المعلومات توجد جماعات صينية أخرى، منهم الذي يتميزون بعقيدتهم الإسلامية أسكنهم الإمبراطور جين لونغ Chien Lung في سنكيانغ بعد أن قضى على المغول الجونغاريين في القرن الثامن عشر، ثم قدمت جماعات صينية مسلمة بعد ثورتهم الشاملة في شمال غرب الصين ويعرفون باسم «الدونكان Dungan» وباللفظ الصيني T`ung-kan»

وأكثرهم من مقاطعة كانسو وآخرون من مقاطعات نينغشيا وشانسي، والعامل الديني مهم جدا في التمييز بين المسلمين الصينيين والصينيين غير المسلمين، وهما يعتبران شعبين متميزين كما هو في تصنيف شنغ شيه تساي، وعادة غير المسلمين منهم يعرفون بالهان Han ويعرف المسلمون الصينيون باسم «خوي Hui»، ويبلغ تعداد الأول ٢٠٢ ألف نسمة والآخر ٩٢ ألف نسمة.

أما الاسم «خوي» فهو مختصر من الاسم «خوي-خوي Hui-hui وهو مشتق من الاسم القديم للأويغور، إلا أنه يطلق على جميع المسلمين في الصين، وأما «دونكان» فهو اسم استعمله الروس في عهد القياصرة على مسلمي الصين، وما زالت الكتب السوفياتية تستعمله على المسلمين الصينيين المستوطنين في جمهوريتي قازاقستان وقيرغيزستان، وهو اسم من أصل تركي ولكن معناه غير واضح، وقد يعني «العائد»، ويتأكد هذا المعنى من الأدب الشعبي أن الصينيين المسلمين هم أحفاد القوات التي دخلت الصين واستوطنتها وتزوجت من نساء صينيات، وعند ما عاد هؤلاء إلى الغرب في سنكيانغ في القرن الثامن عشر سموهم العائدون «دونكان» لأوطانهم الأصلية.

ومثل بقية الصينيين يتواجد هؤلاء المسلمون الصينيون في كثير من المدن في سنكيانغ، ولكن بشكل أكثر في المدن الشمالية من المقاطعة وهم يزاولون تجارة القوافل ويديرون الخانات ويعملون في القوات المسلحة وبعضهم أصحاب العقار.

ويحتكر الصينيون غير المسلمين إدارة المقاطعة وهم من الطبقة البيروقراطية المسيطرة، ولكن جزء من طبقة الحكام الصينيين في سنكيانغ غير متعلمة، وترتفع نسبة الأمية خاصة بين المسلمين الصينيين، وبواعثهم للتعليم هو نيل القدرة على قراءة القرآن الكريم بالعربي فقط، ويظهر أن تعاليم الإسلام أقل تأثيرا بين النساء المسلمات الصينيات، والنساء المسلمات عموما في سنكيانغ

أكثر تحررا من أخواتهن في البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط، فمثلا لا ينتشر الحجاب بينهن كثيرا.

وأهم مظهر للإسلام بين الصينيين هي القوة السياسية التي توحد عموم المسلمين ضد الصينيين غير المسلمين، فالمجتمع الصيني المسلم قوي في علاقته بالسلطة الدينية، وبالإخلاص القبلي أكثر مما هو في المجتمع الصيني غير المسلم، والقاعدة أن الأفراد الأغنياء في القبيلة يتحملون مسؤولية مساعدة أقربائهم الفقراء لإظهار عنايتهم مما يؤدي إلى سلطتهم في المجتمع المسلم الصيني، شعورا بأنهم أقلية يجب أن تكون متماسكة الأعضاء، بينما يعتبر الصينيون غير المسلمين أن ما يقدمونه هو تكرم دوما وليس من واجب الضمير، وفي الحرب الأهلية وثورة الفلاحين يقوم القائد المسلم لجيشه عادة بالجمع بين النظام الحربي والولاء الجماعي، وهم في الواقع ليسوا جنودا وقوادا، بل رؤساء قبائل يتعاملون مع أفراد قبائلهم، وحتى في فترات انتشار ثورة الفلاحين يتمكن زعماء جماعات المسلمين الصينيين من قيادة الفلاحين المسلمين ضد الفلاحين وملاك الأراضي غير المسلمين.

وغالبا ما تبدأ ثورة الفلاحين المسلمين يستغلها ملاك الأراضي المسلمين فتتحول إلى حركة عارمة تشمل كل المجتمع المسلم تكتسح الوحدات غير المسلمة فيمنع تسلل دعاة الوطنية الصينية أو دعاة الثورة الشيوعية.

والعامل اللاديني الرئيس في التعاون الحربي بين طائفتي الصينيين في سنكيانغ وبصرف النظر عن الواجب الإسلامي في توثيق العلاقات مع المسلمين الصينيين يتضح من فشلهم في تأسيس تحالف أكثر من مؤقت مع إخوتهم في العقيدة من القوميات الأخرى، وخلال الثورة الكبرى في الربع الثالث من القرن الماضي استعان المسلمون الصينيون برهة بإخوتهم في العقيدة من الأويغور والقرغيز ضد النظام الصيني - المانشوري، وفجأة حدث النزاع مع الأويغور

رفقائهم في السلاح، ومع تلاشي الثورة أبادتهم القوات الإمبراطورية تماما، كما أن في الثورات في أوائل عام ١٩٣٠م، ظهرت فيها نفس مظاهر التحالف الأولي، ثم وقع الانفصال بين الأويغور والمسلمين الصينيين.

وهذه الأمثلة تشير بوضوح على عدم أهمية العلاقات الدينية بين المسلمين الصينيين وغيرهم ممن يشتركون معهم في العقيدة في سنكيانغ. والعلاقات الودية التي تطورت فيما بعد في ثلاثينات القرن العشرين بين المسلمين الصينيين والصينيين غير المسلمين توضح أنهما تحت ظروف معينة يتمكنان من معالجة اختلافاتهما لعمل مهم.

يظهر مما مر أن السكان الصينيين في سنكيانغ يواجهون احتمالين من التطور: أحدهما يتمركز على المفهوم الديني للمصالح المختلفة حتى تتطور نتائجها في تكوين قوميتين منفصلتين. والثاني: أن يتم إخضاع اختلافاتها إلى الدرجة التي لا يكون الدين عائقا لقومية مشتركة كما هو في شعوب أمريكا والإنجليز وغيرهما.

وفي الماضي عندما كان تشتعل الثورة بين المسلمين الصينيين وغير المسلمين في سنكيانغ كانت التعزيزات تصلهم من خارج المقاطعة، وفي كل ثورة كانت الجماعات المسلمة من كانسو ونيغشيا وجنغهاي (كوكونور) تغزو سنكيانغ، ويلتحق بهم المسلمون الصينيون من سنكيانغ، وهم يساعدونهم ليس لأنهم إخوة في الدين، بل كأنهم أقرباء، ويقاتلون الصينيون غير المسلمين معا ويذبحون الجماعة كلها، وإذا تلقى غير المسلمين التعزيزات فهم لا يقلون وحشية عنهم في اضطهاد الدونكان، ومن ذلك ما قامت قوات الجنرال تسو تسونغ تانغ Tso Tsung-t'ang بأكبر عملية لسفك دماء المسلمين الصينيين، ومذابح جماعية حيث ذبح النساء والأطفال والرجال؛ لأنهم لم تكن في نظرهم ثوار سياسيين فحسب بل خونة؛ لأنهم صينيون متحولون إلى الإسلام، بينما تم

معاملة الأويغور ثوارا سياسيين.

وبعد نهاية الحرب اليابانية- الصينية كانت التعزيزات العسكرية المرسلة إلى سنكيانغ تضم جنودا غير مسلمين مع وجود فرقة من الفرسان المسلمين على الحدود المتاخمة لجمهورية منغوليا الشعبية، في منطقة بايتيك بوغدا Baitik Bogda المتنازعة عليها، وأما زعماء الحرب المسلمين في الشمال الغربي فقد انهمك أكثرهم على منع التسرب الشيوعي إلى مناطقهم، والعمل في نفس الوقت على زيادة نفوذهم لبط الحكم الذاتي، وإن لم يكن ذلك قويا يمنع الحكومة المركزية من إرسال القوات، أو جمع الضرائب، كما أن قواتهم غير كافية للمغامرة بالاستقلال في سنكيانغ، ولكن حكومة الصين الوطنية في المقابل فقدت سلطتها على المسلمين في شمال غرب الصين الإسلامي نجحت في السيطرة عليهم في سنكيانغ، حيث لعبت على التعصب الاجتماعي القومي لمسلمي الصين، ونجحت في النهاية على إثارتهم ضد القومية التركية، وخاصة ضد ثوار غولجه (الائتلاف القومي).

وقوات حكومة الصين الوطنية التي يقدر عددها أكثر من مائة ألف جندي مدرب تدريباً جيداً، ومجهز بالأسلحة الأمريكية، ويدعمها المسلمون الصينيون، لم تتمكن من تحقيق فرض سيطرة الصينيين غير المسلمين على كل سنكيانغ في السنوات الأخيرة لحكم الكومنتانغ Kuomintang، ومع أن قواتهم كانت قوة رادعة ضد أي عصيان مسلح، ولكن لم تكن قوة كافية لسحق الوطنية التي تزايد انتشارها في كل المقاطعة، والقرارات السياسية والحربية يمارسها الموظفون الصينيون الكبار، ولم يكن أي واحد منهم من مواطني المقاطعة، ولا يشتغل هؤلاء في الدفاع عن المهام المناط بهم، ولكن في الأغلب لكسب منافع شخصية جديدة.

وفي هذا الوضع يتضح أن من أهم مظاهر التفكير لطبقة البيروقراطيين في

عادتهم، الذي ينسب للموظفين المتكلمين باللغة الإنجليزية لشعوب غير صينية للمقاطعة الذين هم مواطنون أصلاء، أن الموظفين السياسيين يعتبرون سنكيانغ بطيخا لذيذا يجب تشريحه، كما جاء في ذلك في تصريح لأحد الموظفين الكبار السابقين في إدارة المقاطعة:

قد يقال إن الصين مثل أسرة مفلسة عانت كثيرا من التدهور الاقتصادي، وأصبحت الحياة صعبة لها، ولكن من حسن الحظ أن ترك الأجداد لها ممتلكات في الغرب، وإذا اضطر الأمر هناك البلد الشاسع الذي يقدم الدعم^[1].

وفي هذه الفترة كان توجه السياسة الصينية هو التغاضي عن إمكانية ضم سنكيانغ إلى الصين بموافقة شعوبها، بل بممارسة القوة التي قد تكون مرعبة اليوم، ولكن قد لا تكون كذلك في المستقبل إذا لم تدعمها بالتعزيزات الممكنة.

◀ الروس:

ويقدر عدد الروس ١٣٤٠٠ في سنكيانغ، وهم في الأغلب من المهاجرين إليها بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م، وأكثرهم من القادمين إليها خلال الأعوام ١٩١٩-١٩٢١م. كما أن بعضها عائلات كانت فيها أثناء الثورة الروسية، وتعرف هذه الفترة بعهد الحروب الداخلية الشديدة في منطقة سميرتشي Semirechie التي هي الآن جزء من جمهورية قازاقستان السوفياتية، حيث قاد تولى انينكون Annekov ودوتوف Dutov وباكيچ Bakich جماعات الكوساق الروسية لسيطرة مواقع على طول الحدود، حيث فشل الأدميرال كولجاك Kolchak فأمر إحدى المجموعات على اجتياز الحدود، ثم تلتها المجموعات الأخرى إلى سنكيانغ، حيث نزعت أسلحتهم مخيرين على البقاء في المقاطعة أو الاتجاه إلى الشرق.

ويقيم كثير من الروس في المراكز المدنية مثل غولجه وجوكوجاك واورومجي، لأنهم أكثر الجماعات حظا بالتدريب الفني والعلمي في المقاطعة،

[1] Aitchen K. Wu, "Will China Lose its Far west?" Asia XXXIX, (1939) p.675

وكان الروس يفيدون في حالتي السلم والاضطرابات الداخلية، وقد عمل منهم في سواقة السيارات وفي الميكانيكا وتدريب قوات المقاطعة، واشترك بعضهم محاربين في بعض المعارك إلى جانب شنغ شيه تساي، وكان العامل الهام لإحراز النصر على ما تشونغ يينغ Ma Chung-ying في عام ١٩٣٤م، وعكست مشاركتهم في هذه الأحداث أن الرحالة والصحفيين والباحثين الزائرين يظنون أو يؤكدون أن هؤلاء ليسوا من الروس البيض، بل من الروس السوفيات الذين لهم التأثير على الوضع في المقاطعة.

وخلال حكم يانغ تسنغ هسين Yang Tseng-hsin كان الروس في حالة طيبة، ثم واجهتهم صعوبات في الفترة من بعد موت يانغ عام ١٩٢٨م، حتى قيام سلطة شنغ في الفترة ١٩٣٣ - ١٩٤٠م، ثم تغيرت بعد ذلك حين زوال حكمه عام ١٩٤٣م، وكانت حياتهم مثل الجماعات الروسية الأخرى في الصين، تقوم على تجمعاتهم الخاصة، لهم صحفهم ويعملون على الاحتفاظ بثقافتهم المتميزة، وفي الغالب يتكيفون بالتيارات السياسية التي لا تهدد وجودهم، وفي أثناء الاضطرابات المحلية ساند كثير منهم نظام ثوار غولجه ضد الإدارة الصينية.

وبالرغم أن الجماعات الروسية في سنكيانغ لها موقفها الخاص ضد الشيوعية، إلا أن هذه النظرة تغيرت مع مرور الزمن، وخاصة أن الجيل الحديث الذي لم يشترك في الحروب الأهلية شخصيا في روسيا بدء يعتز بالشيوعية ويناصرها، وعلى نمط التغيرات التي حدثت في الجماعات المهاجرة في كثير من البلدان في العالم تزايد أعداد الروس في سنكيانغ، وفي المقابل ظهرت سياسة سوفياتية جديدة تجاه المغتربين لتمييزهم عن الروس في جمهوريات الاتحاد السوفياتي.

والآن هناك سؤال: هل يعتبر الروس في سنكيانغ مواطنين صينيين أو

سوفيائين، والمشكلة أن الروس الذين يعيشون في الخارج ويحملون جوازات سوفيائية لا يعني أنهم احرار في العودة إلى الاتحاد السوفيائي عندما يقرر ذلك بنفسه، في الماضي منحتهم السلطات السوفيائية في الصين جوازات سوفيائية والحماية لهم بعض الوقت، بدون أن تسمح لهم بالعودة إلى الاتحاد السوفيائي، وأما الوطنيون الأتراك مثل مسعود صبري يعتبرون الروس مواطنين سوفيائين، وعلى هذا لا يمكن تعدادهم ضمن القوميات في سنكيانغ، ومن هذه النظرة يعني أن المواطن السوفيائي لا يحق له الإقامة في سنكيانغ، ولكن من المحتمل أن كثير من الروس يرغبون الاحتفاظ بالاثنين، وتمكينهم من استعمال كفاءتهم العلمية التي يتمتعون بها يساعد على تطوير المنطقة، وهذا ما يفضله الكثير منهم وإن كان يمثلون جزءا يسيرا من السكان.

◀ المانشور Manchus:

المانشور في سنكيانغ من ثلاث فئات: المانشور Manchus و سولون Solon و سيبو Sibو، ولكنهم لا يتكلمون اللغة المانشورية الصحيحة، ويتتمي جميع هؤلاء الثلاث إلى وحدة القبائل المانشورية التي غزت الصين ثم تلاشت جميعها من المسرح السياسي بعد زوال نظامهم في عام ١٩١١م، ولم يتمكن المانشور من الاحتفاظ بسمااتهم إلا في سنكيانغ حيث يختلفون عن الشعوب الأخرى، ويقدر عدد جميع هؤلاء الثلاث ١٢٣٦٢ نسمة في سنكيانغ.

وقد قدمت أول جماعة من المانشور إلى سنكيانغ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع الحملات العسكرية ضد المغول الجونغار، وبعد الانتصار تمركزت القوات في الإدارات المدنية في المواقع الإستراتيجية، وشيدت مدينة في وادي إيلي الإستراتيجي مركزا لإدارة جميع المقاطعة وتوجيه القوات المانشورية إلى أنحاءها، وفي الكثير من الحاميات في المراكز المدنية التي كانت تضم عددا من الجنود المانشور، والنظام العائلي المانشوري منعهم

من الاشتغال بالزراعة والتجارة، مما أدى إلى ظهور مستعمرة عسكرية في منطقة إيلي، وإحدى هذه الحاميات تضم جماعة السولون التي كان أصل موطنها في أعالي نهر نوني Nonni في شمال غرب منشوريا، وهم مشهورون بالرماية، واعتبروها من أهم القبائل المساندة مع أن لغتها المتداولة في موطنها الأصلي تختلف عن المانشورية، وإن كانت تنتمي إليها.

وهناك حامية أخرى تضم جماعة السيو وموطنها الأصلي وسط منشوريا، وتعمل في الأعمال الكتابية والتجارية في المقاطعة، ولا يعتبر السيو من المانشور الخالص، ويبدو أنهم من الأسرى الحربيين أو أشباه العبيد في الأصل، وقد يكونون من أنساب المانشور الذين ساعدوهم على التوسع المانشوري في القرن السابع عشر، ويشتهرون بصلابتهم ضد النفوذ الصيني وبالمحافظة على لغتهم وتقاليدهم، وقد احتلت الجماعتان الأراضي الغنية في وادي إيلي، فالسولون في ضفة النهر اليمنى والسيو في الضفة اليسرى.

وخلال ثورة عام ١٩١١م، تعرض المانشور إلى المذابح في المدن، ولكن من كان منهم في القرى تمكن عن الدفاع ومقاومة الإبادة، وفي الوقت الحاضر يبلغ عدد السولون ٢٥٠٠ والسيو ٩٢٠٠ من مجموع المانشوريين ما عدا ١٧٠٠ منشوري تقريبا في منطقة جوكوجاك، وأكثر المانشور يتواجدون في وادي إيلي في عدد من القرى على جانبي النهر الذي يسيطر عليه القازاق والأويغور.

وأكثر المانشوريين يعيشون على الزراعة، بالإضافة إلى رعي الأغنام والصيد، وتمسكهم بتقاليدهم ساعدتهم على وجودهم وقدراتهم العسكرية، ولكن واجهتهم أيضا بعض التغييرات التي حدثت في المقاطعة، وكثيرون منهم يتكلمون عدة لغات منها الروسية إلى جانب لغتهم الأصلية، وفي وقت ما كان هناك نقاش بينهم على استعمال الأبجدية اللاتينية بدلا من الحروف المانشورية، وقد نالت جماعة السيو التقدير والشكر لتزويد ثوار غولجه

بالحبوب والخضروات.

ومع أن شتغ شيه تساي قسم هؤلاء الناس إلى ثلاث مجموعات متميزة: المانشور والسولون والسيو، ولكن الاختلاف بينهم طفيف جدا، ويمكن اعتبارها قليلة الأهمية؛ لأن الاختلاف في الأساس في لهجاتهم، وقد تلاشى ذلك عندما استعملت اللغة المانشورية لغة رسمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، والجماعات الثلاثة في سنكيانغ يتفاهمون تماما، واللغة الأدبية لهم المانشورية، ومن جوانب كثيرة تعتبر هذه المجموعات شعبا واحدا، ومع قلتهم العددية إلا أن قدراتهم العسكرية ومهاراتهم الإدارية جعلتهم قوة يمكن الاعتماد عليها كما ظهر ذلك من مساعدتهم لثوار غولجه ضد السلطة الصينية السابقة، ومن المؤكد أن استمرار وجودهم كشعب سيكون في خطر؛ ذلك لأن مستقبلهم القريب قد يجعلهم جزءا من الأغلبية المجاورة إذا لم يشملهم قدر من الحكم الذاتي المحلي.

◀ الأوزبك:

الأوزبك منتشرون في المراكز المدنية على طول الحدود مع جمهورية أوزبكستان السوفياتية، ويقدر عددهم ٨٠٠٠ نسمة، ويقوم أكثر من ثلاثة أرباعهم في كاشغر وغولجه وجوكوجاك، وهم من الهاريين من الشيوعية ويعملون في التجارة.

والشعب الأوزبكي يتكون من طبقتين: المجموعة الإيرانية القديمة التي سكنت واحات آسيا الداخلية، ثم القبائل التركية التي عرفت بالاتحاد الأوزبكي الذي غزا المنطقة في القرن السادس عشر، وبتأثير من ثقافة السكان الإيرانيين في الواحات تخلى الأوزبك عن حياتهم الرعوية إلى حياة زراعية مستقرة.

تعتبر العناصر الثقافية الإيرانية الأولية هي الغالبة إلى درجة أن اللغة الفارسية كانت لغة الأدب التي يتبارى بها الشعراء في البلاط، ولكن اللغة التركية أوزبكية

سيطرت على الإيرانيين لغة شعبية.

وفي القرن التاسع عشر غزا الروس كثيرا من ممالك الأوزبك وبقيت بعض خانياتهم مستقلة اسميا، بينما كانت في الحقيقة في علاقات تبعية لروسيا، وبعد الثورة السوفياتية أسس الأوزبك أولا جمهورية تركستان السوفياتية التي عرفت فيما بعد بجمهورية أوزبكستان السوفياتية ضمن جمهوريات الاتحاد السوفياتي، ويشكل الأوزبك الأكثرية في جمهوريتهم ويعيشون متناثرين في جمهوريات تاجيكستان وقازاقستان وقرغيزستان وفي شمال أفغانستان بالإضافة إلى سنكيانغ.

والأوزبكية لغة تركية ولكنها اختلطت كثيرا [الإيرانية في المدن، وتوجد في الواقع لغتان أوزبكيان: الأوزبكية الإيرانية في المدن، والأوزبكية التركية في القرى.

والأوزبك مسلمون سنيون إلا أن التعاليم الصوفية ذات أثر كبير في حياتهم الدينية.

◀ التتار :

يبلغ عدد التتار في سنكيانغ أقل من خمسة الآف نسمة يتمركز أكثر من أربعة أخماس منهم في مدينتي غولجه وجوكوجاك، وبعضهم من سلالة تجار التتار القادمين إليها في عهد القيصرية في روسيا، والباقون من الهاربين من الشيوعيين الذين كان دخولهم إليها بعد عام ١٩١٧م، ومع أنهم جماعة صغيرة، ولكن لهم تأثير كبير ذلك لأنهم المجموعة التركية الوحيدة ذات التعليم العالي.

وقدم كثير من التتار من منطقة الفولغا حيث لهم جمهورية تتارستان الذاتية السوفياتية، وهم من سلالة ممالك إمبراطورية البلغار القديمة سكان خانية قازان التي ظهرت بعد زوال مملكة القبيلة الذهبية في عام ١٤٣٨م، وكانت

دولة موسكو قد غزت خانية قازان في عام ١٥٥٢م، ومن هذا التاريخ وقع التتار تحت السيطرة الروسية، ثم في عام ١٩٢٠م، كان لهم حكم ذاتي في جمهورية تتارستان الذاتية السوفياتية، حيث يكونون فيها الأغلبية السكانية، كما يتواجد أعداد منهم في جمهورية باشقردستان الذاتية السوفياتية، وفي مناطق مالوتوف Molotov وغوركي Gorki وساراتوف Saratov من جمهوريات روسيا الاتحادية السوفياتية وكذلك في سنكيانغ.

وقبل الثورة الشيوعية كان اقتصاد التتار الرئيس يقوم على الزراعة، ويعمل كثير منهم في التجارة، وخاصة في سمسرة المنتوجات الروسية في المناطق التي تتكلم التركية في آسيا الداخلية الروسية والصينية.

ولغة التتار لغة تركية تنتمي إلى مجموعة عائلة اللغة التركية في الشمال الغربي في آسيا، وهم مسلمون سنيون منذ دخولهم إلى الإسلام في القرن العاشر الميلادي، وبعد الغزو الروسي لمنطقة نهر الفولغا حاول المستعمر الروسي تحويلهم إلى المسيحية بمكافآت اقتصادية لمن تحول منهم، ولكن كانت النتائج ضئيلة جدا.

والأدب التاريخي القديم يمثل نوعا ما من الأدب الديني الأول، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأثر الوطنيون والعلماء والكتاب بالثقافة الروسية، وكان الأدب التاريخي في القرن العشرين مثل الأدب الروسي يتناول المواضيع السياسية والمذاهب الأدبية التي صبغت بالمفاهيم السياسية أكثر منها بالحركات الفنية، فاليوم في الاتحاد السوفياتي يملك التتار أدبا زاها متأثرا بالأشكال الغربية متأثرا قويا، والأبجدية العربية التي كانت حاجزا في طريق مكافحة الأمية، استبدلت بالأبجدية اللاتينية التي حل مكانها الأبجدية السلافية في الثلاثينات القرن العشرين.

الفصل الخامس: الجغرافيا والتطور الاقتصادي

الجبال والصحاري والسهول والشعب:

لا توجد منطقة في العالم يظهر فيها التأثير الجغرافي على الناس أكثر كما هو في آسيا الداخلية، وتقع سنكيانغ في قلب القارة بعيدة بقدر الإمكان من الرياح الرطبة الآتية من المحيطات، وتحيط بها من الجهات الثلاثة جبال عالية، وفي جهة الشرق تمتد هضبة قاحلة واسعة، وترتفع الجبال السماوية تيان شان (ذات القمم الثلجية إلى ٢٣٠٠٠٠ قدما) وتقطع هذه الجبال المقاطعة من الغرب إلى الشرق وتقسّمها إلى جزئين غير متساويين، والجزء الجنوبي يكون ثلثا المقاطعة، وتقع فيه حوض تاريم الذي يضم ألواح الصحاري، وأما الجزء الشمالي ويضم حوض جونغاريا ويكون ثلث المقاطعة، وهي منطقة رعوية طبيعية، ومجموع مساحة المقاطعة ٦٠٠٠٠٠٠ ميل مربع أو ضعف مساحة ولاية تكساس.

وحوض تاريم منطقة صحراوية أجزاءها المنخفضة فعليا تحت مستوى البحر، وهنا لا يستطيع الإنسان أن يعيش ويزرع على سقوط الأمطار التي تقل نسبته من أربع بوصات في السنة، وأما الماء يأتيه من الجبال العالية التي تحيط بالصحراء من الشمال والغرب والجنوب ويرتفع بعض قممها أكثر من عشرين ألف قدم، وتتكون الأنهار من ذوبان الثلوج التي تشق طريقها إلى وسط الصحراء الطيني حيث يصل كل نهر إلى حواف التلال، ويشق الناس القنوات لتوزيع الماء في الواحة، وهكذا أطراف الصحراء على طول حواف الجبال في سلسلة من الألواح، والطريق التجاري حول الصحراء يربط هذه الألواح مثل

حبات اللؤلؤ في خيط منظم على شكل (U) بنهاية مفتوحة من الشرق. وتسقط الأمطار في جونغاريا بمقدار أكثر من الجزء الآخر، وتصل نسبتها إلى أكثر من عشر بوصات في السنة في أفضل الأماكن الجيدة، والصحراء هنا ليس كبير، كما أنه غير محصور مثل حوض تاريم، وتنتشر المراعي على سفوح جبال التاي في الشمال وتيان شان في الجنوب وفي الجبال الأخرى في الغرب، والقطعان تتجول كثيرا في هذه المنطقة، وبالتالي يتجول معها ملاكها ضمن حياة رعوية خاصة، وقد تعلم الإنسان الحياة في هذه المنطقة الفقيرة بالاعتماد على الأمطار، وبالسيطرة على الحيوانات التي تقتات على الأعشاب وهو لا يأكلها، بالإضافة إلى الزراعة الرعوية توجد في جونغاريا الزراعة في وديان الأنهار على طول الحدود السوفياتية التي تخترقها ثلاثة أنهار رئيسة تخرج من سنكيانغ وتجري في الأراضي السوفياتية وهي: قرا ايريتش نهر سنكيانغ الوحيد الذي يصب في البحر، ونهرا ايميل وإيلي وهما من أهم طرق المواصلات المائية بين الأراضي الصينية والسوفياتية، وينحصر وادي إيلي الخصب الواسع الزراعي بين جبال تيان شان مع انفتاح نحو الغرب في الأراضي السوفياتية، فتكون منطقة متميزة ترتبط جغرافيا بالأراضي السوفياتية أكثر من ارتباطها بسنكيانغ نفسها، وغاباتها ومناجمها وجبالها الغنية بالمراعي وأراضيها الخصبة تساعد على التطور الاقتصادي لشمال حوض تاريم، ولكنها لم تتمتع مطلقا بفترات كافية من السلام والإدارة المستقرة التي تنعمل على استغلال مصادرها الغنية، بل تعرضت لهجرات هائلة خلال الحروب التي دارت عليها، مما أدى إلى طرد أكثر سكانها في القرن الثامن عشر، ويعيش الآن في الوادي فلاحون ورعاة يقل عددهم عن نصف مليون نسمة.

وقد تميزت الحياة الزراعية في ألواح الحياة الرعوية في المراعي، تتميز كثيرا عن بعضها في طرق الحياة عبر تاريخ آسيا الداخلية، بحيث لم يتمكن الإنسان من الجمع بينهما، وكان المزارعون والرعاة يتقاتلان مع بعضهما

ويتعاملان ويحكما بعضهما ولكنهما لم يندمجا في مجتمع مستقر.

وبدء عامل التصنيع يتخلل الآن حياة المزارعين والرعاة، حيث ساعدت الأجهزة الآلية على جلب الماء إلى واحة المزارعين الذي كان يُستعمل في جلبه فأس عريض مسطح معروف في آسيا الداخلية، كما ساعد التصنيع الحديث من تحسين نسل الحيوانات المنتجة للأصواف والجلود لم يكن ذلك ممكنا من قبل، بالإضافة إلى استغلال الوسائل المدنية التي جمعت مناطقها المتناثرة في أنحاء سنكيانغ، وخلقت كثيرا من المجتمعات الزراعية والرعية والمدنية والصناعية والتقنية، ورفعت من مستوى التعليم عن ذي قبل، وكانت مواد التصنيع الأولية مثل الزيت والفحم والحديد تفيض إلى وجودها بكميات كبيرة معروفة في سنكيانغ، كما أن بها مصادر الطاقة المائية ومن المواد الصناعية النادرة الذهب والنحاس.

ودخلت الحضارة الصناعية إلى سنكيانغ من جهتين في وقت واحد، من الصين حيث جاءتها الطائرات الأمريكية التي حلقت أحيانا على سنكيانغ، ودخلتها بعض العربات والسيارات كما أن التركتورات الأمريكية التي عبت الطرق إليها، ومنها الطريق من هضبة التبت إلى ألواح الجنوب، والجيولوجيون الأمريكيون القادمون للتنقيب عن المعادن، كما أن القوات الصينية التي دخلت سنكيانغ في السنوات الأخيرة كانت مجهزة بالأسلحة الأمريكية.

وأما الجهة الثانية فهي مراكز التصنيع السوفياتية التي تتاخم حدود سنكيانغ، فقد عمل الروس في منطقة آسيا الداخلية السوفياتية في المناجم والمصانع وعمليات الري الحديثة والسدود ذات القوى الكهربائية، واستحدث كثيرا من التسهيلات لرفع مستوى التدريب الصناعي مما لا توجد لها مثل في داخل الصين كلها، والتجارة السوفياتية مع سنكيانغ كانت أساسية، وشعوب سنكيانغ التي ترغب التعليم الجامعي الحديث تناله في الأراضي السوفياتية لا في الصين،

وكانت الصناعة مهملة في سنكيانغ، والأسلوبان الرئيسيان في الاقتصاد هما الرعي وزراعة ألواح، وتقع أكثر هذه ألواح الزراعة في حوض تاريم حيث يجلب الإنسان الماء للري في الصحراء، وأما مواطن الرعي فهي في جونغاريا حيث كَيْف الإنسان نفسه مع الطبيعة، فتخلّى عن الزراعة وتبني رعي الحيوانات.

الحياة الرعوية:

وقد ظهر في إحصائية سنكيانغ لعام ١٩٤٣م أن عدد الأغنام والخرفان (٠٠٠ ١١٧٢٠) والمواشي (١٥٥٠٠٠٠) والخيل (٨٧٠٠٠٠) والجمال (٠٠٠ ٩٠)^[1]، ويتواجد أكثر هذه القطعان في جونغاريا حيث ترعى في السهوب الرعوية التي يمتلكها قبائل القازاق والمغول، وعدد قليل يملكها القيرغيز في المرتفعات الرعوية، وسكان المدن في المناطق الزراعية تملك بعض الأغنام والبقر والثور وهي من أهم الحيوانات التجارية، كما أنهم يتاجرون بالصوف والجلود، وتأخذ حكومة المقاطعة الصينية الخيول من القبائل الرعوية مقابل مدفوعات الضرائب، ويعرض بعضها للبيع، وتربي الجمال لاستعمال القبائل نفسها في تنقلاتها أو سلعة تجارية تباع إلى قوافل تجار الصين.

وتختلف عمليات رعي الحيوانات، ولكل من المواشي والخيول والجمال مناطق رعوية خاصة مختلفة، والمراعي الجيدة لأحد هذه الأنواع قد لا تصلح لتربية الأنواع الأخرى، وهناك اختلافات ملحوظة بين تربية الحيوانات التي تتشابه مثل الياك والبقر أو الغنم والخروف.

والأغنام في السهوب الرعوية ترعى في كل مكان وتشكل عنصرا مهما في الملكية؛ لأن الأغنام سلعة ثمينة في الأسعار بالنسبة للأنواع الأخرى، والسبب الرئيس أن الأغنام تجد في السهوب ما تأكله من الكثير من الحشائش أكثر

[1] Chung Chih-yi; Unpublished field notes

من الحشائش الملائمة لأكل الحيوانات الأخرى، وقد لاتستطيع الحيوانات الأخرى الرعي^[1].

ولكن بمهارة الراعي في اختيار المرعى تستطيع مختلف الحيوانات الرعي معا، والأمر يعتمد كثيرا على اختيار المرعى والمدة التي يبقى فيها، متى سيتحرك وكم سيسير، لأن الراعي لا يترك معسكره ويتحرك لأجل اللهو، لأن السير لمسافة طويلة أو كان في مناطق غير ملائمة فإن حالة الحيوانات تتبدل أو تضعف، علاوة أن الحيوانات الهزيلة لاتستطيع أن ترعى جيدا، وعلى هذا تغيير كل معسكر يجب أن يكون بطريقة يؤدي إلى الاستفادة من المراعي الخصبة بدلا من السير الذي يؤدي إلى الضرر، علاوة على ذلك فالأوقات المفضلة أو الملزمة لرعي الأنواع وبعدها عن البعض مهمة.

ويزاول الرعاة دائما نوعا من الزراعة التي تعتمد على سقوط الأمطار أو الري، وفي الماضي عندما كانت سلطة الرعاة قوية في فترات مجدها كان التابعون أو المستأجرون يزرعون هذه الأراضي لصالح الرعاة، وحينما عندما تحولت السلطة إلى دولة مستقرة في سنكيانغ كما كان في الفترات السابقة تطور نوعين من العمل: في النوع الأول تم أخذ الرعاة الفقراء إلى الزراعة، وأصبح بعضهم مزارعين دائمين و قطعت صلاتهم بالمجتمع الرعوي متحررين من سلطته، وقضى الآخرون بعض أيام السنة يزرعون الحشائش والحبوب للأغنياء من عشائهم أو قبائلهم، والنوع الثاني قامت سلطات الحكومة المستقرة بدفع المزارعين إلى أراضي الرعاة لأهداف استراتيجية أحيانا وأحيانا لمجرد الربح.

وعندما سيطر المانشور على مغول جونغاريا في أواخر القرن الثامن عشر، كانت المستعمرات الزراعية وسيلة لإجلاء الرعاة، و استمر هذا الوضع في

[1] وفي تقرير لمنطقة السهوب في تانو توبا Tannu-Tuva التي تتشابه مع منطقة جونغاريا يوجد فيها 600 نوع من النبات، يأكل منها البقر 56 نوعا، والخيول 82 نوعا، والأغنام تأكل أكثر من 570 نوعا.

عهد جمهورية الصين ولا يزال مستمرا، وهذا مكسب اقتصادي تسفيد منه السلطات الصينية بمصادرة الأراضي من الرعاة وبيعها إلى المستعمرين، كما اعتبر مكسب سياسي عندما أدى إلى المعارك بين الأويغور المزارعين والقازاق والمغول الرعاة، وكذلك تم إحضار اللاجئيين المزارعين من هونان من وسط شمال الصين لإيجاد مكان لهم في هذا المعترك وتزويدهم بالعربات والبنادق لهدم معسكرات القازاق (معلومات شخصية من مراقب أمريكي).

وحدث بعض التطور الزراعي بين الرعاة، فقد مارس المغول في باتيك بوغدا الزراعة إلى جانب الرعي^[1]، كما ظهرت الزراعة بين مغول تورغوت على طول جينغو Chingho في غرب مناس في بداية القرن العشرين^[2]، وفي عام ١٩٤٣ م حفر القازاق قناة الري من ضفة نهر كونغز Kunges أحد أغني روافد نهر إيلي، كما حدث نوعان من التغيير في جنوب حواف تيان شان، فقد انتقل الأويغور ملاك الأغنام بقطعانهم من ألواح إلى مروج القيرغيز الجبلية، وقدم القيرغيز من مراعي باي و اوج تورفان لممارسة الزراعة في وادي تاوشخان و قراباغ^[3].

الزراعة في ألواح:

وفي سنكيانغ هناك نوعان من ألواح: واحات الجنوب التي تبعد عن بعضها بصحراء شاسعة، وواحات الشمال التي تقع في مناطق خضراء يمكن زراعتها بالأمطار أو مناطق خضراء واسعة تساعد على الرعي، وعلى هذه الصفات فإن حياة ألواح النموجية تتمركز أكثر في الجنوب، ومن المحتمل أن حياة مستوطني ألواح الأوائل على ضفاف الأنهار في الصحراء قامت على صيد السمك والحيوانات وجمع الثمار، واللوبلوقيون Lopliks

[1] Douglas Carruthers, Unknown Monglia, London 1913, Vol.II, p.462

[2] Sung Po-lu, History of Sinkiang, 1913, Chuan 2, p.8 (in Chinese)

[3] R.C.F. Schomberg, "The Habitability of Chinese Tuekestan "The Geographical Journal, Vol.LXXX, No.6, Dec. 1932, p.510

وهم أكثر الجماعات البدائية التي تسكن منخفض لوب Lop تعتمد حياتهم على المحصول الرئيس من الصيد في المستنقعات، وقد ظهر الري أولاً في المناطق المنخفضة قرب الأنهار حيث التربة اللينة التي لا تحتاج على عملية الري إلا على حفر بسيط لعمل الجدول من الضفاف، ومع تقدم الزمن تطورت المعرفة الهندسية وصار الاتجاه في ألواح هو مد الجدول إلى أعلى النهر نحو الصخور المنحدرة على طرف حواف التلال، وليس إلى الخلف حيث الكتل التي تسد المجرى ويصعب معالجتها، وهناك ثلاثة أسباب لتغير أعلى المجرى: بطء سرعة الماء من السهل لتراكم الطمي في القنوات، فالأرض المسطحة لا تساعد الماء على الجريان الكافي من الحقول مما يؤدي بالتدريج على تراكم الأملاح، فالجماعات في أعلى النهر يحصلون على الماء أولاً. وقد كان جفاف آسيا الداخلية السبب الرئيس لهجر ألواح القديمة التي تكونت في الصحراء، ولكن من المحتمل أن الأسباب التي ذكرت أكثر أهمية من أي تغيير مناخي حدث في الفين السنوات الماضية.

وما زال تشييد ألواح بسيطة في وسائله، والنموذج المهم هو إيجاد قنال رئيس من النهر يتفرع إلى قنوات صغيرة ثم إلى مجاري تصب الماء في الحقول، ويتم كل هذا الترتيب بحيث يندفع الماء بقوة الجاذبية من مرتفع إلى منخفض بدون ضخ أو نزح الماء بجهاز مثلما هو منتشر في الصين وفي تركستان السوفياتية لرفع الماء من مناطق منخفضة إلى أخرى مرتفعة^[1].

[1] ويظهر نوعان من السدود استخدمت لتحويل المياه من النهر إلى القنال، من الملاحظات أن الميدانية لبعثة سينكا الأمريكية وصفت سد صلباً على نقطة نهر أقسو يتفرع منها إلى نهرين: كونا درايا أي النهر القديم وينكي درايا أي النهر الجديد، ومثل هذا التفرع غالباً ما يتكون عندما يتراكم الطمي في مجرى النهر ويندفع بعده ماء قوي في المجرى مما يخنقه و يجعل الماء تندفع بقوة من احد جوانب النهر القديم ويعمل نهراً جديداً يخرج منه، ولأن النهر القديم يروي واحات أقسو ووات Avat فقد تم إقامة سداً قوياً لإعادة بعض المياه من النهر الجديد إلى القديم، وفي عمل هذه السدود استعملت جذوع أشجار توغراق أو أشجار الصحراء في وضع بعضها على البعض وعمل سياج عليها من الأغصان والحشائش ملئت بالأحجار والحصى، والسد من مثل هذا النوع قليل الكفاءة ذلك عندما يبلغ النهر مستوى الفيضان في شهري يولييه وأغسطس، فإن السد ينهار والمياه المتدفقة من أقسة درايا

ويعتبر نهر يار كند من أهم أنهار الري في سنكيانغ ويعرف روافده العليا باسم زرافشان Zarafshan [1].

وأنهار خوتن وكونجه Konche وقايدو كول Kaidu Gol تمد من الماء ما يكفي قنواتها المتفرعة والمستوطنات على طول مجاريها، ونهرا أقسو وموزرات تجريان إلى واحة كوجار ونهر قيزيل سو تجري عبر واحة كاشغر، وكلها تمد بالماء الكافي ألواح التي تقع في مجاريها السفلى.

وكمية المياه في أنهار نظام تاريم أقل بكثير عن نهري سير داريا واموداريا النهرين العظيمين في آسيا الداخلية السوفياتية^[2]، ومجموع كميات المياه التي تجري في كل أنهار سنكيانغ يصل إلى ٣٤٠٠ متر مكعب في الثانية ومنها ٧٠٪ في حوض تاريم. وفي تقرير في عام ١٩٤٣م، ذكر أن طول قنوات الري يبلغ ٣٦٠٠٠ كيلومترا في سنكيانغ وهناك كثير من العجز في تقنية الاستفادة من هذه القنوات، ومن ذلك التخلص خلال الجريان من رواسب الأملاح التي تتراكم بالري الذي سبق ذكره، ونقص وجود البحيرات والخزانات حتى الصغيرة منها التي يمكن خزن الماء فيها مما يؤدي إلى أن ثلث أو نصف الماء يذهب هدرا، وفي الحساب المعياري الذي يقدره المهندسون عادة لري متر مكعب من الماء في الثانية هو أكثر من ٦٠٠٠ فدان إلا أن هذا الرقم يكون ٢٥٣٠ فدان في سنكيانغ.

يأخذ مجره إلى النهر الجديد ومحاصيل ألواحة التي تم تغذيتها من النهر القديم تتعرض للخطر، والسدود الصلبة عادة تبنى على الأنهار الكبيرة وأما الأنهار الصغيرة حيث يمكن التحكم في تدفق الماء بحواجز متحركة عملت بفتحات أو بوابات متحركة، وفي بعض المواقع مثل قارغاليق بدلا من بناء بوابات ثابتة للتحكم في تدفق المياه أو وضع ألواح يتم باستعمال الدبش للاغلاق المؤقت.

[1] لقد غير نهر يار كند مجراه عدة مرات، والعالم الصيني المشهور هسو سونغ Hsu Sung وصف كيف أن رافدين من نهر يار كند اجتمعا في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ليكون واحة مركيت، ولكن خريطة السير اورال شتاين Sir Aurel Stien تظهر مكان اجتماع الرافدين في الوقت الحاضر بعيد عن مركيت، ومن المحتمل أن هذا التغيير تسبب في نقص الماء الشديد في مركيت التي كانت مشهورة سابقا بزراعة القطن في سنكيانغ.

[2] A.N. Kuropatkin , Kashgaria , Calcutta, 1882, p.22

وعددا من أعمال الري الخاصة تستحق الذكر، ومن ذلك كاريز Kariz وهو من أهم قنوات الري من تحت الأرض، وهو من مظاهر واحة تورفان، ويحفر الكاريز بدءاً من مستوى الأرض التي يراد ريهها متجهاً نحو أكوام الحصى التي تنتشر على حواف التلال التي يحتمل وجود الماء تحتها، ويستمر الحفر حتى يصل إلى جدول ماء تحت الأرض، وعلى طول المنحدر الذي يجري تحته النفق يتم عمل فتحات لمرور الهواء، وعندما يجلب الماء من تحت الأرض إلى السطح المنبسط يتم توزيع الماء إلى الحقول الأخرى بالقنوات العادية، وتختلف أطوال الكاريز من أقل من ميل إلى عدة أميال، وبالإضافة إلى تورفان يوجد الكاريز في بجانغ Pichang وكوما Guma وبذلت الجهود لحفر الكاريز على منحدرات جبال تيان شان الشرقية في شمال باركول بواسطة عمال مهرة من تورفان، وقد يكون الكاريز صغيراً كما هو ملاحظ في واحة قمول، حيث يروي ألوحد منه ست ونصف فدان فقط، وأحدث الأرقام تبين الأحصائية التالية:

اسم الواحة	عدد الكاريز	متوسط المروي	مجموع الفدان المروي من الكاريز
[1] تورفان	370	76	28 000
توقسون	166	65	10 700
[2] قمول	495	7	3 700
المجموع	1031	0	42 400

وحفر الكاريز يحتاج إلى ميزانية كبيرة، وقبل أربعين عاماً قدر شتاين Stein تكلفة حفر كاريز واحد في تورفان بأكثر من ٣٠٠ جنيه^[3]، وحديثاً تم حفر كاريز بلغ كلفته ٥٠٠٠٠ دولار في سنكيانغ، وحيث إن مخاطر الفشل في إيجاد الماء مما يثير مخاوف الفلاحين للاشتراك في حفر الكاريز وتهيئته،

[1] Ni Chao, Report on Sinkiang's Irrigation" Shui-li Wei-yuan-hui yueh-k'an (monthly of the Conservation Administration) August 1945 (in Chinese)

[2] Huang Yu-hsien, Irrigation in Hami" Ching-chi Chien-she chi-K'an (Quarterly Journal of Economic Reconstruction) Vol, III, No. i, July 1944 (in Chinese)

[3] Aurel Stein, Ruins of Desert Cathay , 1912, Vol.II, p.361

فالأغنياء من ملاك الأراضي يستأجرون العمال لإنجازه، وعندما ينجحون في عملهم يحتكرون الماء ببيعه إلى الفلاحين الذين يقومون ببيع المحصول لهم. وهذا النوع من المشاريع مربحة لبعض ملاك الأراضي الذين يبعون أملاكهم لاستثماره في الكاريز^[1].

وهناك نقاش عن أصل الكاريز ذات الجذور التاريخية والمعرفية المتنوعة التي عبرت آسيا الداخلية إلى الصين ومنها، ويؤكد هونتینگتون Huntington أن الكاريز قدم إلى سنكيانغ من إيران أو عبر مناطق القزوين Transcaspia حوالي ١٧٨٠م، ويتفق معه في الرأي كل من بلليو Pelliot وشتاين Stein، وأما المؤرخ الضيني وانغ كو-وي Wang Kuo-wei يعتقد أنه قدم إليها من الصين عندما تم فتح المناطق الغربية في عهد عائلة هان المالكة، ولكن هذه المعلومات لا تحل المشكلة، لأن نظام الكاريز استعمله اليونانيون في ساموس Samos كما استعمله اتروسكان Etruscans في إيطاليا في القرن السادس قبل الميلاد، ويعرف في العربية الوسطى باسم الساقى وفي المغرب باسم فوغارا، واستعمل شعب انكاس الري بقنوان المياه الجوفية في البيرو.

وجريان الينابيع والمياه الجوفية مصادر إضافية للمياه في بعض ألواحاحات، ونحو ٥٠ في المائة من مياه الري في قمول تأتي من الينابيع في المقابل ٢٥ في المائة من الكاريز والأنهار، وفي غولجه وعدد من ألواحاحات الكبيرة تستخدم مياه الينابيع لري حقول الرز التي تحتاج إلى جريان ماء دائم، وفي واحة قوميش الصغيرة في جنوب توقسون نبع سعته ثلاثة أمتار مكعب في اليوم يروي ثمانية فدان من الأرض، ويولي في الأهمية بعد الينابيع الجداول التي تختفي تحت التلال ثم تظهر ثانية في الواحة أو يعدها وجريان مثل هذا الجداول تسمى ساي

[1] هذا المنهج الرأسمالي في حفر الكاريز ربما تطور مؤخرا، وربما في القرن الثامن عشر عندما حكم الخوجات تورفان، وتم حفر الكاريز باستعمال القوى الإقطاعية للملاك في استخدام العمال بدون أجر.

Sai ولكنه غير مستقر، وعندما يحفر عليه الكاريز يكون مصدرا هاما للماء، ولكن لا يتم الاستفادة الكاملة منه.

والخزان Tanks كما تسمى في الهند، وهي حفرة صغيرة تستعمل لخزن مياه الشرب في المدن وألواح، ولكن لا تستخدم لحفظ مياه الري، فيما عدا في ألواح المعرضة للعطش مثل مارالباشي. معظم مياه النهر تستخدمه ألواح من مجراه الأعلى في مرالباشي، مما يضطر معه الفلاحون لخزن الماء لوقت الحاجة إليه، ومع الأسف الشديد فالخزان الرئيس متصدع حاليا، وإذا لم يتم إنشاء خزان جديد فالوحدة آجلا أو عاجلا ستصبح مهجورة.

وقد استعمل الحاكم الصيني تشانغ ياو Chang Yao وسيلة ري فريدة في قمول في القرن التاسع عشر، إذ جلب الماء في قناة خشبية مبطن باللباد عبر الصحراء رملية تربتها مسامية لعدة أميال، ولكن كلفتها كانت باهظة.

ومع أن الزراعة تقوم على الري في شمال سنكيانغ، إلا أن الزراعة فيها لا تنحصر تماما في ألواح، كما في الجنوب، ومياه الري الرئيسة تأتي من أنهار إيلي ومناس وقريرايرتيش، ومن بين هذه الأنهار فإن نهر إيلي يتكون من التقاء ثلاثة أنهار هي: كاش Kash، وكونغز Kunges وتكس Tekes، وتدفق مياه هذه الأنهار الثلاثة يأتي من نهري كاش وتكس ١٠٠ مترا مكعبا في الثانية ومن نهر كونغز ٣٠ مترا مكعبا في الثانية.

ومناس نهر بطيء في جريانه، ولكن عندما يفيض يسبب كثيرا من المشاكل، فيقطع فيضانه القنوات ليأخذ طريقه إلى أسفل واحة مناس حيث يكون مصبه بحيرة تلي نور Telli Nor في السهل ثم يصير إلى الجفاف.

ومنابع المياه لنهر ايرتيش يقع في التاي حيث مستوى الثلج أقل مستوى مما هو في جبال تيان شان، وجريان ماء النبع يكون متقدما بستة أسابيع في ايرتيش مما في نهر مناس ويكون مفيدا للزراعة الربيع.

وحيثما يمارس الري تكون حقوق الماء أكثر أهمية من امتلاك الأرض، وفي سنكيانغ نوعان من القواعد والعادات بالنسبة للماء، أحدهما يرتبط بالكاريز، والآخر ينتشر انتشارا واسعا مع الماء، وتاريخه معقد ومتنوع.

لا شك أن الحقوق والواجبات والعادات التي تتصل بالممارسة البسيطة في جلب الماء في جداول من الأنهار يرجع إلى الشكل القديم للعمل في مشروع جماعي، ولم يكن الماء يوزع للأفراد بموجب الأملاك الخاصة لهم، ولكن على مجموعة المزارعين أملاك الحقوق الذين يعملون بعنوان جماعي.

في المجتمع الذي لا يملك رأس المال الكبير الخاص ليس من المستغرب أن العمل يبدأ فعليا بالاعتماد على الجهد العام الذي يبدأ بالاجتماع وبتوجيه وممارسة السلطة العامة، ومن المثال النموذجي لمثل هذا العمل في حفر قنال الري في واحة جيرا Chira الصغيرة فقد اجتمع ٣٠٠ رجل من ستة قرى تحت سلطة رؤساء القرى، وعلى أي حال كان بالإمكان إدارة هيئة القرى من قبل سلطة عليا للموظفين الصينيين، والقاعدة الرئيسة أن يقوم المحليون برئاسة كبار القرى أو رؤسائهم وإشرافهم بالتعاون في العمل إذا كان محدودا، وأما إذا كان مجال العمل أكبر فالأمر يحتاج إلى تدخل السلطة الصينية الرسمية، ومن حيث تدخل الموظفين الصينيين.

فقد أظهر متابعة الممارسات القديمة من البحث الميداني في قرية في واحة كوجار أظهر أن (كتمان Ketman) العمل وهو مصطلح يعبر عن وحدات العمل والأرض والماء، والكتمان: معول ذو نصل عريض تستخدم في الزراعة في آسيا الداخلية، ومازال يستخدم إلى اليوم بشكل أوسع من المحراث، وعمل كتمان يعني عمل رجل واحد ساهم في حفر قنال ماء يكفي للري من عشرة فدادين إلى أربعة عشر فدان، واستحق معه لقب «كتمان ماء».

مهما يكن في هذه القرية فإن تطابق المفهوم يبرهن أنه لا يعكس بالضرورة

التطابق في حقوق الماء، مثلاً ٨٠٪ من مجموع السكان هم ملاك الأراضي والفلاحون الأغنياء، ولكن هذه النسبة تملك نصف كامل الماء الآتي، وفي الطرف الآخر فإن ١٧٪ من السكان لا يملكون حقوق الماء، وعليهم شراء الماء بجزء من محاصيلهم، وبين هذين الطرفين فإن سكان المنازل يملكون ٧٥٪ من الماء، وهؤلاء يصنفون على أنهم متوسطو الدخل وفقراء الفلاحين ولكل مالك المنزل منهم في المتوسط ثلث «كتمان ماء».

والمشكلة التي تحدث بين العمال المساهمين، وتقسيم حقوق الماء ترجع إلى أمور كثيرة، وبالنسبة للقاعدة الإسلامية للموات mavat الأرض الذي يسقي لأول مرة له الحق في الماء والأرض أولاً، ولكن بالتفكير المنطقي لن يكون من الصعب متابعة الحق التقادمي المشاع لرجل يساعده عمله لجلب الماء إلى الحقل، الذي قد يدعي عليه رجل آخر نظم العمل وأدار المشروع.

وفي عام ١٩٤٠م في آقسو الواحة الكبيرة أمر الحاكم الصيني للمنطقة بحفر قنال لفتح مستوطنة جديدة في ساجينتز Sachintze على بعد ٤٠ ميلاً في جنوب المدينة، ومنح كل صاحب منزل تقدم للاستملاك في المستوطنة الجديدة قطعة من الأرض مساحتها مائة قدم على ضفة القنال الرئيس، ثم تم السماح له أن يأخذ من خلف القنال من الأرض ما يستطيع أن يستغلها ويحتاج إليها من الماء، وهكذا نال حق الأرض والماء، وترك الاستغلال من الفرص على قدرة وترتيب المستوطن، وليس من المستغرب أن هذا الوضع أدى إلى النزاعات المستمرة حول حقوق الماء، لأن الأقوياء وذوي النفوذ في المجتمع يحصلون على الماء الدائم والكثير، ويضطرر غيرهم على الجدل، ومنذ أكثر من ١٠٠ عام عندما كانت الإمبراطورية المانشورية تمارس سلطتها في سنكيانغ كانت تمارس حكمها في سياسة الأمور العليا، ولا تتدخل في الأزمات المحلية إلا نادراً، ورصد كاتب صيني انتهاك البكوات والنبلاء المحليين والجهود التي تبذلها الإدارة الصينية لدفعهم على التنازل بعضاً من حقوق الماء للفلاحين الفقراء.

وفي القرن الثامن عشر فقد لاحظ كاتب مانشوري أن البكوات أو طبقة ملاك الأرض يملكون الحق على أصحاب المنازل الذين لديهم خدم أو عبيد ويجبرونهم على العمل في حرث الأرض لهم^[1]، ومع ادعائهم بحق استخدام عبيدهم فالبكوات بدعوى أحياء أرض الموات يدعون بحقهم في استعمال القنوات التي حفرها أولئك العبيد^[2]، الذين يجبرون على العمل هنا وهناك، وعند دراسة الحقل مثلاً في كوجار فإن أحد ملاك الأرض استخدم أكثر من مائتي عبد لصاحب منزل بدعوى أن له حق خدماتهم أو أجورهم.

وعندما يصل الماء إلى الحقل يتم حساب حصته للمزارع بمعايير تدفقه لعدد من الساعات حسب عرض وعمق القنال، وأما أصحاب الطواحين يحق لهم استعمال الماء لإدارة عجلات الطواحين ثم إعادته إلى القنال، والإشراف والتسجيل والتنظيم على هذه الأمور يتم تحت سلطة رجل يسمى ميراب Mirab الذي يتم انتخابه محلياً، ويلعب في انتخابه الأسر المحلية ذات النفوذ القوية لاختياره، ورجال الدين الإسلامي لهم حقوق تقليدية معينة وخاصة في التقاضي.

ومن المشاكل التي تحدث بين الأهالي عادة على الماء، عندما يصر كل مزارع أن يحصل على الماء لأرضه، وهذا يحدث دائماً بين الأهالي الذين في أعلى مجرى الماء وبين الذين في أسفله، وقد استمر النزاع لخمس وعشرين عاماً بين يار كند المدينة الكبيرة والقوية وبين مركيت البلدة الصغيرة، ولكنها غنية بزراعة القطن، والنزاع يمكن أن يكون من الإدارة الأدنى إلى الإدارة العليا.

والنزاع بين قريتي بوناك Punak وماليهالي خان Malihalihan في ضاحية جيرا رفع إلى إدارة منطقة خوتن، التي قررت أن يسحب الماء من بوناك لمدة يومين

[1] Sung Yin, A Sketch of Sinkiang, written in the 18th century, published in 1821, Ch.3, p.28 (in Chinese)

[2] E. Zalkhina, Outlines of the Agrarian Problem in Central Asia, p.9 (in Russian)

في كل من شهر فبراير وأبريل ويونيه إلى ماليهالي خان، وتدخلت السلطة العليا لحل النزاع، وكان فرصة للموظفين الصينيين لأخذ الرشاوي.

ألواحات قد تختلف كثيرا في حجمها ولكنها تتشابه كثيرا في بنائها، وكل واحة قد تكون قرية أو مدينة يحيطها السور، وألواحات الكبيرة قد تكون لها بلدات عديدة، ويدعى هذه أسواق Bazsrs ويوجد فيها الصانعون مثل الحدادين والنجارين والنحاسين والإسكافيين وصانعي العربات، وفي الأسواق الصغيرة التي لا تكون فيها متاجر ثابتة ويكون سوقها اليومي في مختلف أيام الأسبوع، ويتردد إليها التجار وأصحاب المهن والصنعة.

وتوجد حول الأسواق المزارع الملحقة بأصحاب المساكن التي تملكها، والعمل المهم لأسواق ألواح هو توزيع مخلفات الليل لاستعماله سمادا في المزارع، وما يكون قريبا من الأسواق تستقبل الكثير من مخلفات الليل مما يساعد على ظهور الحدائق التي تنتج الفواكه والخضروات لبيعها لغير المزارعين من السكان، وفي كوجار وهي واحة كبيرة إلى حد ما يستعمل السماد بوفرة ضمن قطر قدره خمسة أميال تبعد من منطقة المدينة، وفي هذا النطاق توجد حديقة قدرها خمسة وسبعون فدان تنتج فاكهة المشمش وهي سلعة رائجة في السوق.

وخلف هذا النطاق ينخفض استعمال السماد سريعا، وبعدهما نطاقين آخرين مختلفان بالسماد، فالأقرب لمزارع الأرز والذرة والقمح، كما يمكن زراعة القطن، وأما القمح والذرة يمكن زراعتها بالتناوب، وفي النطاق الثالث عادة لا يصل إليه السماد وتزرع المحاصيل الصلبة مثل الدخن والسرغوم (Kaoliang) والبطاطس ثم يترك للممارسة القادمة، وعندما تترك بعض الحقول خاليا للمتابعة القادمة، يكون الحقل الصغير في التنافس مع الحقل الكبير، وفي هذا الحال فإن نفقات النقل إلى السوق ترتفع سريعا وينخفض سعر الأرض.

وخلف هذا النطاق الثالث يكون الصحراء حيث لا يجد الماء، ومع ذلك يوجد في بعض الأوقات على حواف ألواح منطقة رعوية صغيرة ترعى فيها الأغنام كما ترعى على جوانب الطرق، وفي الأراضي التي لا تصلح للزراعة في ألواح، كما ترعى في الأراضي الصحراوية التي تتلاشى فيها الأنهار الجافة. والدولاني Dulani وهم شعب رعاة غير معروف، ولكنه في الأصل رعوي يعيش حياة تشبه الغجر منعزلا عن الأويغور سكان واحات تاريم، ويربي الأويغور والدولان الأغنام لجودة لحمها أكثر من أصوافها.

ومعظم الطعام يستهلك في ألواح التي تنمو فيها، وقد يفيض في بعض ألواح، ويتم بيعه إلى ألواح التي تعاني النقص وتحتاج إليه، وغذاء الأويغوري القروي يقوم عموما على الحبوب، واستهلاك السكر والسمن واللحم قليل، ماعدا الأغنياء، وعادة لا يستعمل الحليب في الطعام، وقدّر السعر الحراري اليومي لقروي بالغ في قارغيليق ب ١٢١٥ من دقيق القمح ومن الذرة ١٢١٥ ومن لحم الضأن ١٥٠ في عام ١٩٤٣م.

وطبقا لأرقام المسح الميداني الحديث التي ساعد في التقديرات التقريبية مما لم يمكن وضع جدول الإحصائية الدقيقة، يفيد أن محصول القمح السنوي يبلغ ٢٥٣٠٠٠ طنا في سنكيانغ، مما يمثل ٤٤٪ من مجموع محاصيل الحبوب والبقول والبنجر، و محصول الذرة يبلغ ٣٣١٠٠٠ طنا أو ٢٨٪، والرز ٧١٠٠٠ أو ٦٪، والشعير والشوفان والبازلاء والتي تصنف جميعا وتستعمل على أنها حبوب الغذاء، وتزرع جميعها في جونغاريا في الحقول التي تروى بسقوط الأمطار، وتباع لغذاء قوافل الجمال التي تسير مسافات طويلة في تجارتها وقت السلام إلى جمهورية منغوليا الخارجية عبر منغوليا الداخلية إلى شمال الصين عبر الممر الصحاري في شمال غرب الصين. ومجموع المحصول يبلغ ٠٠٠ ١١٩ طنا، أو ١٠٪، وأما الدخن وفول الصويا والبقول الأخضر يزرع بالتناوب

في نفس الحقل ويصل الإنتاج إلى ٧١ ٠٠٠ طنا، أو ٦٪، والسهم والشلجم وبذر الكتان فيقدر ٧١ ٠٠٠ طنا أي ٦٪.

ومن المحاصيل الثانوية زراعة الشمام في جميع ألواح، وشرائح الشمام المجفف يصدر بالقوافل من قمول إلى الصين على أنها من الحلوى اللذيذ، وينافسها زبيب تورفان في الشهرة، وفي ممرات التلال في طرف تورفان وفي خوتن يزرع العنب ذو الشهرة المحلية.

وأغصان الصفصاف الذي ينمو على طول ضفاف القنوات يحصد عادة لاستعمالها وقودا، والنوع الآخر من الوقود الذي يؤدي استعماله إلى تناقص السماد هو روث الحيوانات، التي يجمعها كبار السن والأطفال، الذين يلاحقون الحيوانات في المراعي والطرق، ومن أهم مصادر الوقود شجرة الطرفاء Tamarisk الصحراوي التي تجمع من وراء ألواح.

ومن بعض خصائص سنكيانغ الزراعية أن قمح الشتاء ينمو في شمال تيان شان ذا الطقس البارد حيث يحمي الثلج البذور، ولكن في جنوبها يمكن زراعة قمح الربيع فقط، حيث يقل غطاء الثلج وتعرض البذور للتجمد بالأرض، ويميل الفلاحون إلى استبدال القمح بالرز في الحقول التي تصير قلوية بسبب كثرة الري، ومن جهة أخرى فإن إنتاج الرز أقل من الذرة لأن الفلاحين الأويغور لا يعاملون مشاتل الرز الصغيرة كما يفعل الصينيون، مع أن نسبة العمل التي يستنفد في خدمة قطعة الأرض في سنكيانغ تقريبا نفس النسبة في الصين ولكن الإنتاج قليل.

والقطن محصول زراعي تجاري هام في سنكيانغ، وقد عرف زراعته في تورفان منذ أوائل عهد عائلة تانغ Tang المالكة (٦١٨-٩٠٧) كما استخدم لدفع الضرائب في ياركند في عام ١٧٥٠^[1]، كما كان بالدرجة الثانية في الأهمية

[1] Kuropatkin, p.126

بعد القمح في المحاصيل الصادرة إلى روسيا في عام ١٧٧٦م^[1]، ومنذ عام ١٨٩٠م، يتركز زراعته في جنوب تيان شان و تورفان ومركيت (على الطرف الشمالي لواحة ياركند) من أوائل منتجي القطن، وتليها ياركند وخوتن وكاشغر واقسو.

ويزرع نوعان من القطن محلي وأمريكي، وبعد أن فشل تجربة زراعة قطن بحر الجزيرة Sea Island في تاشكند في سبعينات القرن التاسع عشر نجح تاجران روسيان بلياكوف Belyakov لاختين Lakhtin بزراعة قطن المرتفعات Upland في عام ١٨٨٣م، وبعد عام ١٨٨٥م بدأت الأنواع الأمريكية تحل محل الأنواع المحلية في فرغانة وسمرقند، وبعد ذلك بسنوات عمل العملاء الروس على تحسين النوع الذي يزرع في سنكيانغ بتوزيع البذور الأمريكية على مزارعي القطن فيها^[2]، وحتى عام ١٩٤٢م تم استيراد كميات كبيرة من البذور سنويا من الاتحاد السوفياتي، خاصة نوعي الأصلي الأمريكي وهما «شردر Shredder» و «نوفرزكي Novrozki» من الأنواع الأمريكية ذات التيلة الطويلة من ٢٥-٢٩ مم، التي تساعد على غزل نسيج ٣٢، بينما أنواع التيلة القصيرة في آسيا الداخلية لا يساعد إلا على نسيج ٢٤، وفي عام ١٩٤٣م تم زراعة مائة ألف فدان من القطن منها ٧٣٪ من النوع المحلي و ٢٣٪ من الأنواع الأمريكية.

ويأتي الحرير المحصول التجاري في الأهمية منذ القدم، ومن ألواح المشهورة خوتن وياركند، ويصنع جزء من الحرير محليا منسوجات، وقد هبطت كثيرا من قيمتها وجمالها في السنوات الأخيرة، وكان يصدر منها إلى الاتحاد السوفياتي والهند، وتربى دودة القز على أوراق أشجار التوت التي تنمو على أطراف الطرق، كما توجد بعض حدائق أشجار التوت البري، وفي

[1] Chuan Yuan, Geography of the Western Regions, written 1776, published 1818, chuan I, p.1 (in Chinese)

[2] Economy in Sinkiang , Chinese Weekly Economic Bulletin , Chinese Government Bureau of Economic Information, pp.16,109: April25,1925

السنوات الأخيرة حاول بعض الروس على تحسين دودة القز بجلب البيوض من بغداد واورو Oro واسكولي Ascoli، وبلغ إنتاج الحرير ٣٥٠ ٠٠٠ كيلو في عام ١٩٤٢م، ولكنه هبط بشكل قاس إلى ١٠٠ ٠٠٠ كيلو في عام ١٩٤٣م.

والوحدة الرئيسة المنتجة في الواحة الزراعية هي الأسرة التي يعيش أفرادها تحت سقف منزل واحد، وهذه الأسرة غالبا ما تضم أبناء متزوجين، مما يجعلها أكبر في المتوسط عن الأسرة الزراعية في الصين، وفي وسط الصين (ووكيانغ Wukiang) متوسط الأسرة يتكون من أربعة أشخاص^[1]، وفي شمال الصين (باوتينغ Paoting) من ستة أفراد^[2]، وفي شمال غرب الصين (كانسو Kansu) فالأسرة من ٨٧، ٦ أشخاص^[3]، وحسب مسح ميداني في خوتن فالأسرة من ٩٥، ٧، وفي كاشغر فالأسرة تتكون من زوجين كبيرين وولدين وثلاث كنان، وفي واحة قوميش الصغيرة فالأسرة تتكون من والدين وثلاث أولاد وكتنين وابنة مع زوجها ومجموعهم تسع.

بينما متوسط المزارعة في حوض تاريم يتراوح من ٥، ٤ فدان إلى ٦ فدان، أي: أكبر من نسبتها في عموم الصين، حيث تكون نسبتها ٤٢ فداناً^[4]، والأسرة الكبيرة مثلاً في خوتن تعني ٥٨ فداناً للرأسمال، بينما في عموم الصين ٦٨.

وبالطبع يوجد كثير من المزارع الصغيرة التي يقل متوسطها عما سبق، والمسح الميداني لخمس وستين أسرة في قريتين في واحة خوتن أظهر أن المزرعة الصغيرة تكون من ٠٨، ١ فدان، وأن المزرعة الأكبر ١٨ فداناً، ومن تحليل الأرقام لـ ٦٥ من الأسر يتضح أن متوسط حصة كل أسرة غنية هو ١، ١١ فدناً، وأن متوسطي الفلاحين ٧، ٥ فداناً، وأن الفلاحين الفقراء ٨، ٢ فداناً^[5]،

[1] Fei Hsiao-tung, Peasant life in China, New York, 1939, p.29

[2] Farm Survey Conducted by Institute of Social Sciences, Academia Sinica

[3] Farm Survey Conducted by the National Resources Commission of China

[4] Geo>B. Cressey, Asia, Lands and Peoples, New York 1944, p.84

[5] ومهما يكن فقد تبين أن الفلاحين الأويغور لا يقيسون أراضيهم بحجمها ولكن مصطلح يحدد مقدار البذور التي يمكن أن تنشر فيها المقياس الأويغوري لمثل هذا الموضوع يسمى

ومزارع الفلاحين الفقراء صغيرة لاستعمال حيوانات الحراثة فيها، والمشكلة كيف يمكن لأسرة أويغورية كبيرة الاستفادة بكفاءة من مثل هذه المزرعة الصغيرة.

التجارة وموارد المال:

واليوم كما كان في جميع أدوار التاريخ إن أكبر قسط من تجارة سنكيانغ هي مع الممالك التي تقع في الغرب، وليس مع الصين التي تقع في الشرق، وقد حظي الاتحاد السوفياتي في تجارته مع سنكيانغ بعوامل جغرافية حيث تقع الأجزاء الغنية منها على طول الحدود الغربية، ويتم نقل البضائع بينهما بطرق قوافل التجارة السهلة، ومن الصعب تغيير سير التجارة حتى بتشديد طرق القطارات وتهيئة طرق المواصلات مع الصين؛ لأن على الطرق الجديدة ان تقطع مئات الأميال من الأراضي القاحلة التي لا تتوفر فيها الأسواق والعمال الذين يمكن استئجارهم لحمل الأمتعة.

ومحاصيل الزراعة والرعي تساهم في تجارة سنكيانغ، ونظريا يمكن كل من المزارعين في ألواح أو الرعاة في مراعي السهوب الحياة بدون تجارة، وطريق حياة كل منهما يساعد على توفير ما هو ضروري لما يطلبه المجتمع، وتاريخيا كما يلاحظ لم يستمر طويلا مثل هذا الانغلاق، وهناك دلائل على وجود التجارة في العصر الحجري الحديث، وفي الواقع الفقراء من الفلاحين والرعاة فقط لا يجدون ما يبيعونه من الفائض، وعندما جاء الصينيون إلى سنكيانغ في عهد عائلة هان لأول مرة ذكرت السجلات التاريخية وجود تجارة

« جارك Charak » الذي يختلف من مكان لآخر طبقا لمقياس البذور، في كاشعر الجارك يساوي 24 رطلا من القمح و25 من الشعير أو 26 من الذرة، والرقم الناتج من هذا المسح الميداني يظهر أن متوسط المزرعة التي يزرعها أسرة واحدة تكون 25.8 جارك، والأكبر يزرع 100 جارك والأصغر ست جارك، وتبين من هذا المقياس أن الجارك ألواح من البذور يزرع 18. من الفدان وعلى هذا إن متوسط حجم المزرعة في هذه القرى هو أربعة ونصف فدان.

بين ألواح: مملكة شان شان الصغيرة (قريبة من لوب نور) بولي Pu-li وأيناي I-nai كانت تجلب القمح من ألواح الكبيرة، جرجن Charchen و ياركند وكاشغر، و نظرا لأن واحات جارخيليق وتورفان كانت أحيانا تحت حكم الهون «هسيونغنو Hsiungnu» الرعوية كانت هناك فترات لتجارة ثلاثية بين الصينيين والرعاة وألواح مع التوقف في فترات الحروب.

ومن الصعب فصل التجارة القديمة عن الدبلوماسية القديمة، ومن ناحية أخرى كانت تجارة طريق الحرير عبر آسيا الداخلية لمسافات طويلة بسلع فاخرة تعبر ألواح بدون أن يكون ذا أثر في الحياة الاقتصادية، وفي نفس الوقت عمل حكام ألواح في التجارة بأسلوب مغاير وذلك بإرسال السفراء بالهدايا إلى البلاط الصيني، وبالمقابل أرسل الصينيون هدايا قيمة، مادام ذلك يكلف أقل من إرسال البعثات الحربية لاحتلال ألواح ومحاربة الهون «هسيونغ نو Hsiungnu»، كما تم إرسال الحرير هدايا دبلوماسية من قبل حكام ألواح إلى الممالك الروسية في آسيا الداخلية وأفغانستان وإيران، وفي المقابل تلقى هؤلاء هداياهم، لأن ألواح كانت محصورة بين الرعاة (الهون) وبين الصينيين، وهما يتنافسان في القوة والسيطرة، وممالك ألواح الصغيرة تعمل لاسترضائهما.

والأشكال الأخيرة من التجارة أخذت أشكالها العادية: عندما يمكن معرفة قيمة السلع التجارية عندئذ يمكن التنازل عن التمسك بالاقتصاد وشراء الطعام وغيره من الضروريات، وفي الوقت الحاضر هناك تجار القمح بين ألواح التي لا تكون فيها مدن كبيرة مع التي تكون فيها، مثلا: من جيرا إلى خوتن، من قراقاش إلى كاشغر، وحتى من ياركند حيث سكانها أصغر بالنسبة إلى الأراضي الزراعية إلى كاشغر، وهي أكبر مدينة في المقاطعة، وقمول التي تعاني نقصا سنويا بقدر ٥٠٠٠٠٠ مكيال وتشتري الحبوب من موليهو Muleiho وكوجنغنز Kuchengtz. وتورفان التي تعتبر منطقة زراعة الغذاء تستغل ذلك لزراعة العنب

وتشتري الحبوب من واحة توقسون، وحركة الحبوب في جونغاريا تستغرق مسافة كبيرة، حيث تأتي الحبوب إلى أرومجي من غولجه التي تبعد عنها ٤٠٠ ميلا، وقد تستغرق الرحلة عدة شهور في فصل الشتاء الذي تتساقط فيه الثلوج بكثافة مما يعيق حركة العربات وتكلف الأجر الكبير، والتاي تجلب الحبوب من كوجنغتز Kuchengtze ومن بعدها حيث تكون أجرة النقل بالجمال أرخص؛ لأنها تتغذى على الأعشاب في السهوب في طريقها.

الحبوب والأقمشة والتبغ سلع رئيسة في التجارة بين الواحات والقبائل، وبالمقابل مواد التجارة منهم تحتوي على الأغنام والخرفان والبقر للمسالخ والذبح والثيران والخيول للعمل والخيول الجيدة للركوب والصفوف والجلود مواد خامة لأصحاب المهن والصناعة.

وأحدى مميزات التجارة الخارجية لسنكيانغ الضرورية تجارتها مع الصين؛ لأنها تتميز بالعناصر الاقتصادية والسياسية في التجارة مع بلد أجنبي على الرغم من السيادة الصينية، وإن سنكيانغ أصبحت مقاطعة إدارية منذ عام ١٨٨٤م، والولاة الصينيون لحكومة المقاطعة يعتبرون أنفسهم دائما حكاما مستقلين، وفي عهد الحكم المانشور كانت سنكيانغ تتلقى ميزانية ملكية من بكين، وكان هذا دعما سياسيا أكثر أهمية من أنها عملية التجارة، ومنذ عام ١٩١١م في عهد الجمهورية كانت سنكيانغ في الأغلب تعتمد على نفسها، وحكامها يحتكرون كل التجارة حتى مع الصين، ليس بهدف بناء اقتصاد المقاطعة، ولا برغبة إيجاد التوازن التجاري بين سنكيانغ وبقية الصين، بل للإغتناء الشخصي في تراكم الثروة بطرق يمكن التفاوض عليها؛ لأنهم جعلوها في مناطق خارج الصين.

وكذلك تعيق العوامل الجغرافية تجارة سنكيانغ مع بقية الصين؛ لأن صحراء سنكيانغ الشاسع يفصلها عن أطراف الصين، والمسافة بواسطة قوافل الجمال مثلا من كوجينغتز Kuchengtze عبر منغوليا الداخلية إلى مركز قطار الحديد

في مقاطعة سويوان Suiyuan لا تقل عن ١٢٠٠ ميلا، والمسافة ستكون أكبر بالعربات والقوافل من قمول عبر الصحراء إلى ممر كانسو ثم بالعربات من كانسو إلى محطة القطار في مقاطعة شنسي Shensi، والنقل بالعربات أكثر كلفة من النقل بالجمال، وعلى هذا ليس من المستغرب أنه قبيل ثلاثينيات القرن العشرين وقبل سنوات الحرب كانت نسبة تجارة سنكيانغ الخارجية مع الصين بنسبة ١٢,٥ ٪ فقط.

تاريخيا بعد عصر طريق تجارة الحرير وبعد تجارة العصور الوسطى كان الشاي السلعة التجارية الهامة بين الصين وكاشغر منذ عام ١٧٥٠م^[1]، ولاتزال سنكيانغ تستورد منها الشاي والحرير والبضائع القطنية المصنعة التي تنافس الغزل المنزلي، والسلعة المربحة ولكنها ضرورية مثل الخزف والسجائر والكشافات الضوئية والقبعات الغربية، وأما صادراتها الثمينة إلى الصين فهي الزبيب واليشم والفراء، وأكثر الصادرات تأتي من جلود الأغنام والجمال وأمعاء الأغنام (لصناعة السجق)، وكميات الصادرات إلى الصين تعتمد على السوق الروسي؛ لأن قرب المسافة إلى مركز القطار في الاتحاد السوفياتي يجعله منافسا قويا لما يمكن تصديره إلى الصين.

والتجارة مع جمهورية منغوليا الشعبية قليلة الأهمية دوما؛ لأنها بلاد رعوية وتتصل بالمناطق الرعوية في سنكيانغ، وما يمكن أن تصدره إليها هو الحبوب ويمكن نقلها على الجمال بسعر رخيص.

والتجارة مع الهند قليلة، فقد وصلت نسبتها ٥٪ في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين، وذلك بسبب مشكلة الطريق الرئيسة التي تعبر خمس ممرات جبلية، لا يقل ارتفاعها عن ١٧٠٠٠ قدما، من قراقوروم إلى ليه، ومنها تنحدر عبر ممرات جبلية إلى كشمير. ومتوسط فقدان حيوانات القوافل فيها تصل إلى

[1] Kuropatkin, op>cit

٤٠٪، ومع أن السياسة البريطانية عملت على تشجيع التجارة مع سنكيانغ إلا أنه في السنوات الخمسين الأخيرة لم يتحقق غير الهدوء، وقد استقر التجار الهنود في واحات الجنوب الغربي يستثمرون مدخراتهم جزئيا في المعاملات البربوية التي أدت إلى محاكمات واستيلاء، وعمل بعضهم حتى السنوات الأخيرة في زراعة القنب الهندي Charas وهو نوع من النبات ينتمي إلى الماري جوانا Marijuana المخدر، ذات القيمة العالية ونقلها عبر الممرات إلى الهند ويزيدهم ربحا، وقد وصلت نسبة تجارة المخدرات إلى الهند ٤٢٪ في عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨ م، وكانت من الأسباب التي قضت على مصالح بريطانيا في سنكيانغ، وذلك خلال حكم شنغ شيه تساي Sheng Shih-ts`ai الذي عرف بشعار «ضد الأمبريالية».

وهذه القيود التي حددت تجارتها مع جهات أخرى سهلت التجارة مع روسيا، وكانت الجهة الوحيدة التي تبث النشاط في الحياة الاقتصادية في سنكيانغ، وكانت التجارة معها قد وصلت نسبتها إلى ٨٢,٥٪ من تجارتها الخارجية في أوائل ثلاثينات القرن العشرين، وأكثر المناطق السكانية والإنتاج في سنكيانغ تقع بالقرب من روسيا من أي سوق آخر، وهذا الوضع هو الذي مكّن السياسة السوفياتية من احتكاره كاملا وإن لم تخلقها.

وكان القطن أهم سلعة مصدّرة إلى روسيا من ألواحاحات منذ عام ١٨٩٠ م، وسجلت الجمارك السوفياتية ٢٦٧٦ طن متري من القطن المستورد من سنكيانغ في عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧ م، بينما نسبة القطن المصدر يقل عن ١٠٪ من مجموع صادراتها إلى الاتحاد السوفياتي، وتظهر أهميتها التجارية أن أكثر من نصف محصول واحدة تورفان، وهي من أكبر ألواحاحات إنتاجا يباع عادة إلى الاتحاد السوفياتي، وعندما منعت السلطات الصينية التجارة مع الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٤٣ م، وتدهورت العلاقات السياسية تأثر الإنتاج وهبطت الأسعار كثيرا.

ومن المناطق الرعوية كانت المواشي أهم الصادرات إلى الاتحاد السوفياتي، وتليها منتوجات المواشي من الصوف والجلود، ولأن دوائر الإحصاء الروسية لا تعطي الأرقام لهذه الصادرات فمن الصعب تأكيد قيمتها الفعلية، ولكن من الشاهد أنها تتجاوز كثيرا قيمة صادرات ألواح، وقبل الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية قدر عدد الأغنام فقط التي بيعت إلى روسيا بـ ٠٠٠ ٣٠٠ رأس في عام ١٩١٣م، ويمثل ١٠٪ من عدد الأغنام الموجودة في منطقتي غولجه وجوكوجاك، ثم تدهورت التجارة كثيرا إبان الثورة والحرب الأهلية، ولم تتحسن إلا في عام ١٩٢٥م، فقد تم تصدير ٩٠ ٠٠٠ رأس من الغنم في عام ١٩٢٦م، وأحد الكتاب الروس ذكر أنه في النصف الأول من عام ١٩٢٦م، بلغ قيمة مشتريات الروس من الأغنام ما نسبتها ٣٢٪ من جملة المشتريات من سنكيانغ، وأن مجمل الواردات من المواشي منها بلغ نسبة ٤٨٪^[1]، وذكر كاتب روسي آخر أن قيمة المواشي ومنتوجاتها التي اشتراها السوفيات من سنكيانغ، بلغ نسبتها ما بين ٧٩-٩٣٪ فيما بين ١٩٣٠-١٩٣٣م^[2].

وهذه التجارة كانت مفيدة إلى الطرفين، وعندما انخفضت التجارة إلى أدناها فيما بين ١٩١٨-١٩٢٤م، عانت سنكيانغ كثيرا، حيث بيع القطن بأقل سعر، لتقابل نفقات نقله بالقوافل لمسافة ١٥٠٠ ميلا من تورفان إلى محطة القطار في سويوان Suiyuan ومنه بالقطار إلى تينتسين Tientsin ومنها بالسفن إلى شنغهاي، حيث ينافس القطن الأمريكي، وخلال الانحطاط وتدهور الأسعار قَدَّم بعض رجال الأعمال الأمريكيان والألمان وتجار صينيون من تينتسين Tienstin لاحتكار تجارة منتوجات الأغنام وتصديرها مع الصوف والجلود إلى الساحل البحر البعيد واستيراد المنسوجات اليابانية والأحذية الأمريكية والسكر وغيرها من المصنوعات، واستمر الحال إلى أن بدأت التجارة تتحسن مع روسيا

[1] N. Stefanov, The Foreign Trade of the U.S.S.R. in Central Asia, in Planned Economy Moscow, Oct.1926(In Russian)

[2] P.M. Fesenko and Others, Iran, Afganistan and Sinkiang, Moscow,1936, p.346 (in Russian)

وارتفعت الأسعار، ثم لم يتمكن هؤلاء الرجال من المنافسة طويلا.

وقد أشار الباحثون الروس إلى أن نمو المدن الاستهلاكية في آسيا الداخلية السوفياتية كانت تعمل على زيادة طلب اللحم من سنكيانغ^[1]، ومناطق زراعة القطن السوفياتية هم تجار يشترون الرخيص^[2]، وعندما تم التحول من الزراعة المتنوعة إلى الزراعة المتخصصة، وخاصة في أوزبكستان، صاحب ذلك عمليات التصنيع في آسيا الداخلية السوفياتية كلها، وارتفع الطلب على الحيوانات من سنكيانغ، وأدى هذا إلى رفع العمليات التجارية في الاقتصاد الرعوي لقبائل الرعاة في سنكيانغ.

وواحاحات سنكيانغ مع كثافتها السكانية نسبيا كانت تضطر لشراء كثير من مواد الاستهلاك من الاتحاد السوفياتي أكثر مما تبعه، ولكن من جهة أخرى إن شمال سنكيانغ الذي سكانه قليل ولكن ثرواته من المواشي كثير كان يبيع إلى الاتحاد السوفياتي أكثر مما يشتري منه، وهم بفائض أموالهم يشترون من ألواحاحات، وهكذا فالتجار بين السوفيات وسنكيانغ تعمل في دائرة متحركة — من جونغاريا إلى الاتحاد السوفياتي، ومنه إلى ألواحاحات ومنها إلى جونغاريا تكتمل الدائرة، والنتيجة عندما تندهور التجارة مع الاتحاد السوفياتي، فالتجارة تعاني كثيرا في سنكيانغ.

وفي الأوقات العادية عندما تكون دورة التجارة نشطة يتعزز الميزان التجاري لصالح سنكيانغ، ولكن لسوء الحظ لا يمكن تقرير مقدار الفائض التجاري؛ لأن دائرة الإحصائيات في سنكيانغ لم تنظم إداريا أبدا، علاوة أن الإحصائيات السوفياتية تنقصها الكثير من الوضوح، والروبل المستعمل في الإحصائيات السوفياتية يتم تقييمه أكثر من مرة، بالإضافة إلى أن الصادرات الروسية تكون

[1] Stefanov, op.cit

[2] O. Buskshtein, "The Trade of the U.S.S.R. with sinkiang" "New East, 1928" no.10-21 (in Russian)

بسعر مكانها، والمبالغ المحصلة خالية من تكاليف الشحن، بينما المستورد يتم تقييمه مع تكاليف الشحن، لذلك فإن تكاليف الشحن والتأمين تضاف إلى تكاليف قيمة البضائع.

ومما يذكر أيضا أن تجارة الأراضي الحدودية لروسيا مع منغوليا، وسنكيانغ كانت تفوق كثيرا من تجارتها مع الصين في أوائل عام ١٩٠٥م^[1]، ومن المحتمل جدا أن تكون على نفس المستوى حاليا، وفي عام ١٩٣٢م كانت منغوليا وإيران هما الأولى والثانية في تجارة الاتحاد السوفياتي مع بلدان آسيا، بينما كانت سنكيانغ الثالثة وتلتها تركيا وأفغانستان.

وانتهجت التجارة السوفياتية مع سنكيانغ النموذج الاستعماري بشراء المواد الخام، وبيعها بضائع مصنعة، وفي عام ١٩٣٢م بلغت نسبة المنسوجات القطنية ٧٢٪ من جملة مبيعاتها لسنكيانغ، تلتها بالأهمية المعادن والمصنوعات الحديدية والأجهزة الكهربائية والأواني والزجاج والنفط والكبريت ودودة القز، وقد مارست السياسة المالية السوفياتية سحب ثروة المستعمرة بالشراء رخيصة والبيع غاليا، وفي عام ١٩٢٣م في المؤتمر الثاني للمفوضيين الوطنيين للتجارة الخارجية تقرر تخفيض أسعار المصنوعات السوفياتية المصدرة إلى بلدان آسيا^[2].

ولعل السعر وليس النوع كان هو سبب الانتشار، مما يفسر قول الكاتب السوفياتي الذي قال في عام ١٩٢٦م: «إن منسوجاتنا في كاشغر نافست كثيرا البضائع الهندية البريطانية في الأسواق لجودة نوعها»^[3]، ومنذ عشرين عاما لا يوجد بلد صناعي يوافق على جودة البضائع السوفياتية، ولكن في الواقع أن المشترين والمستعملين لها في سنكيانغ لا يفضلون لبس المنسوجات السوفياتية

[1] H.B. Morse , Chinese Imperial Maritime Customs "Returns of Trade and Trade Report m 1905, Shanghai, 1906,Part I, vii

[2] Violet Conolly, Soviet Economic Policy in East, London, 1933, p.141

[3] Stefanov, op.cit

فقط، بل يستعملون العربات الروسية القوية التي اعتبرها سائقو العربات في سنكيانغ وشمال غرب الصين أجود من العربات الأمريكية للعمل الشاق.

وفي السنوات الأخيرة نهجت سياسة التجارة السوفياتية أسلوبا جديدا لزيادة التجارة، حيث قررت منح مكافأة قدرها ٢٠٪ في مقابل مقايضة المواد الخام بالمصنوعات السوفياتية، والمثال الفعلي لهذا القرار: أن كرتون سجائر سوفياتية جعلت مساويا لقيمة كاتي واحد (كاتي يساوي ١٣ رطل) من الصوف في المقايضة، بينما كانت أسعار كرتون سجائر بقيمة ٨٤٠ دولار سنكيانغ وسعر كاتي الصوف ٧ دولار سنكيانغ.

وبالرغم من هذه الاتفاقية، يجب القول إن الحياة الاقتصادية في سنكيانغ عام ١٩٤٨م كانت تعاني أزمة شديدة، وقد توقفت التجارة مع الاتحاد السوفياتي تماما، وبلغ التضخم في المقاطعة درجة مهلكة، ويمكن توضيح الوضع ببحث تاريخي مختصر.

فقد كان الروبل القيصري الروسي مقبولا في سنكيانغ ومفضلا في الدوائر المالية الصينية، كما كان فروع البنك الروسي الآسيوي يعمل في اورومجي وكاشغر وغولجه وجوكوجاك، وكانت التجارة الخارجية والاستثمارات المحلية تعتمد به، وكان الروبل يعادل ٨ تيله في عام ١٩١٣م، ولكن مع الثورة الروسية في عام ١٩١٧م هبطت قيمة الروبل إلى ٦٣ تيله، ولكنه لم يختفي تماما؛ لأن جميع فروع البنك الآسيوي الروسي وضع تحت الحماية الفرنسية لعدة سنوات، ومع ذلك بلغ قيمة الروبل القديم ١٠ تيله، وبعد ذلك بسنة أو سنتين أصبح لا يسوى شيئا والعملية السوفياتية الجديدة كان غير مرغوبا فيها.

فقد شجع الحاكم الصيني يانغ تسنغ هسين Yang Tseng-hsin تعدد العملات في سنكيانغ، وعدم التوسع في التجارة والحسابات كما ذكر ذلك سابقا في الفصل الثالث، وكان من سياسته عدم إصدار ورقات نقدية أكثر من ٠٠٠٠٠٠

٢٠ تيله، وفي نفس الوقت طبق أنواع من الضرائب، وفرضت الضريبة على الأرض، وكانت تدفع بالنقود، وكانت النقود تدخل الخزينة وتخرج منها بدون أن تسبب التضخم.

وفي هذه الفترة سمح الحاكم بفتح التجارة مع الاتحاد السوفياتي، وكان معظم الأوائل التجار المسلمين بشكل رئيس من التتار المسلمين من مواليد روسيا، وهم يأخذون البضائع عبر الحدود السوفياتية ويعونها لوكلاء مشتريات الدولة السوفياتية، ثم يشترون البضائع من وكلاء الحكومة التجارية، ويعودون بها إلى سنكيانغ، ثم في عام ١٩٢٦م أجاز لوكيل تجارة السوفيات — سنكيانغ أو سوفسيتتورغ Sovsintorg بالعمل من خلال مكاتب أقامه في سنكيانغ، واستعادت التجارة والرعاية فيها حتى تم اغتيال الحاكم العجوز المحافظ الذي كان متمكن في إدارته في عام ١٩٢٨م.

ثم بدأت فترة جديدة ولكنها لم تدم طويلا، إذ تلاشت في عام ١٩٣٤م، وقد تميزت هذه الفترة بثورات المسلمين ودخول المسلمين الصينيين من كانسو، وأخيرا بتدخل السوفيات كما تم توضيحه في الفصل الثالث، وألواح المهمة مثل قمول وخوتن وكاشغر احتجرت ضرائبها التي كانت تدفع لخزينة المقاطعة التي اضطرت إلى طبع النقود، وأدى ذلك إلى التدهور السريع لعملة سنكيانغ، وبينما كانت ٣ تيلات اورومجي تساوي دولارا صينيا في عام ١٩٢٨م، انخفضت إلى ٤٠ تيله اورومجي في عام ١٩٣٤م.

وفي عام ١٩٣٤م نجح شنغ شيه تساي Sheng Shih-ts'ai بمساعدة من السوفيات في السيطرة على الحرب الأهلية، واستعادت التجارة نشاطها بمساعدة الاتحاد السوفياتي، ولكن استقرار العملة احتاج إلى بضعة سنوات، ثم في عام ١٩٣٩م أصدر بنك المقاطعة التجاري عملة ورقية جديدة، نقدا قانونيا وحيدا غير قابل التحويل، وكان الاعتقاد السائد في سنكيانغ أن هذا الإصلاح المالي لم

يكن بالإمكان تنفيذه بدون قروض غير ربوية من الاتحاد السوفياتي.

وفي عام ١٩٤٢م وصل الحاكم شنغ شيه تساي إلى استنتاجات ظن أن الاتحاد السوفياتي قد يخسر الحرب مع ألمانيا، وقد لا يستعيد قوته السابقة، وأن عليه أن يقوم بإصلاحات سياسية واقتصادية، وبدء بجمع التضخم النقدي المطبوع مع احتكار التجارة وجمع ضرائب الأرض وضرائب المواشي عينا، رافضا قبول النقود الذي أصدرته خزينة مقاطعته في ذلك، ثم أسس شركة المقاطعة التجارية التي كانت وكالته الشخصية في الأعمال التجارية، ولكن حتى هذا الوقت كانت التجارة الخاصة تنافسها، فمثلا في كاشغر تعاملت فقط بنسبة ٢٨٪ من التجارة، أي أقل من حصة مؤسسة الأويغور المسمى «شركة الاتفاق» ومع ذلك تولت شركة المقاطعة التجارية احتكار تجارة المقاطعة في عام ١٩٤٢م، وكان رأسمالها ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ مليون دولارا أمريكيا، ومن خلال هذه الشركة كانت الحكومة تشتري الصوف والمواشي والقطن والفراء وغير ذلك بأسعار إجبارية أقل من سعرها في السوق، ويحملها البائع على عرباته ويبيعها إلى «سوفسنتورغ Sovsintorg» ويستبدلها بالمصنوعات السوفياتية، وحتى عام ١٩٤٣م استمر شراء المواد الخام بأسعار إجبارية ودفع قيمتها بالبضائع المصنعة، ولكن حدث التضخم من دفع قيمة المشتريات جزئيا بالبضائع وجزئيا بالعملة الورقية، وفي فرع الشركة في خوتن مثلا كانت ١٥٪ من قيمة الفراء و٢٠٪ من قيمة الحرير والشرانق تدفع بالبضائع المصنعة، وأدى هذا إلى استياء كبير، مما جعل الجنرال تشانغ تشيه جونغ Chang Chih-chung إلى تصفية الشركة في عام ١٩٤٦م.

وفي عام ١٩٤٣م بدأت فترة جديدة عندما قلب الحاكم شنغ ظهره للاتحاد السوفياتي؛ لسوء حساباته وتقديراته، واتجه إلى تحسين علاقاته مع حكومة الصين الوطنية، بدأت العملة الوطنية المتدهورة تصب في المقاطعة لتزيد من التضخم فيها، وفي عام ١٩٤٣م استقبل بنك المقاطعة التجاري وحده من

العملة الوطنية ما مقداره مليون دولار يوميا، مما رفع سعر دقيق القمح من ١٠٠ في يونية ١٩٤٠م إلى ٨٦٥ في ديسمبر ١٩٤٢م، ثم ارتفع إلى ٧٥٠٠٠ في عام ١٩٥٤م، ثم إلى ٥١٧٥٠٠ في سبتمبر ١٩٤٧م.

وقد صاحبَ هذه التضخمَ بعضُ الأزمات الأخرى التي كانت منذ فترة طويلة تكبر وتتطور لتصل إلى حد الانفجار، ومن أوائل ذلك التزايد الكبير في السكان، فقبل أربعين عاما كان عدد سكان سنكيانغ ٢٠٠٣٩٣١ نسمة^[1]، والرقم الرسمي الأخير بلغ ٣٧٣٠٠٥١ نسمة، ومع أن هذه الأرقام لا يمكن الاعتماد عليها كما يجري في إحصائيات الدول المتطورة، ولكن الحقيقة أن السكان قد تزايد على الأقل بما مقداره الثلث أو أكثر، وهذه الزيادة تعني كثرة الفلاحين في أراضي ألواحات وكثرة الراغبين للاستيطان في مناطق الرعاة، مما يزيد في نزاعهم مع قبائل الرعاة، وتزايد عمال المواسم في الصيف الذين يهاجرون من واحات تاريم إلى جونغاريا وحتى إلى الجمهوريات السوفياتية في آسيا الداخلية.

وزيادة الطلب على الأرض تسبب كثيرا من الأضرار السيئة، وكان الفلاحون يعملون على زراعة جميع الأراضي في كل سنة، ولا يتركون شيئا منها لاستعادة قوتها، ونتج من ذلك مثلا أن إحدى القرى في ياركند الذي كان إنتاجه من القمح ١٥ قطعة انخفض إلى خمس قطع من الأرض، ولعل المثال شديد في خطورته ولكنه يمثل الواقع.

كما أن تزايد الضغط على الأرض أدى إلى تفاقم المشاكل؛ لأن تزايد التجارة مع روسيا منذ عام ١٨٩٠م، أدى إلى التغيير، فالزراعة من العمل على الاكتفاء الذاتي تحولت إلى الزراعة التجارية، وبعد عام ١٨٨٤م أجبر ملاك الأراضي القدماء (ملك دار) المعفيون من الضرائب على دفع أراضيهم ضرائب لسلطات

[1] Wang Shu-nan, Hsinchiang T'u Chih, Ch.1, pp.5-7

المقاطعة الصينية، وهذان العمالان أديا إلى ظهور طبقات أصحاب المال التي حلت مكان الطبقات التي كانت مميزاتها بالوراثة، وملاك الأراضي القدماء ذوو الحقوق الإقطاعية، الذين يسمون «البكوات» في الاصطلاح الأرستقراطي حلّ مكانهم طبقة جديدة تسمى «باي» إلا أن هذا كان يعني ببساطة «الغني» المعنى المتطابق تماما مع «بلوتوقراط Plutocrat» الذي شاع استعماله في إنجلترا في فترة التغيير الاجتماعي السريع الذي جاء مع إصلاح بيل Bill في عام ١٩٣٢م، ونتج من هذا تطابق أن كثيرا من الأثرياء الجدد Bais هم في الأصل بكوات سابقين، كما حدث تماما في إنجلترا أن كثيرا من مديري الشركات المساهمة هم من ملاك الأراضي القدماء.

وفي الواقع تحكمت على حالة الفلاح الذي يعيش في نظام أصبحت القيم المالية تتحكم على حياته بتزايد، بينما تقيده قوة النظام القديم مثل التزامه بتقديم خدمات العمل لمالك أرضه، وعلى ضوء المال فقد تم حساب أن دخل العامل المزارع في خوتن لمدة سنة كاملة يساوي فقط في المتوسط من قيمة ١ من ١٢ من قيمة فدان واحد، وهناك مشاركة بالأقساط التي أصبحت تسيطر حياة الفلاحين، وإذا كان مالك الأرض يزوده بمياه الري فقط فعلى الفلاح أن يدفع له نصف المحصول، وأما إذا كان يزوده بحيوانات الحراثة والحبوب والآلات عندها عليه أن يدفع له الثلثين من المحصول أو أكثر، ثم بالإضافة على هذا قد يتحمل الفلاح الضرائب وغيرها من الالتزامات التي قد تبلغ الثلث الباقي من المحصول، وفي النهاية لا يجد الفلاح ما يحصل عليه من عمله قانونا إلا أن يعطيه المالك بما يظنه كافيا لإبقائه حيا، وهكذا يستمر اعتماد الفلاح على المالك يأخذ شكل الاقتراض الذي يخول المالك التحكم الكامل على الفلاح.

والأزمة الاقتصادية في سنكيانغ في الواقع نتجت من تعقد الأمور واستمرار الضغوط بدون أن توجد صمامات أمان تعطي التسوية لمعالجتها.

واستغلال المناجم والصناعات القائمة على المعادن لم تؤد إلى حل المشاكل الزراعية، وقد ظهرت من تجربة الصين بأنه إذا لم يوجد إصلاح زراعي، فالمشاكل الزراعية تسوء أكثر، كما حدث في مراكز الصناعة المجاورة مثل شنغهاي، وفي نفس الوقت تجد الطبقة المدنية أن مستواها ينخفض بالعاطلين القرويين بدلا أن يكون هناك حافز على تحسين مستوى معيشتهم، وفي سنكيانغ كما في جميع أنحاء آسيا تستطيع الطبقات ذات المستوى العالي في المعيشة من تحسين القوى الشرائية، كما توجد حوافز التصنيع، ولكن التصنيع لو حده لا يضع حدا للمشاكل الزراعية.

الفصل السادس: البناء الاجتماعي: الماضي

إرث الاقطاع:

منذ نصف قرن تقريبا عندما كان الرحالة الأوروبيون يترددون إلى سنكيانغ كثيرا، كانت مظاهر الجمود تسود أكثر المجتمعات المستوطنة في ألواحات والرعاة في السهوب، وهنا في قلب آسيا يبدو أن عجلة الزمن متوقفة، وأن المجتمعات الإنسانية لم تنته من تكرار حياتها القديمة ولم يصل إليها التطور.

ويشير الأركيولوجيون من الرحالة الأوروبيين أن الاكتشافات الأثرية الرائعة للماضي التي تظهر من الصور الحائطية والمخطوطات يعكس تاريخ سنكيانغ الاجتماعي، مثل تاريخه الثقافي معقد جدا، ومنذ عشرين قرنا من التاريخ المدون كانت حضارات الهند وإيران والصين تتقابل فيها، ولم يتوقف التأثير والتأثر بينها وبين ثقافات الشعوب المستوطنة والقبائل الرعوية، وقد عاشت بها جملة من الديانات الأوروبية والآسيوية متجاورة لفترات طويلة، واليوم لا توجد مقاطعة صينية مثل سنكيانغ يتنوع فيها البشر واللغات والأديان ذات الأهمية السياسية والنظم الاقتصادية المختلفة التي تتصل ببنائها المجتمعي.

دورات المركزية واللامركزية:

وفي سنكيانغ كانت المجتمعات عبر تاريخها الطويل تتسلق سلم التطور في الواقع، ولكن قد تنحدر في بعض الفترات بعض الدرجات إلى الخلف مثل غيرها من المجتمعات البشرية، وهذا التغيير بين التطور والجمود يمكن أن يوصف ببساطة بمصطلح يفيد أنه تغيير بين المركزية واللامركزية في البناء

الاجتماعي والسياسي.

فالعوامل الجغرافية تميل إلى المركزية، لأن السكان منعزلون في الواحات المنتشرة التي تفصل الصحراء بينها، وحياتهم تعتمد على الاكتفاء الذاتي عموماً وتتشابه مع بعضها، وتميل إلى التطور الاجتماعي المحدود بدون بناء اجتماعي شامل يوحدها في دولة كبيرة، وبالمماثل في السهوب الواسعة كانت الضروريات القبلية لرعاة المراعي يتم تأمينها بتكوين وحدات اجتماعية صغيرة، والتطور للأكبر يعني وحدات مركزية أكثر تتطلب حوافز للتعامل مع المجتمع الرعوي مع المدني والزراعي، وفي سنكيانغ أهم عامل في حفظ ميزان التغيير الاجتماعي هو فترات التحول التي تحدث بين المركزية تحت حكم الإمبراطوريات وبين اللامركزية في فترات غيابها، والعودة إلى الوحدات الاجتماعية الصغيرة.

وهذا التناوب بدوره قد تأثر بالظاهرة المتكررة: الرغبة في استعمال القوة لهزيمة نتائج القوى في سبيل الاندماج الاقتصادي والإدارة بالكفاءة العالية، والإمبراطوريات العظيمة بدلاً أن تصبح أكثر اندماجاً مع دورة التجارة، وجدت أنها من الصعوبة من تنظيم ترابط منتجات مربحة في مختلف المناطق، ذلك أن ميكنة الإدارة كانت سيئة جداً حيث إن جزءاً من الضرائب كانت تذهب لتكاليف جمعها، وكانت تكاليف ومخاطر النقل عالية جداً دائماً في التجارة ولم تكن مربحة إلا إذا كانت صادرة من المنتج الأصلي.

وإلى حد كبير فالتجارة قديماً أو في العصور الوسطى كانت تقوم على الصانع الأصلي أو المزارع وصاحب المعادن أو الصائد الذي يأتي بالفراء الثمين، الذين لا يقدمونها بطلب الربح بل يدفعونها ضريبة بموجب قوانين إجبارية، والإمبراطوريات التي تقوم على الاقتصاد الاجباري تسقط وتتجزء ويفقد الجميع قوة التنافس؛ لأن الأجزاء المكونة في المجتمع يكون اهتمامها

هو توفير الاقتصاد الضروري لحياتها.

وفي فترات المركزية واللامركزية كانت مجتمعات ألواح في سنكيانغ تتطور فيها ببطء بسبب المظاهر المختلفة للإقطاعية، ولا يوجد لدينا وصف تاريخي حقيقي لمجتمع بدائي في سنكيانغ، مع أن مكتشفات العصر الحجري أكدت وجود شعوب بدائية كما كان في الصين، ولكن ممالك ألواح التي وصفتها السجلات الصينية قبل ألفي سنة أكدت أنها كانت إقطاعية أكثر من كونها بدائية أو قبلية في بناء طبقتها وقوتها التي تتصل بالحرب وجمع الضرائب، ولا تصف التواريخ الصينية الحياة الرعوية في السهوب بالمستوى البدائي الحقيقي، ولكن بمستوى تكوين هيئات الحروب وتطور الأعراف الأولية؛ لتنظيم الولاء الشخصي بما يمكن تسميته «الإقطاعية المبكرة» أو «ما قبل الإقطاعية»^[1].

وعموما يمكن القول إن مجتمع ألواح والمجتمع الرعوي في السهوب كانا يتطوران نحو الأنظمة الإقطاعية العليا في فترات المركزية، وبالتراجع إلى الأنظمة القديمة في فترات اللامركزية، والاختلاف الرئيس بين مجتمع ألواح ومجتمع الرعاة أن الرجوع الأخير إلى نظامه القديم تميز بالشدة وبالعودة إلى حالة الحرب المتطورة في شكلها البدائي الإقطاعي، ووصف المجتمعات في سنكيانغ بالإصلاح الغقطاعي يجب أن تكون محل دراسة لنظريات الإقطاع، وفي نظر كثير من الباحثين الغربيين عن الإقطاعية أنه لا يوجد مجتمع في آسيا يمكن أن يوصف بالإقطاعي، ونقص المواد عن آسيا في الدراسات الغربية عن

[1] قام الدكتور أس. يوشكوف S. Yushkov بمحاولة مفيدة لشرح ما يسمى «تطور نشوء الإقطاعية» في مقاله: مسألة دولة الإقطاعية الأصلية (البربرية)

The Question of the pre-feudal "Barbarian" State" in Questions of History, No.7 of 1946 Moscow 1946.pp. 45-64 (in Russian)

والمقالة ذات أهمية خاصة لأنها محاولة معاصرة في نظري تونبي Toynbee~s محاولة معاصرة في نظري تونبي Toynbee~s وذلك بمواد من القرنين التاسع والعاشر من كيفا روسيا Kievan Russia ومود من القرن السادس إلى القرن التاسع من الانجلو ساكسون إنكلترا ومن القرنين 11 و12 من منغوليا

الإقطاعية نسبياً على أي حال هو السبب الرئيس في نقص الدراسات الغربية في العلوم الاجتماعية عن آسيا كلها.

والمشكلة الحقيقية في الواقع فقدان المعيار الإقطاعي الذي يقبله جميع طلاب الدراسات الاجتماعية على السواء، هذا والدكتورة هيلين ماود Helen Maud Cam الكاتبة الإنجليزية عن الإقطاعية تشير إلى (أن المؤرخ الاجتماعي والاقتصادي والقانوني والدستوري يبحثها بفكر افتراضي مختلف، فالمؤرخ الاجتماعي يركز على المساواة أو مقاومة الخضوع، والمؤرخ الاقتصادي يبحث تنظيم الأرض الزراعية بممارسة الحقوق على الأفراد، والمؤرخ القانوني ينظر في العقد القانوني الذي يضمن الأرض وقرار مالكيها، والمؤرخ الدستوري في امتلاك الأرض هو مصدر القوة السياسية وأعمال الحكومة مرتبطة بملاك الأرض.

وتستنتج الدكتورة هيلين قائلة: هكذا في دراسات الفترات المختلفة من قبل هؤلاء المؤرخين الاجتماعيين والاقتصاديين والقانونيين والدستوريين، من خلال استخدام كل منهم أسلوبه يقرر أن الأشياء التي يجدها يمكن أن تكون أو لا تكون أساس الإقطاعية الحقيقية، ويمكن مناقشة ذلك من قبل الآخرين الذي يستعملون معايير مختلفة^[1].

ومن جهة أخرى فإن معظم الدراسات الحديثة عن آسيا الداخلية بالإضافة إلى سنكيانغ هي باللغة الروسية، وحتى في عهود القيصرية الروسية كانت مفردات الإقطاعية مستعملة من قبل العلماء الروس لبحث المجتمعات الآسيوية، ومع قدوم الباحثين السوفيات إليها صار ذلك التطبيق عام، وأما بالنسبة لسنكيانغ فالمصادر الصينية أكثر أهمية في تاريخ العصور القديمة والوسطى، ويعمل

[1] Helen Maud Cam, The Decline and Fall of English Feudalism, in Liberties and Communities in Medieval England, Cambridge 1944, p.203

وقد قرأ الأصل في مؤتمر التاريخ العالمي في زيورخ في عام 1938

العلماء الصينيون بنشاط عملاهما في تحليل المعلومات التاريخية والمشاكل المعاصرة، والمعلومات عن الإقطاعية في عمل هؤلاء العلماء الصينيين مهمة جدا بدرجة أهميتها في الدراسات الروسية.

وفي الصين اليوم ينقسم العلماء بخلافات مشابهة لما كان في جداول القرن التاسع عشر الشهير بين «الغربيين» و«السلافيين» في روسيا، وجوهر النقاش: ما إذا كانت الثقافة الصينية شيئا منفردا بحيث لا يتلائم استعمالها في مناقشة الثقافات الأخرى؟ أم يمكن مقارنة مظاهر التاريخ الصيني بمظاهر تاريخ الشعوب الأخرى؟ وبناء على ذلك يمكن وصفها بالمصطلحات العالمية المقبولة، والعلماء الغربيون حتى عندما يتعرضون لمقاطعة بارزة مثل سنكيانغ يجب أن تكون دراساتهم متناسقة مع الأبحاث التي قام بها العلماء الصينيون الاجتماعيون.

بقايا التاريخ

خلال التدخل الصيني الأول لآسيا الداخلية في عهد عائلة هان المالكة قبل مائتي سنة من قبل الميلاد وبعده بمائتي سنة، كان اهتمام الصينيين هو الدفاع عن المناطق الحضارية الصينية ضد هجمات البرابرة من منغوليا وآسيا الداخلية، وكانت الدولة تتحمل نفقات ثابتة في الدفاع عن هذه الحدود، ولم يكن توسعا مربحا، إلا أنه حدثت التجارة والاعتناء الشخصي، ولم يكن الصينيون إمبريالين يعملون في طريق التجارة، ولم تكن غزواتهم على جلب مواد الخام الرخيصة؛ لأن تكاليف النقل كانت مرتفعة جدا، ولم تكن فيها منتوجات فائضة تبحث عن الأسواق^[1].

[1] Frederick J. Teggart, in his Rome a China: A Study of Correlations in Historical Events, Berkeley 1939

يؤكد على أهمية (توقف التجارة) على طول طريق الحرير عبر آسيا الداخلية لاشتعال الحروب على الحدود الرومانية الصينية، ولكنه لم يتطرق إلى مسألة الاختلاف بين التوسع الهاد لتجارة مربحة، وبين العمل السياسي الذي يهدف السيطرة على البرابرة المحاربين من

وأما التحف ووسائل الترف التي جلبت إلى الصين عن طريق تجارة آسيا الداخلية كان البلاط يتفاخر بها، ومن جهة أخرى فالسلع التي كانت تدخل آسيا الداخلية من الصين كانت تحتوي على الإتاوة التي جمعها النبلاء وأفراد الحكومة من الشعب قبل أن تصل إلى أيدي التجار المختصين، وهي في الواقع ضرائب على الشعب، ولم يمكن بالتأكيد معرفة قيمة هذه البضائع التي تغادر الصين بالنسبة للقوى الشرائية في آسيا الداخلية؛ لأن السجلات الصينية تظهر أن مقدار التجارة كان السماح به قد نظم سياسيا.

وفي هذه الفترة كان هدف السياسة الصينية التأكيد من أن قبائل السهوب لا تأخذ ألواح المستقرة مراكز لها، ولا تستغل مصادرها الغذائية والبشرية، فتأسست حاميات صينية في ألواح بالإضافة إلى دعوة أمراء ألواح السذج لزيارة البلاط الصيني، وفي بعض الأوقات تعاقبهم إذا نالت القبائل الرعوية مساعدتهم، وذلك عندما تكون الصين قوية تستطيع تنفيذ العقاب عليهم، والعلاقات التي من هذا النوع كما نعرف من تاريخ الأقطار الأخرى هي جزء من الأصول الإقطاعية، وكان أمراء ألواح الذين يسمونهم الصينيون ملوكا لأنهم يمارسون سيادتهم الوطنية في ممالكهم الخاصة، ولكن عندما يتحولون إلى أداة في السياسة الصينية أو يتحملون مسؤولية جمع الضرائب لقبائل الرعاة يفقدون سيادتهم الخاصة، ويتحولون إلى أداة للآخرين يمكن أن يسموا عندئذ أتباع.

والتوازن في سياسة الصين يهدف إلى إثارة الحرب بين القبائل، كي تمنع من وحدتها ضد الصين، وبالرغم من مساعي الصين لكل ما يمكن عمله من السيطرة على الأمور، ولكن القبائل الرعوية كانت تنجح أحيانا لمهاجمة الصين وألواحها معا، وتأخذ جزية كبيرة من ألواحها وتطلب بجزية أو معونة مالية كبيرة من الصين، ومن هذه الظروف والعلاقات تنشأ الإقطاعية، وأمراء

الحدود يتحملون مسؤولية صد البرابرة في مقابل رواتب مالية أو بهدف احتكار تجارة المنطقة، وهم في الواقع منفذون للأشكال الإقطاعية القديمة، ويتميز قوة الإقطاع بالوضع الشخصي وبالالتزامات الشخصية.

وعندما لا تستطيع الصين السيطرة على أمراء الحدود وفرض التبعية عليهم، فالإقطاعية اللامركزية تنجح بالسيطرة على الإقطاعية المركزية، ويتنافس أمراء الرعاة فيما بينهم على فرض الإتاوة على أجزاء الصين الشمالية، وخلال الأربعمائة عام من الاضطرابات التي صاحبت سقوط عائلة هان في الصين في عام ٢٢٠-ق.م. وقيام عائلة تانغ فيها في عام ٦١٨ م سيطرت الإقطاعية اللامركزية بدون قوة إمبريالية على المناطق الشاسعة من السور العظيم إلى داخل الصين.

ومن جهة أخرى في القرون السابع والثامن والتاسع عندما كانت قوة الصين في عهد عائلة تانغ كان نفوذها أكثر انتشارا من عهد عائلة هان في آسيا الداخلية، وتوجهت الإقطاعيات المحلية في آسيا الداخلية نحو مركز الإمبراطورية الصينية بالخضوع أو بالاعتراض.

وهكذا كان مجتمع أتراك الأورخون في منغوليا الخارجية في ذات الوقت قبليا خلال فترتي الخضوع لحكم الصين في الفترة ٦٣٠ - ٦٨٠ م، وعندما بدأت سيطرتهم على قبائل الرعاة الأخرى، ودخلت ألواحاحات في حكمهم، بدأت نظمهم تحدد التزامات الرعية وحقوق الحكام بوسائل توضح ظهور الإقطاعية^[1].

[1] أكثر البحوث تفصيلا لمعرفة مجتمع أتراك الأورخون والشعوب ذات الصلة بهم، أعده: أ. برنشتام A. Bernsham في كتابه (البناء الاجتماعي والاقتصادي لأتراك الأورخون وينسي فيما بين القرن 8-6)

Social-Economic Structure of the Orkhon-Yenisei Turks of the VI-VIII Centuries, Moscow 1946 (in Russian)

وفي هذه الفترة كما ذكر عن تورفان الحاج الصيني هسوان Tsang في أوائل القرن السابع: (كان كبار موظفيها يجتمعون صباح كل يوم لإصدار القرارات الإدارية، ولكن لا يحتفظون بسجلات، مما يشير إلى أنها حكومة بيروقراطية بدائية، ويتوجب على الموظفين الاهتمام بالأرض والري والإحصاء، وفي كوجار يجتمع الملك بالموظفين الكبار في مجلس الشورى في وسط ونهاية كل الشهر ويبحث مع الرهبان قرارات المجلس قبل نشره^[1]).

وفي القرن الثامن الميلادي في بلدة لوكجون قرب تورفان، سجل الموظفون رسمياً جميع أصحاب المنازل ممن دفع الجزية أم لم يدفع في عام ٧١٦م، وفي دان دان اويلك قرب خوتن اكتشف السير اورال شتاين Sir Aurel Stein وثيقة مؤرخة في ٢٣ مارس ٧٦٨م، ذكرت فيها الجزية التي كان يدفعها الفلاحون من محاصيلهم^[2]، وقد يكون هؤلاء الفلاحون أفراداً من عبيد الأرض أو الذين يدفعون ممن يجمع الجزية من النوع الذي وصفهم فينوغرادوف Vinogradoff في بحثه عن أصول عبيد الأرض:

في الدولة المتخلفة في الزراعة والاقتصاد الطبيعي يكون أكثر ربحاً للغزاة والمغلوبين أن يترك السكان في منازلهم وأراضيهم يديرون شؤونهم ويفرض عليهم في نفس الوقت الضرائب الثقيلة، يدفعونها في الجزية والخدمات... لذلك لن نستغرب عندما نجد في الدول الهيلينية في آسيا أن السكان الفلاحين يبدون في وضع الخضوع الوراثي والالتزام بالآسياد أو بالطبقة الاجتماعية العليا لملوك سيلوسيد Seleucid أو بالطبقة الاجتماعية العليا لملوك سيلوسيد Seleucid^[3].

[1] Hsuan Tsang in the Edition entitled: The Tang Dynasty Record of the Western Regions, Shanghai 1922, Vol.I, also Li Kuan, Research on Sinkiang, Chungking 1944, p.191 (Both in Chinese)

[2] Obata, History of Civilization in Western Regions in Chinese translation from Japanese by Cheng Yuanofang, Shanghai 1934, pp.60-61.

[3] Paul Vinogradoff, article "Serdom" Encyclopaedia Britannica, 11th ed. Cambridge 1911, Vol.XXIV, p.664

ويعتقد فينو غرادوف أن هذا النوع من النظام يمكن ملاحظته منذ عهد الملكية الفارسية القديمة «في أي حال يمكن أن يكون هؤلاء الفلاحون بالتأكيد عبيدا، بينما من جهة أخرى فهم مقيد بزراعة الأراضي التي يعيشون عليها».

والفترة الثانية الكبرى من اللامركزية كانت في القرون ١٠-١١-١٢ عندما لم تكن هناك إمبراطورية تحكم الصين أو آسيا الداخلية، وفي هذه الفترة تحولت السلطة على العموم من الشعوب المستقرة إلى الرعاة أو الشعوب الرعوية الأصل في شمال الصين وشمال غرب الصين وآسيا الداخلية، ومع ذلك استمر الاتجاه نحو إقطاعية المجتمع المتطورة، وفي فترات الإمبراطورية الصينية القوية كما رأينا نجد أمراء الحدود أتباعا لها، واجبههم صد القبائل، وبالعكس عندما يسيطر الرعاة على المستوطنين يأخذون بعض حقوق الطبقة الحاكمة في خدمتهم ويتقدمونهم لجمع الجزية.

وفي هذه الفترة أسست قبائل الأويغور ذات الأصل الرعوي التي تفرعت عن قبائل أتراك الأورخون في منغوليا الخارجية دولة قوية في سنكيانغ، وكانت واحات قمول وتورفان مراكز الأويغور الرئيسة، ثم صار للأويغور أهمية خاصة بعد أن غزاهم المغول في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حيث كان منهم المعلمون لتعليم القراءة والكتابة، والموظفون في تنظيم جمع الضرائب ومشاكل الري في الزراعة.

كما أن وجودهم في جيش المغول ساعد في انتشارهم نحو الشرق في الصين ونحو الغرب في روسيا، ويشير فيرنادسكي Vernadsky: أن الأويغور كان لديهم أنواع من الأملاك العقارية: أراضي النبلاء المحليين، وأراضي أفراد أسرة الخان أو الطبقة الحاكمة، أراضي الخان نفسه، والأراضي الأخرى، يبدو أنها تمنح للقوات ومقدمي الخدمات الأخرى، ويتمثل الإقطاع في أوروبا، ويعتقد فيرنادسكي أن هذا النوع من منح الأرض استعمله المغول في روسيا، وكان له

أثر في تطور نظام بومستي Pomestie الروسي^[1].

وبعد الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر ظهرت أعظم إمبراطورية مركزية سيطرت على الصين وآسيا الداخلية، وبين أجزائها، وبين صعود عشيرة الذهبية لجنكيزخان ومحاولتهم لإيجاد مركزية محكومة بالبيروقراطية فإن التحكم بالأجزاء أدى إلى إرث الإقطاعية، وتجارتها كلها توجهت الى تطوير سريع للإقطاعية، وكل من الانفجار السريع في غزواتها الأصلية وعجزها السريع في البناء الإداري، تظهر أن الإمبراطورية المغولية يمكن أن تكون مثالا جيدا يعكس أن التعارض بين سلسلة التأثيرات الجغرافية في الغزو العسكري والتكامل الاقتصادي والتجاري يلعب دورا مهما في دورة التغيير بين المركزية واللامركزية.

وعجز المركزية البيروقراطية في الإقطاعية، يمكن ملاحظته من فشل مفهوم جنكيزخان نفسه في الإمبراطورية؛ لأنه عمل لممالك إقطاعية وإقطاعيات صغيرة تتجمع حول المركز الإمبراطوري مع حكام تم تعيينهم بيروقراطيا، وهم في كل منطقة يمثلون مصالح الإمبراطورية وسلطتها، ولكن القوة الحقيقية في الحال تحولت إلى السلطة المحلية^[2]، وخلال خمسين عاما بدأت أغلبية الممالك والإمبراطوريات المغولية تستقل عن بعضها، مع أنها كانت تحترم ذكرى جنكيزخان لفترة طويلة، ثم في خلال ١٥٠ عاما سقط النظام كله إلى أجزاء.

وتلت هذه الفترة فترة ٣٠٠ عام ثانية من اللامركزية، وذلك من منتصف

[1] G. Vernadsky, "Feudalism in Russian" in Speculum, Cambridge, Mass. 1939, Vol.14, No.3 (4 July) p.312

[2] B. Vladimirstov, Le Regime Social des Mongols, Le Feodallisme omads, French translation from the vRussian original by Michel Carsow, Paris 1948, p.129, See Also V.V. Bartold, Sketch of bthe History of Semirechie, p.43 of the Frunze (Kighizistan 1943) reprint of a study first published in Notebooks of the Provincial Civil Commission of Semirechie, H. Vernyi 1898 (in Russian _)

القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، وفي الصين كان هذا عهد عائلة مينغ Ming ومع أنها كانت قوية إلا أن حضورها في آسيا الداخلية كان ضعيفا جدا^[1]، كما أن سنكيانغ وقلب آسيا كانت في هذه الفترة بعيدة جدا عن أي مركز قوة إمبريالية، وقد ظهر استعداد مجتمع الرعاة إلى الانقسام في مجموعات صغيرة قبلية بعد أن شارك في بناء نظام إمبراطوري واسع، وهذه العملية الانحدارية كشفت على أن المرونة اللامحدودة في المجتمع الرعوي ذات قدرة بتلاعة على تطبيق وحدة البقاء صغيرا في الأسرة أو العشيرة يضمن لها الحركة والهجرة في فلك جغرافي منحصر نسبيا، تحافظ على ثروتها الحيوانية بحالة جيدة خلال تبدل فصول السنة.

وفي ذات الوقت تراجع مجتمع ألواح المستقر إلى وحدته الأساسية — واحة الاكتفاء الذاتي، وكما كان في الماضي فالإكتفاء الذاتي في ألواح، اكتفاء اقتصادي للإنتاج، ووحدة اجتماعية للتنظيم والإدارة، وتشابه ألواح مع بعضها وتشجعها التماثل الثقافي، وفي هذه الفترة من الاضطراب واللامركزية انتشر الإسلام ويعمل على تعجيل تماثل ثقافة عالم ألواح.

وقد بدء ظهور الإسلام في آسيا الداخلية قبل قيام الإمبراطورية المغولية، واستمر انتشاره في أثنائها حتى زمن التجزؤ السياسي، وقد فتح العرب بقيادة قتيبة تركستان الغربية ولعله وصل إلى كاشغر في بداية القرن الثامن^[2]، ومع منتصف القرن العاشر عندما كانت البوذية والمسيحية النسطورية والمانوية والزرادشتية تنتشر في ألواح المستقرة، تحول ساتوق بوغرا خان الترك القراخانية الذي كان يحكم كاشغر وألواح الأخرى إلى الإسلام^[3]، وفي

[1] D. Pokotilov, History of the Eastern Mongols During the Ming Dynasty from 1368-1634, St. Petersburg, 1893, Part I, Translation of the Russian text by Rudolph Loewenthal, Chengtu, Studia Serica Monographs, Series A., No.1, 1947

[2] W. Barthold, Turkestan Down to the Mongol Invasion, translated from the original Russian (1900) and revised by the author with the assistance of H.R. Gibb, London, 2nd ed.1928, especially Chapter II

[3] طبقا لما ذكره بارتولد (ص 255-254) قد يكون هذا الحدث خلطا بين التاريخ

القرنين الثالث عشر والرابع عشر تحول حكام آسيا الداخلية الذين يدعون انتسابهم إلى سلالة المغول الحاكمة إلى استعمال اللغة التركية وثقافتها واعتناق الإسلام، كما تحول في نفس الوقت أتراك الأويغور في منطقتي اورومجبي وتورفان إلى الإسلام، كما استمر وجود البوذية والمسيحية النسطورية فيها خلال القرون ١١ - ١٦.

ومع بداية القرن الخامس تطورت الأنظمة الإسلامية في سنكيانغ بقدم خوجه مخدوم أعظم إلى كاشغر، وهو من علماء بخارى ومن سلالة النبي (صلى الله عليه وسلم^[1])، ومنحه خان كاشغر بعض الأراضي، وأخيرا استولى على الحكم، حيثئذ ظهر نوع جديد من الساسة الذين يعرفون بالخجوات، وأسس نجلي الخوجه الأول مذهبين متنافسين، وهما في نفس الوقت حزبان سياسيان: أحدهما آق تاغ = الجبل الأبيض، والآخر قراتاغ = الجبل الأسود، وفي البداية التحق حكام ألواحات الكبيرة بزعماء أسرة الخوجه وناصروهم ومنحوهم الأراضي فيما يعرف اليوم بسنكيانغ، كما منحوهم سابقا في تركستان الروسية، وفي النهاية تولى هؤلاء الخجوات الحكم بأنفسهم، ولكن تنازع السلطة الدينية والتنافس على الحكم أدى إلى الصراع بين المذهبين، اللذين لم ينجحا على الاتحاد والاستمرار في الحكم،

وكانت الأراضي المملوكة لعائلة الخوجه وعقارات الممنوحة للمساجد تمثل المؤسسات المشتركة، وتكشف بعض صكوك الأراضي الممنوحة لهم وجود امتيازات تخول لهم الألقاب والحقوق، بالإضافة إلى الأراضي الممنوحة للمساجد المعروفة بالأوقاف، وقد أدى عقارات الأوقاف إلى ظهور طبقة جديدة من المشرفين ممن لهم القوة والمصالح الخاصة، مما يعني ظهور الإقطاعية

والأسطورة، ولكن سرعة انتشار الإسلام بين أتراك آسيا الداخلية في هذا الوقت مما لا يقبل الشك.

[1] A.N. Kuropatkin, Kashgaria: Eastern or Chinese Turkestan, Translated from Russian by Walter E. Cowan, Calcutta ,1882, p.102

الدينية التي تماثل الإقطاعية المدنية^[1].

وفي النصف الأول من القرن السابع عشر بينما يعد المانشور العدو لغزو الصين من الشرق، كانت واحات جنوب سنكيانغ تحت حكم الخجوات كاملا، وفي عام ١٦٢٢م تمكن ملا فاضل زعيم جماعة آق تاغ بمساعدة خوجه خوقند من السيطرة على كاشغر، وبعد ذلك بفترة قصيرة أصبح الخوجه هدايت الله المعروف بحضرة آباق- الذي لا يزال ضريحه في كاشغر محطة الزوار- حاكما على جميع واحات حوض تاريم، ومع أنه كان زعيما مسلما إلا أنه تعاون مع الدلاي لاما في لهاسا، وعقد معه معاهدة ضد مغول الجونغار في شمال سنكيانغ^[2]، وكان لهذا الخوجه أثر غريب في الشعب، فعند ظهوره بينهم يسبب مظاهر غير عادية من الحماس، بعضهم يبكي فرحا، والبعض يغني سرورا، وآخرون يرقصون حوله، وآخرون يفقدون وعيهم، بينما يغمر الجميع جاذبية قوية نحوه بنشوة الإخلاص بالحب الروحي^[3].

ولدينا بعض الدلائل عن الإقطاعية الشيوقراطية للخجوات من الرحلة التي قام الأب اليسوعي البرتغالي بنتودي غو Bento de Goes الذي وصل إلى ياركند عاصمة مملكة كاشغر في نهاية عام ١٦٠٣م، وفي فبراير ١٦٠٤م وصف ياركند بالسوق الكبير على طريق التجارة بين الصين وأوروبا، وكان حكم المسلمين شديدا، فمثلا حالما تنتهي صلاة الجمعة يغادر الجامع اثنا عشر رجلا يحملون الأسياط لمعاقبة من لم يشترك في الصلاة.

[1] بالنسبة لأراضي الخوجه الممنوحة في ياركند في سنوات 1587 و1592 و1602 وفي كوجار في عام 1608 فقد جمعها في القرن التاسع الرحالة الإنجليزي شاو Shaw Journal of the vAsiatic Society of Bengal, Extra No. Calcutta 1897 Vol.66.part1, pp.2-3

وبالنسبة للاوقاف في فترة الخوجه ينظر في:

G. Turkestans, Lunds Uinversitets Arsskrift, N.F., Avd. 1, Bd.26, Nr.2.

[2] Kuropatkin, op.cit. p.105

[3] Ney Elias, in Journal of the Asiatic Society of Benbal, 1897, pp.6-7

وقد نظمت أمور التجارة والتعدين بالعرف الإقطاعي بمنح الامتيازات والاحتكار، فالملك يبيع حق تكوين وقيادة القافلة إلى كبير المشتريين، الذي يصبح سفيرا بمطلق السلطة على رحلة هذه القوافل، ثم يستعيد جزءا من استثماره ببيع مراكز من سلطته إلى أربع مساعدين، يتلقون لقب سفير ثم يدفع ٧٢ من الرحلة ذات الامتياز لأخذ أماكنهم في القافلة، وبالمثل يتم احتكار استغلال يشم خوتن المشهور، إذ يبيع الملك حق البحث إلى بعض التجار، وبدون موافقة منه لا يحق لأي شخص نقل أي حجر تنتهي مدة الاتفاقية^[1].

وبعد أكثر من قرن من احتلال الصين غزا المانشور سنكيانغ عام ١٧٥٥م، وكانت حملاتهم تستهدف الجونغار أو الجناح الشرقي للمغول الغربيين، الذين يسميهم شعوب آسيا الداخلية الناطقين بالتركية والروس بالقالموق، وفي هذا الوقت كان الجونغار يتقاتلون فيما بينهم بضراوة تحت قيادة زعمائهم العسكريين، ويمارسون حكمهم في فترات متقطعة على التبت ووحدات حوض تاريم، وفي النهاية تعرض لهم المغول الشماليون أو الخلخاس يمارسون حكمهم في فترات متقطعة على التبت ووحدات حوض تاريم، وفي النهاية تعرض لهم المغول الشماليون أو الخاخاس يمارسون حكمهم في فترات متقطعة على التبت ووحدات حوض تاريم، وفي النهاية تعرض لهم المغول الشماليون أو الخاخاس في منغوليا الخارجية مما أضعف قوة الجونغار، ومنح إمبراطورية المانشور الفرصة في سيطرتها على منغوليا الخارجية وسنكيانغ والتبت.

وتوجد حالتان متميزتان لهذا الغزو، ففي الشمال زالت قوة الجونغار بالمذابح الرهيبة، حيث قتل ومات ٢٠٪ بالمرض، وهرب ٢٠٪ إلى السهوب في جنوب سيبيريا، وبقي ١٠٪ منهم منتشرون في المناطق، وهذه الأرقام التي جاءت من القرن الثامن عشر لا تمثل الأرقام الصحيحة، ولكنها تشير مع عدم

[1] C. Wessels, Early Jesuit Travellers in Central Asia, 1603-1721, The Hague, 1924, pp.24-25 and 28

دقتها إلى ضخامة التدمير الذي أصابهم^[1].

وأما في الجنوب فقد جرت المذابح في ألواح الصغيرة وإجلاء الأهالي من ألواح الكبيرة بهدف تقليص القوى العسكرية فيها، ومن منطقة كاشغر تم نقل ١٢ ألف شخص إلى وادي إيلي، وأسكنوهم في أراضي الدولة، ويأتي من أحفاد هؤلاء المنفيين المعروفين باسم (ترانجي يعني الفلاح)^[2]، وعلى أي حال مشكلة حوض تاريم كانت أسهل من جونغاريا في معالجتها إداريا وعسكريا، حيث أنشأ المانشور حاميات عسكرية ثم فرض طبقة إمبريالية على رأس النظام الاجتماعي الموجود.

وفي جونغاريا بعد أن نفذت المذابح وانخفاض السكان اضطر المانشور إلى جلب سكان جدد تحت إشرافهم، مما تنوع سكان جونغاريا تنوعا كبيرا جدا، مما استلزم إدارة الجونغاريا في ذلك الوقت بحث المشاكل التي نتجت عن تنوع مصالح المختلفين، وعملت على توطين بعض المغول، ودعت بعض القبائل التي تلوذ بالقرابة لقبائل الجونغار، وهربت إلى روسيا بعد الحرب وسكنت منطقة الفولغا السفلى فيها، ويسموهم الروس بالقالموق دعتهم بالعودة، وعامل المانشور أمراءهم العائدين إلى المنطقة أتباعا مخلصين لهم.

وبالإضافة إلى إنشاء المستوطنات في المناطق الزراعية، فقد تم توطين المنفيين من حوض تاريم المعروفين بالترانجي في المستعمرات العسكرية التي تشرف عليها قوات المانشور، وبهذه السياسة الاستعمارية زادت رقعة الأراضي الزراعية في إيلي وونغاريا مما كان يقدر ٢٤٠٠٠٠ مو (٤٠٠٠٠ فدان تقريبا)

[1] Fan Wen-lan and others, A short General History of China, Shanghai 1947. pp.663-664. See also: Wei Yuan, The Sacred Military Records (an account of the Manchu imperial campaigns) first published in 1842, also Chun Yuan, General Records of the Western Regions, a work written in 1776 but first published in Tientsin in 1818, Ch.3, p.26 another edition of this work is Informal Records of the Barbarian Regions (All in Chinese)

[2] See Ch. IV

في نهاية القرن الثامن عشر^[1]، وقد وصل إلى ٧٠٠٠٠٠ مو (١١٦٦٦٦ فدان تقريبا) في نهاية القرن التاسع عشر^[2].

وقبل عام في سنكيانغ كما في الصين تولى المانشور السلطة بعد فترة من التدمير الرهيب، وانتهجت السياسة المانشورية استزراع الأراضي بتخفيض الضرائب، وبدء الأويغور في تورفان وقمول يزرعون الأراضي التي منحت لكل رب عائلة، ومقدارها خمسة فدادين مع البذور والآلات وحيوانات الحرثة، ويحتفظ المزارع بعد السنوات الأربع الأول من الزراعة بحوال ٦٠٪ من المحصول بعد خصم قيمة البذور، ثم يدفع منها ٤٠٪ إلى الحكومة، ثم ابتداء من السنة الخامسة تفرض الضرائب على الأرض^[3].

وكان المستوطنون المانشوريون في إيلي وجونغاريا في نظر الأسر المانشورية من المخلصين الذين لا يرقى إلى إخلاصهم شك، ومنح كل رجل منهم ما لا يقل عن ثلاثة فدادين (ربما كل رجل في سن العسكر) مع البذور والآلات وحيوانات الحرثة، وبعض النخبة من المانشوريين نال ستة فدادين، بينما كان حصة المجرمين الصينيين المنفيين فدانين، وكانت الأراضي المانشورية في الواقع تمثل التملك الإقطاعي؛ نظرا لأن جميع المانشوريين هم من المانشور السولون والسيبو، الذين يخضعون للخدمة العسكرية، وفي عام ١٨١٢ م صدر مرسوم إمبراطوري يمنح قائد الحامية في غولجه الحق على توزيع الأراضي المانشورية إلى ممتلكات خاصة ثابتة معفاة من الضرائب بموجب نظام المنح، وكانت مثل هذه الأراضي لا تؤجر للآخرين لزراعتها، إذا تم تأجيرها فلا بد أن يكون المستأجر منشوريا^[4]، ولكن مع توالي الوقت تلاشت هذه النظم، وصار

[1] Sacred Military Records, as cited, Ch.4, figure for 1795

[2] Wang Shu-nan and others, Hsinchiang T`u Chih, or Sinkiang Gazetteer. Compiled in 1911. published at Tientsin In 1923, Ch.30, pp.2-3 (figure for the period 1990)

[3] Hsinchiang T`u Chih as cited, Ch.28, p.11

[4] Inditutes of the Manchu Dynasty, edition of 1818, Section "shih Li" (Precedents) Ch.842, p.13 (in Chinese)

بالإمكان تأجير وبيع الأراضي للمزارعين الصينيين، والموظفين والتجار.

ومع الخطوط الرئيسة في البناء الاجتماعي لمجتمع المستوطنات والرعية في سنكيانغ التي نظمت إداريا من جديد في عهد الإمبراطورية المانشورية، اندلعت ثورات المسلمين الكبيرة في القرن التاسع عشر والثورة الصينية في عام ١٩١١م، وأكدت على أن التطور التجاري في الحياة الاقتصادية خلال المائة السنة الماضية مزق هذه النظم الآن تماما، ووقع الشعب بين الدولة الاشتراكية التي تأسست في الأراضي السوفياتية، والثورة الاجتماعية التي انتشرت في الاراضي الصينية

وفي هذا التمزق انكشف البناء الاجتماعي عن طبقات متعددة يمكن تصنيفها بالاجتماعية والتاريخية، ومن الناحية الاجتماعية تدرجت من السلطات الاستبدادية ذات الامتيازات العالية إلى الحرمان من حق التصويت والاعتراض، أما من الناحية التاريخية فالطبقة مضطربة، وفي دورة التغيير من الإقطاعية المركزية التي كانت تتميز بالسلطة الإمبريالية القومية إلى الإقطاعية اللامركزية في دول ألواح المحلية وأمراء قبائل الرعاة، والوضع الجديد لم يتمكن من تصفية القديم تماما وإحلال مكاسب المؤسسات والإدارة الجديدة مكانها، وبالعكس عندما كانت ألواح مستقلة تماما عن بعضها، والقبائل الرعية ترفض سلطة قبائل رعية أخرى عليها، لم تختف الجماعات المتسلطة في مجتمع الواحة أو في مجتمع القبائل الرعية تماما. وفي كلا المجتمعين كان يحل أولا قاعدة البيروقراطية الإدارية الصينية التي تمثل المركزية لها في آسيا الداخلية، وقد تنجح بيروقراطية أخرى مثل الشيوعيين في تولي السلطة في الصين، بينما جمهورية الصين تحكم سنكيانغ اسميا منذ قرابة أربعين سنة، إلا أن بيروقراطيتها تشبه أساسا في نشاطها مثل التي مارسها المانشور في القرن التاسع عشر، ومن الناحية الاقتصادية فهي ضريبة على مجموع دخل سنكيانغ، وأما من الناحية السياسية والإدارية كانت تعمل على الاحتفاظ بسنكيانغ بنفس

الوضع على الخريطة والاتفاقيات الدولية، بحيث إن مستعمرات الصين في آسيا الداخلية تلاصق روسيا، ولكن لم تدمج سنكيانغ إلى الصين، بحيث تكون حياة وثروة سنكيانغ جزءاً من حياة وثروة الصين، وعاد الموظفون الصينيون منها أغنياء، ولكن مساهمة سنكيانغ في دولة الصين كانت ضئيلة.

تجمع الصينيون تحت إدارتهم القوى الإقطاعية لطبقات الحكم المحلي التي حافظت على نفسها، وفي ذات الوقت أجبرت شيخ القرية وزعماء ألواحات وأمراء المغول وزعماء القازاق وغيرهم ممن يعرفون بهذه الألقاب على دفع ضعف الضريبة، أحدها لحفظ البيروقراطية الصينية الإدارية، والأخرى لإغناء أفراد الموظفين الصينيين، ولكي يتمكن هؤلاء من جمع هذا المقدار من الضرائب منحتهم الإمبريالية القوة التي أبقت سلطتهم التقليدية التي مكنتهم من جمع الضرائب من مزارعي ألواح ومن رعاة القبائل.

وبالرغم أن التجارة استمرت بالتدخل في التسويق التجاري في شكل الاقتصاد النقدي، مما حافظ على الأصل الإقطاعي في أنواع الامتياز، فقد منع كلا الموظفين الصينيين ومن يلوذ بهم من الوجهاء المحليين من العمل بحرية في السوق، وتم اختيار أفراد من التجار ومنحهم حمايتهم ومكنوهم من التهرب من دفع الضرائب، وساعدوهم على الاحتكار محلياً في بعض الأوقات وفي نطاق المقاطعة، وبهذه الطريقة قطعت دخل المقاطعة من التجارة، ولكن زاد غناء التجار المحميين، كما زاد ثروة الموظف الشخصي الذي يأخذ الضريبة لحمايتهم.

وأما في المستوى الأدنى فالفلاح والراعي وإن لم يكن يدفع الضريبة شخصياً، وإنما يدفعها في شكل قروض وعمل، حيث يجبر على العمل في مشاريع خاصة أو بالخدمات العادية لأسياده الذين يعلوه طبقة لمكانتهم في الامتياز الطبقي، ومع أنه لا يوجد تشريع لاستخدام هؤلاء القن إلا أن المزارع

أو الراعي في الواقع مجبر على العمل بنظام الاستعباد الإقطاعي، ولا يملكون حقوقاً ويؤدون خدمات لهم ويمنعون من بيع خدماتهم في السوق الحر، وهذا بقوة السلطة الحاكمة التي تلزمهم بكل ما سبق، حتى يتمكن رؤسائهم من جمع الضرائب نقداً أو بالإجبار على العمل لهم أو بيع خدماتهم للآخرين، وحتى الممتلكات الخاصة للفقراء من الأرض أو المواشي مرتبطة بالتزامات تمنعهم من استعمالها بحرية.

وعندما يتفكك المجتمع لا ينحل عشوائياً مطلقاً؛ لأن لكل مجتمع لديه نوع خاص من وحدات مترابطة، وهذا الترابط والتماسك موزع من غير تساوي على الوحدات الأخرى في المجتمع، وبين هذه الوحدات توجد خطوط الضغط، ويحاول المنشقون الاستفادة منها، وعندما ننظر بعين الاعتبار إلى التأثيرات الآتية من روسيا إلى مجتمعات سنكيانغ، وما قد يأتيها من التطورات السريعة التي تحدث في الصين من ثورة الشيوعيين على تثبيت سلطتهم فيها، ويجب دراسة هذه التأثيرات نفسها وأثرها في موازنة التماسك والانشقاق في المجتمعات التي توجد فيها.

الفصل السابع: آسيا الداخلية في مفترق الطرق

خلال الحرب العالمية الثانية والأعوام التي تلتها من التغيرات السريعة تغير الوضع كثيرا في الأراضي التي تتصل بمحيط سنكيانغ أكثر، وفي سنكيانغ نفسها تغير الوضع كثيرا، ولأكثر من نصف قرن وصف الكتاب أن سنكيانغ منطقة فراغ جزئي تتنافس عليها الصين والهند وروسيا، وأما اليوم هي تعج بوطنيتها الخاصة ولا يمكن وصفها بالفراغ، ومن أهم ملامح وضعها الحالي هو موقعها بين الصين التي يسيطر عليها الشيوعيون والسوفييات التي يحكمها الشيوعيون.

وحتى حدوث هذا التغير كانت السياسة البريطانية التي توجه جزئيا من لندن وإمبرياليا من القوة التي تحكم الهند، وقد تناول البريطانيون هدفين: تأسيس مجال نفوذ خاص في كاشغر وحوض تاريم، ويحول السوفييات عن تأسيس مجال نفوذ لهم في وادي إيلي وجونغاريا، بالإضافة إلى التعاون مع السلطات الصينية، ودعم سيادتها التي يمنع توسع النفوذ السوفياتي غير المرغوب فيه، وفي السنوات الأخيرة لحكم الكومنتانغ وبعد المفاوضات البريطانية للانسحاب من الهند وباكستان، مارسَ البريطانيون الهدف الثاني؛ لأن المصلحة البريطانية تتوقف على أن يكون الحكم الصيني ضعيفا نسبيا على آسيا الداخلية، سواء كان في حكم الكومنتانغ أو الشيوعية الصينية بحيث يمنع من تطور القوة السوفياتية من التحكم عليها أو تعيق مصالحها.

وفي نفس الفترة مرت روسيا ومستعمراتها من الحكم الإمبريالي المركزي في عهد القيصرية إلى اتحاد فيدرالي لجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، ثم بدأت التغيرات في الصين إلى الثورة مثل روسيا، ولكنها لم تكتمل إلا مؤخرا،

وقبل عام ١٩١١م ضعفت سلطة الإمبراطورية المانشورية في الصين وفي مناطق الحدود، حتى تلاشت سلطتها في عام ١٩١١م، وفيما بين ١٩١٢-١٩٢٦م كانت الصين جمهورية يتقاسم سلطتها زعماء الحرب، ولم تكن هناك سلطة مركزية قوية لا في الصين ولا في مناطق الحدود، ثم صارت الصين بعد عام ١٩٢٧م جمهورية يحكمها الكومنتانغ التي تزايد سلطتها المركزية في الصين، بينما هبط نفوذها في سنكيانغ ومناطق الحدود الأخرى.

وأخيرا مرت الصين بفترة تزايد فيها الشيوعيون والاتجاه نحو الفيدرالية، ومن المحتمل ضمن هذه النزعة الفيدرالية أن تكون سلطة حكومة الصين المركزية أكثر قوة في مناطق الحدود في منشوريا ومنغوليا الداخلية وسنكيانغ من أي حكومة صينية مضت منذ فترة طويلة.

ويجب أن يتم تقييم جميع هذه التغيرات ذاتها وعلاقاتها وتفاعلها مع بعضها البعض، واليوم لا يمكن وصف سنكيانغ بالفراغ فقد أصبحت على مفترق الطرق، تتقابل عليها جملة من القوميات المتباينة وسياسة دولتين كبيرتين هما الاتحاد السوفياتي والصين، ويتشابه هذان الاتحادان الفيدراليان في نزعتهما الشيوعية، ولكنهما لا يتماثلان في مصالحيهما الداخلية.

الثورة الروسية وأثرها:

حدثت ثورة استعمارية فريدة ضمن الثورة الروسية العامة، فالمستعمرات الروسية التحقت وظهرت ضمن الأراضي الروسية، وكانت درجة التدخل بين الروس والشعوب المستعمرة أكثر احتمالا من أي مستعمرة فيما وراء البحار، فمثلا كان جميع البريطانيين منعزلين تماما في الهند كما هم منفصلون عن بريطانيا، والمشرف على مصنع النسيج أو المشرف على زراعة الشاي أو الموظف البريطاني المدني يعتبر نفسه أحد افراد الطبقة الحاكمة، ويرفض في الحال مطالب الهنود في المساواة، وبالعكس كان من النادر جدا أن يتمكن

الهندي الذي يذهب إلى الدراسة الجامعية في بريطانيا أن يحصل على عمل فيها، وإذا عاد إلى الهند عليه أن يقبل العمل مستخدماً بأقل مما يستحقه من درجته العلمية، وتحت رئيس أقل منه كفاءة.

وأما في آسيا الوسطى الروسية عمل الجنود الروس الذين يسكنون المدن مثل تاشكند في بعض الحرف بأنفسهم، كما عمل في السوق وشارك في منافسة غير الروس، والمستوطنات التي أسسها الروس كانت مجاورة لقرى الأوزبك، وفي بعض الحالات قد يكون الروس في مواقع أعلى من المحليين، ولكنهم جميعاً يكونون الشعب الذي يخضع بكامله للحكم الروسي، وكانت أوامر حكومة القيصر تفرض على الشعب، وينفذها الروس وغير الروس على السواء.

والطبقات العليا تداخلت فيما بينها أيضاً، فالفرد من آسيا الداخلية إذا استطاع والده أن يؤهله بالتعليم الروسي يتمكن من الالتحاق بالخدمة العامة من عسكرية أو مدنية، وليس شرطاً أن يكون في خدمة مستعمرة منفصلة.

وأحد الأمثلة لهذا الحال هو ولي خانوف أحد سلاطين القازاق الذي تخرج من الكلية العسكرية الروسية، قام برحلات استكشافية رائعة لم تكن معروفة سابقاً، وكان في عداً مستحكماً مع كاشغر في نهاية خمسينات القرن التاسع عشر، ثم تولى منصب كبير في سانت بطرسبورغ، ولم يكن ضابطاً في فرقة عسكرية، كما كان صديقاً إلى دوستوفسكي Dostoevsky في سنوات نفيه، وكان زميل دراسة وصديق العمر للمستكشف بوتانين Potanin ولم يكن بالنسبة إلى بوتانين مجرد مواطن يعتمد عليه في بعثاته الطويلة، يعمل مترجماً وملازماً له فحسب، بل هو زميل مستقل يمارس استكشافاته الجريئة^[1].

كما حدث التداخل في الأفكار السياسية بالإضافة إلى التصنيف الإداري،

[1] Yu.N. Bessonov and V.Ya. Yakubovich, Through Central Asia, Chapter on "Valikhanov and G.N. Potanin" Moscow 1947 (in Russian)

وكانت مستعمرات ما وراء البحار فيها الطبقة المستعمرة ككل، لا تتصل بمجتمع البلد الذي تحكمه، ولكن الوطنية النموذجية للمستعمرة بدأت في التوجه نحو الأفكار الديمقراطية التي تسود البلدان التي يحكمها الأوروبيون، بينما كان الاستياء الشديد من حقيقة أن المؤسسات الديمقراطية لم تصل إلى البلد المحكوم، وطموحه إلى المثل الأعلى نحو الديمقراطية عندئذ، كان جزءاً من النقد لأي خطأ في التطبيق الفعلي للمؤسسات الديمقراطية في البلد المحكوم.

ومن طرف آخر في روسيا كان حكم القيصر استبدادياً نظرياً وعملياً، ولم يكن من المستطاع أن يتطلع الروس إلى الحقوق الديمقراطية والحريات، بدون المطالبة بإصلاح صارم للنظام القائم، وعلى ذلك فإن الشعوب غير الروسية التي تأثرت بالمثل الديمقراطية العليا الروسية بالطبع سقطت بنقد الديمقراطية الروسية للنظام القائم.

وحاول القيصرية إسكات انتقاد الشعب الروسي بنفي المعارضين إلى المستعمرات الروسية، ولكن الاضطهاد كان شديداً على الديمقراطيين والثوار السياسيين المنفيين هناك، وأقام المعارضون الروس علاقات مع الشعوب غير الروسية، وتكونت مراكز ضغط منهم ومن شعوب آسيا الداخلية، وتوسع نطاق تأثيرهم بعلاقتهم بالمتعلمين من المعارضين والناقدين، وتكونت حلقات فكرية لهم في سانت بطرسبورغ وموسكو بما يتشابه مع ميدان بلومسبوري Bloomsbury في لندن، ومثل هذا النوع من الحوافز المشتركة بين المثقفين كان مستحيلاً بين البريطانيين والهنود في الهند، أو بين الأندونيسيين والهولنديين في أندونيسيا.

وعلى هذا فعندما اندلعت الثورة الروسية لم يكن بالإمكان حصرها على الشعب الروسي فقط، ولم تأخذ صيغة استبدال الحكم القيصري على الشعوب

غير الروسية بالحكم البلشفي عليها، ومنذ البداية كان الأمر أن يأخذ شكل ثورة وحرب أهلية عامة، حيث كان غير الروس في جانبي المعركة مع الروس، وبينما مرت الثورة من الكفاح السياسي إلى الحرب الطبقي تجمع المنشقون الملاك منهم معا أكثر الروس وغير الروس يحاربون للحفاظ على الأقل شيئا من النظام القديم، بينما غير الملاك من الروس وغيرهم يحاولون فرض النظام الجديد.

وفي كثير من المناطق التي يكون الروس أقلية كانت الثورة برئاسة غير الروس المنحازين إلى البلاشفة الروس^[1]، ومع ذلك قبل الحصيصة الأخيرة وجدت طبقتان متوسطتان، ومن خلالهما وبعد فوز الثورة البلشفية حدثت هجرات هامة من الأراضي الروسية، التي نجحت فيها تأثيرات الثورة إلى المناطق المتصلة في آسيا الداخلية.

وفي الطبقة المتوسطة الأولى وصل الوطنيون غير الروس إلى الحكم أو على وشك الوصول إليه في مناطقهم، ووجدت مجموعتان من الوطنيين، أحدهما تضم الحكام السابقين مثل أمير بخارى أو ممثلون أقل منه من النبلاء والشيوخ في النظام القديم الذين سيطر عليهم الروس، ولم تلتزم هذه المجموعة بالوضع السياسي بل حاول أفرادها على استرداد قوتهم السابقة بقدر الإمكان، ولما كانت القوة التي نال غير كافية لهم تطلعت إلى الحماية البريطانية التي تدخلت لمقاومة الثورة الروسية من جهتي آسيا وأوروبا.

وأما المجموعة الثانية ينتسب كثير من أفرادها إلى المجموعة الأولى ممن تعلم في المدارس الروسية، وشغل المناصب في الإدارة الروسية، وعندهم

[1] انظر الفصل في هذا الكتاب الأول

Owen Lattimore, "Yakutia and the Future of the North" American Review on The Soviet Union, New York, Vol. VI, No.2, Feb. 1945; reprinted in New Compass of the World, ed. Hans Weiger, Vilhjalmur Stefansson and Richard Edes Harrison, New York, 1949, pp.145-146

بعض المعرفة عن النظرة السياسية والسياسات الحديثة، ولكن طموحاتهم لم تتعد عن الحكم الذاتي وتكوين طبقة من الأعضاء يتولون المناصب الكبرى التي كان يحتكرها الروس، وتطلعت أيضا في بحثها عن الحلفاء من الروس المنشفيك Mensheviks وعندما فشل هؤلاء، توجهت نظرهم إلى بريطانيا، وعندما فشلت تدخلاتها هرب الكثير منهم إلى أوروبا وأكثرهم إلى إيران وأفغانستان وسنكيانغ.

وتميزت الطبقة الثانية بتدخلات البريطانية، وبدأت من حيث فشلت الطبقة الأولى، وكانت التدخلات تدار من إيران والعراق، وحجبت أفغانستان؛ لأن مخاوف البريطانية فيها كانت قوية جدا، ولكن نشطت عملياتها من كاشغر في سنكيانغ بشكل فعال^[1]، ومنذ البداية منع السوفييات سجناء الحرب الألمان والنمسا من دخول تركستان الروسية؛ خوفا أن تمكنهم من العودة إلى بلادهم، كما منع تدفق القطن الخام إلى ألمانيا بعد معاهدة بريست لتوفسك Breast Litovsk مما أدى إلى منع الثورة الروسية من الاستيلاء على حقول النفط في باكوف في محاولة لإكمال الحاجز حول روسيا، ولكن مع فشل هذه العملية حملت بريطانيا نتائج ذلك، إذ تدفق إليها الفارّون الروس ومن كل قومية في آسيا الداخلية، ولم تنته الهجرة بفوز البلشفية، بل مع كل تغيير في السياسة البلشفية، وخاصة خلال الحملات القاسية على التجمعات التي كانت بالفعل حرب أهلية جديدة، وكان هناك تدفق جديد من اللاجئين إلى سنكيانغ ومناطق آسيا الداخلية الأخرى التي تحيط بالحدود السوفياتية، وبهذه الطريقة انتشرت تأثيرات الثورة الروسية، بحذر فيما وراء حدود الاتحاد السوفياتي.

ومع ذلك في الحال بدأت تظهر سلسلة من المؤثرات الطويلة التي تطورت من واقعية أن الحدود السوفياتية في جميع أنحاء آسيا الداخلية كانت مصطنعة؛

[1] Lt. Col.F.M. Baily, Mission to Tashkent, London 1046, Also L.V.S. Blacker, OnSecret Patrol in High Asia, London 1921.

لأنها وجدت إبان الغزوات القيصرية الروسية وتوقفت حيث توقف الغزو القيصري، وهي تفصل في كل مكان بين شعوب متشابهة بدلا من الفصل بين شعوب مختلفة كما جاء ذكره في الفصل السابق، وهناك لغة واحدة مستعملة في الحدود السوفياتية- التركية والسوفياتية- الإيرانية والسوفياتية- الأفغانية والسوفياتية — سنكيانغ، وفي معظم هذه الحالات تستعمل هذه اللغات أقليات يعيشون في سيادة الدولتين، ويجب دراسة وضع هذه الشعوب الذين يكونون أقليات في الدول التي يعيشون فيها ويتكلمون لغة واحدة، وفي المقابل هناك الثقافة والتقاليد الاجتماعية المشتركة والظروف المختلفة التي يعيشونها على طرفي الحدود التي تفصلهم.

والنقاط الخمسة التالية التي تابعت في النظام التاريخي، قد تظهر بوضوح مؤثرات الثورة السوفياتية على المدى الطويل:

١. كان اللاجئون والفارون من الثورة السوفياتية في سنكيانغ نخبة ممتازة بمهارتهم العلمية والفنية، وبالأخص لوجود أطباء وجيولوجيين وعلماء ومهندسين ومهنيين بين الروس منهم والأوزبك والتتار، وكثير غيرهم من الأدباء والخبراء في التجارة والمهارة في النجارة والبناء والحدادة والديباغة، بحيث صار مستواهم فوق الطبقة المتوسطة السائدة في سنكيانغ، وبعد فرارهم من الاضطرابات والفوضى التي نتجت عن الثورة الروسية وجد هؤلاء البلاد التي دخلوها متأخرة جدا ثقافيا وسياسيا من التي نزحوا منها، مما أدى إلى استنتاجهم أن المهارات العالية التي جعلتهم الصفوة الممتازة، لم توفر لهم الأسس التي تضمن الاستقرار الاقتصادي؛ لأن المجتمع الذي ضمهم كان متخلفا، والجهاز الإداري الخاضعين له حديثا عاجز وفساد.

٢. كان فرارهم في الأصل هو لعجز بلدانهم عسكريا في مقاومة الثورة الروسية، ووجد الفارون الآن أنه لا توجد دولة مجاورة تستطيع مساعدتهم لصد عدوان الثورة عن بلادهم، وفي سنوات الحروب الداخلية التي شاهدها في سنكيانغ لم توجد فيها أو في المناطق الآسيوية المجاورة لمواطنهم الأصلية حكومة تستطيع بناء قوة عسكرية وسياسية بسرعة تعادل تطور جمهوريات آسيا الداخلية السوفياتية الجديدة، أو تهيء فرص تربوية وعلمية مثلها، وبينما الاضطهاد لا يزال مستمرا في مواطنهم الأصلية، ويصيب التعذيب كل من يتمسك بالنظام السياسي أو بالمجتمع القديم، وبينما تطبيق نظام الثورة يزيد في المعاناة، ومع ذلك وجدت مجالات العمل والتعليم لمن يريد ويتحمل المشقة لصالح مناطقهم، ولكن الاضطراب فيها لم تنته، وفي المجتمعات القديمة والمتخلفة تضيع الفرص بدلا من تزايدها، وقد يصبح الرجل الغني فجأة فقيرا إذا كان طعمة لموظف مرتشٍ، ولا يستغرب تزايد عدد الفلاحين الذين لا يملكون الأراضي الزراعية والمتسولين في المدن.

٣. وفي هذا الجو المتغير السريع والاضطرابات العامة التي تلت الحرب العالمية الثانية، تخوف الفارون من الاضطهاد الشيوعي من جمهوريات آسيا الداخلية السوفياتية ومن روسيا، تخوفا كبيرا في بعض المناطق وقليلًا في بعضها الآخر، وكان خوفهم كبيرا بسبب تفاقم قوة روسيا؛ خشية أن تحتل الأراضي المجاورة، وبالمقارنة كان الخوف من ذلك أقل في البلدان المجاورة مثل سنكيانغ وأفغانستان وإيران وحتى تركيا، وقد صارت هذه البلدان مراكز

استقرار في القانون والنظام، مما ترجوها الإمبراطوريات المستقرة، بينما الجمهوريات السوفياتية لا تقدم ضمانا للاستثمارات بل تقدم نوعا جديدا من الضمان لم يكن معروفا من قبل في المجتمعات المتخلفة في آسيا، بمضاعفة عدد المهن خاصة للشباب وبالأخص لمن نال التعليم الجامعي ومدارس التدريب الفني.

٤. في الواقع اكتملت الدورة، فقد كانت روسيا القديمة مرة أعظم وأرسخ دولة في آسيا الداخلية، بحيث إن رجال آسيا الداخلية لا يأملون التعليم والتدريب والعمل الحديث إلا في الاستخدام الروسي أو في خدمة القيصر، فقد كان الرجل ذو التعليم الروسي فردا متحررا من تقاليد القبيلة القديمة، أو من حياة ألواحة حتى بعد سقوط الإمبراطورية القيصرية، كان اللاجئون منها المنتشرون في بلدان آسيا الداخلية ينالون الاحترام لثقافتهم ومهارتهم، وفي الدورة الجديدة ضمنت لهم روسيا الجديدة (الاتحاد السوفياتي) هذه المراكز التي نالوها، وتخوف أولئك المتمسكين بتقاليد النظام القديم فيما وراء الحدود السوفياتية على مكاسبهم الاجتماعية والاقتصادية من الأيدلوجية الحديثة، ولكن الكل يعرف أن هذه الأنظمة القديمة شاخهت وضعفت، ونفوذ الاتحاد السوفياتي الحديث وتأثيره على ما وراء حدوده في آسيا الداخلية كان يضغط بشدة على صراع الطبقات في ظروف الانحطاط الاقتصادي التي تضغط على البناء الاجتماعي الضعيف الذي لم يعد يثق أفراده كثيرا بأنفسهم، وكان هذا التأثير علامة انفصام بين الشيوخ والشباب، وتفاقم الخوف بين أولئك الشيوخ الذين يعتقدون بعدم تمكنهم

من التلائم بسهولة مع التغيرات العظيمة الجديدة، وأما الشباب الذين يجدون في قدرتهم انتهاز الفرص وارتفاعا بالفرص الجديدة في التعليم والعمل والمهن فقد أثارت فيهم الطموح والمغامرة.

٥. تعاظمت هيبة الاتحاد السوفياتي بسرعة؛ بسبب تلاشي القوى الأخرى التي كانت في آسيا الداخلية، وضعفت سلطة الصين في سنكيانغ، وعلى الشيوعيين المنتصرين في الصين معالجة مشاكل مناطق الحدود في آسيا الداخلية الصينية بالمفاوضات وليس بالمراسيم، ومع جلاء بريطانيا من الهند لم يستطع الاتحاد الهندي أو دولة باكستان من تحقيق نوع من القوة التي تكون لها التأثير في آسيا الداخلية، كما فعلت بريطانيا سابقا، وتراجع النفوذ البريطاني في إيران و لكن لم يستبدل تماما بالنفوذ والقوة الأمريكية فيها، ومع أنها بقدرة كافية لمحاربة روسيا ولكن لم تكن تلك الدولة التي لديها المهارة كما كانت بريطانيا سابقا - للاستفادة في نفس الوقت من ضعف الحكومة وتدهور النظام الاجتماعي.

وعلى المدى القصير فإن النفوذ الأمريكي في دعم الحكومة الإيرانية عظيم، ولكن على المدى الطويل كان هناك تشابه مثير للسخرية بين النفوذ الأمريكي والنفوذ الروسي، وكلاهما يحثان على التحديث والتغيرات الاجتماعية الجديدة التي سرعان ما انتشرت من نموذج السياسة البريطانية، والفرق أن الشيوعية الروسية من خلال الاقتناع النظري والتخطيط المنهجي سيطرت على البناء الاجتماعي التي استمرت من العصور الوسطى، وأما الأمريكان ينفذون سياسة الاقتصاد الفعال ويشجعون التعليم؛ لخدمتها، ويقضون بلامبالاة على نظم

القرون الوسطى، وبالتالي على أسلوب التفكير المصاحب لهذه النظم.

سنكيانغ تحت شبح اليابانيين:

بالقياس لأشكال الإمبراطورية القديمة والحكومات التي تلاشت في آسيا الداخلية، وعلاقتها بظهور أشكال القوى السوفياتية وهيبتهما، يظهر بوضوح أن التراجع البريطاني بدأ منذ فترة طويلة قبل أن يكون ملموسا، والانسحاب الذي تم بمهارة وتنظيم حكومة العمال البريطانية بعد الحرب كان نافذا من قبل بالدوين تشامبرلين Baldwin Chamberlain خلال سنوات الهدوء الألمانية واليابانية تحت حكومة محافظة، ويمكن الدراسة بالتركيز على نتائج السياسة التي تراكمت في ميونيخ في أوروبا في آسيا الداخلية في الفترة التي مرت من احتلال اليابان لمنشوريا في عام ١٩٣١م ومعركة بيرل هاربر Pearl Harbor في عام ١٩٤١م.

بعد الحرب العالمية الأولى دخل مراقبون من الهيئة العامة اليابانية إلى سنكيانغ، ولعله كانت لديهم خطة على نشر المدربين الحربيين اليابانيين في منطقة إيلي، ولكن المشروع فشل بسبب نقص الموارد المالية^[1]، ومع عام ١٩٣٠م تشكلت هيئة المصالح اليابانية والسياسة الإسلامية تنظيما جيدا في الأراضي الإسلامية، وقامت بالاتصالات في تركيا وإيران بالإضافة إلى سنكيانغ والمسلمين الصينيين في الصين، وذكر كاتب ألماني أسماء ثلاثة عملا يابانيين مسلمين يحملون أسماء تركية^[2]، وكان أحدهم في ألمانيا، وقد تسلل هؤلاء إلى تركستان السوفياتية بالإضافة إلى سنكيانغ، ومع أن الكاتب الألماني يقول: إنه لا يعرف شيئا عن أعمالهم في الأراضي السوفياتية، إلا إنه يؤكد على نجاحهم

[1] P.T. Etherton, In the Heart of Asia, London 1925, pp.125-126

[2] "Durchdringungspolitik in Zentralasien" "Berichte des Asien Arbeitskreises, Vienna and Peking, No.I, February 1939.

وصف المؤلف أنه قضى اثني عشر عاما من التنقل لإي آسيا الوسطى وكان عميلا نازيا

على إثارة مشاعر السارت الأويغور في سنكيانغ، ولا شك أن ثورتهم في عامي ١٩٣٣-١٩٣٤م نتجت عن دعاية هؤلاء الرجال.

وكان ١٩٣٣م عاما خطيرا، ذلك أنه في نهاية فبراير وبداية مارس سيطر اليابانيون على مقاطعة جيهور Jehol وضموها إلى دولة مانشوكو Manchukuo الموالية لهم، وفي هذه الحملة ضمت ١٠٠ ألف ميل مربع من الأراضي التي تغطيها الجبال، وتخرقها أكثر المواصلات بدائية في خلال عشرة أيام باستعمال طوابير الشاحنات، وفي هذه الحملة وليس في حملات ألمانيا على بولندا التي حدثت في عام ١٩٣٩م كان أول عمل واضح في مجال عسكري كبير حقيقي لطوابير المدرعات المدعمة جويا، والتي تقوم على دفاعها الخاص ولا تبالي بالمبادئ القديمة بالتحرك بالفرق المكشوفة وتترك وراءها جنود الأعداء يجرون أذيالهم.

وفي السنوات الماضية شرح الرائد الأمريكي روي تشابمان اندرو Roy Chapman Andrew عن إمكانية تجول السيارات عبر منغوليا، كما أن الرائد السويدي سفن هدين Seven Hedin عبر عن إمكانية عبور قافلة السيارات من منغوليا الداخلية إلى سنكيانغ، ثم قامت بعثة سيترون Citroen الفرنسية بالرحلة في الاتجاه المعاكس، وأكدت الحملة اليابانية إي جيهور Jehol أن الطابور الياباني يستطيع في أية لحظة من الاستيلاء على الطرق التي تؤدي إلى سنكيانغ، ويقطع المواصلات بين الصين والأراضي السوفياتية، ويجعل القوات اليابانية في مركز يستطيع التحالف مع المسلمين الناطقين بالتركية في سنكيانغ ومع أمراء الحرب للمسلمين الصينيين المستقلين فعليا في شمال غرب الصين.

وخلال السنوات الأولى لمقاومة الغزو الياباني لم يتمكن الصينيون أبدا أن يتحرروا من خوفهم الشديد من خطر اجتياحهم، ولم يتلاش هذا الخطر إلا بعد أن تزايدت هزائم القوات اليابانية بعد معركة بيرل هاربر Pearl Harbore

التي جعلت من الصعب عليهم حشد المدرعات والذخائر لمثل هذا التحرك، كما يرجع إلى دفع هذا الخطر تمرکز الوحدة الروسية المدرعة في قمول في سنكيانغ، ولا يستطيع صد هجوم الطابور الياباني المدرع إلا التحرك الآلي السريع، ولا يملك الصينيون مثل هذه الوحدات، بينما يوجد ذلك عند الروس، وعليه لم يعارض الصينيون مع شكوكهم الكثيرة احتلال الروس على ألواح التي تقع في التقاء الطرق التي تستطيع السيارات عبورها بين الصين ومنغوليا الداخلية والأراضي السوفياتية^[1].

وبعد الاستيلاء على جي هول Jehol وحتى قدوم المساعدة السوفياتية التي مكنت شنغ شيه تساي Sheng Shih-ta`ai من حكم سنكيانغ، توسع النفوذ الياباني بشكل ملموس في آسيا الداخلية، وكان يتواجد مستشارون يابانيون عندما جونغ ينغ Ma Chung-ying المغامر المسلم الصيني الذي حارب شنغ شيه تساي^[2]، بالإضافة إلى أن كبير المستشارين في قواته كان تركيا من استانبول يسمى كمال، درس العسكرية في ألمانيا وفرنسا قبل عام 1914م، واعتقله الروس إبان الحرب العالمية الأولى، وبعد انتهاء الحرب وصل إلى هاربين Harbin ولعل العملاء اليابانيين وجدوه في هذا الوقت.

وقد وصفت المصادر الألمانية بأن ما Ma نال الدعم (عمليا وماليا) من قبل اليابانيين، ومن حكومة الصين الوطنية (التي كانت تعتبره نائرا خطيرا في مقاطعة كانسو Gansu ورغبت نقل حركته إلى خارج مقاطعته) بدعم من النظام البريطاني في الهند، بهدف إيجاد حاجز يمنع من تسلل نفوذ السوفيات^[3].

[1] Owen Lattimore, Intoduction to Martin R. Norins, Cateway to Asia: Sinkiang, New York 1944, p.17

[2] ايتجن ك. وو Aitchen K. Wu الموظف المدني في حكومة نانكين الذي زار معسكر ما Ma في كتابه: Turkistan Tumult, London 1940, pp.236-237

[3] المصدر السابق المجهول صفحات 7 و9 و15. لا بد من ملاحظة الفوضى التي وقعت في هذا الوقت والجوانب العديدة التي تم التعامل معها، مع ملاحظة أن ما وثوار قمول بعد هزيمتهم شملتهم الحماية الروسية بالفعل.

وكان الاتفاق على أن التسلل الياباني إلى سنكيانغ أقل خطرا من التسلل السوفياتي مع ما يسببه من أضعاف السلطة الصينية على سنكيانغ والإضرار بالمصالح البريطانية فيها من ملامح السياسات المرغوبة في آسيا وأروبا في ذلك الوقت، ولم يحاول النازيون الذين كانت تنتشر مقالاتهم لإثارة المشاعر ضد السوفيات على إخفاء الحقيقة بأن السياسة السوفياتية في سنكيانغ في حالة دفاع ومجابهة التسلل الياباني الذي تم تنفيذه.

وأكد فؤاد قازاق الفار من النظام السوفياتي أن التوسع الياباني جعل الاتحاد السوفياتي لا يشعر بالاطمئنان على طول حدوده مع الصين^[1]، وقد نسب الكاتب الألماني ثورة قمول في عامي ١٩٣٣-١٩٣٤م إلى عملاء اليابان، وقال: (إن هذا الاندفاع الياباني نحو الغرب قد يدفع الاتحاد السوفياتي على احتلال سنكيانغ^[2]، وأخيرا في عام ١٩٣٤م قال يورنيف Yurenev الذي كان حينئذ سفيرا سوفيائيا في طوكيو إلى السفير غرو Grew: إن الجنرال هاياشي Hayashi وزير الحرب الياباني يعمل بثبات ضد الاتحاد السوفياتي في سنكيانغ خاصة^[3]. وفي نفس المقابلة مع السيد غرو Grew قدم السيد يورنيف Yurenev ملاحظة فتحت الطريق لفهم السياسة البريطانية في ذلك الوقت حيث قال: (طبقا لمعلوماته فإن إنجلترا تظهر ميلا كاملا وواضحا تجاه اليابان، وأضاف أن إنجلترا في وضع سيئ لأنها ترى أن اليابان ستكون قوة ضاربة)^[4].

واستنتج السفير السوفياتي إلى وجود ارتباك في السياسة البريطانية من خلال تباين الكتابات البريطانية في هذه الفترة، ومع أنها ترى أن اليابان قد تتحمل جزءا من مقاومة بريطانيا التقليدية لروسيا، ولكنها قلقة أيضا من أن نفوذها يزداد عاما بعد عام في كل مكان في آسيا، مما يعيق تجارتها ومصالحها السياسية، وقد

[1] Fuad Kazak, Ostturkistan zwischen den Grossmachten, Konigsberg-Berlin 1937, p.75

[2] المصدر المجهول السابق ص 6

[3] Joseph C. Grew, Ten Years in Japan, Simon & Schuster, Inc. New York 1944, pp.123-125

[4] Grew, op.cit. p.125

شرح هذا التباين السير أريك تشمان Sir Eric Teichman الخبير البريطاني في شؤون مناطق الصين في آسيا الداخلية في ملخصه، لوضع سنكيانغ في السياسة اليابانية، فتارة يتعاطف معها وتارة يتخوف منها يقول: إنها تشكل حاجزا لصد تيارات البلشفية المتقدمة في الشرق الأقصى، مما أدى خطواتهم فيها لاضطراب كبير دفعتهم لاحتلال منغوليا الداخلية وشمال الصين على تحقيق مصالحهم الخاصة^[1].

وتحت الضغط المزدوج من الخوف من روسيا والقلق من مواجهة السياسة اليابانية ذات الأهداف المجهولة، كانت السياسة البريطانية كما ظهرت من كتابات البريطانيين تحوم بالشكوك حول شنغ شيه تساي Sheng Shih-ts`ai خاصة في فترة الإصلاح الإداري في سنكيانغ، وكانت تتطلع برضى نحو الساسة المسلمين الدينية على أنهم الحاجز الواقعي من حركة الملحدين الوطنية، وزعماء المسلمين في جنوب سنكيانغ المعارضين طويلا لشنغ شيه تساي كانت نظرتهم ودية نحو بريطانيا، كما جاءت في أحاديثهم الودية مع الرحالة البريطانيين، وكانت لهم أيضا علاقات ودية مع القنصل البريطاني العام في كاشغر، وعندما اندلعت ثورة إسلامية ضد شنغ شيه تساي في عام ١٩٣٧م قالت جريدة تايمز Times: يبدو أن هذه الأحداث تشير إلى اختفاء تأثير السياسة السوفياتية مؤقتا في كاشغريا^[2]، ولم تكن السياسة البريطانية ناجحة أبدا، ولم يأت اليابانيون أبدا إلى نقطة الاشتباك مع روسيا، وقد تلاشى النفوذ البريطاني في كاشغر وياركند وخوتن بعد أن كانت قوية فيها، وفي خلال سنوات حكم شنغ شيه تساي عندما كانت سياسته متقدمة وناجحة كان كل من بريطانيا واليابان يمثلان التهديد الإمبريالي في سنكيانغ، وقد كان جزئيا وسيلته لتحويل ضغط القومية الأويغورية وغيرها لضرب النفوذ البريطاني، وأما الشبح الياباني في سنكيانغ لم يؤد مطلقا إلى حقيقة التوسع الياباني أو غزوها، ولكن في السنوات التي كانت

[1] Sir Eric Teichman, Journey to Turkestan, London, 1937, p.191

[2] The Times, 21 August 1937

السياسة البريطانية تهادن اليابان كان النفوذ البريطاني خفيفا على سنكيانغ^[1].

الثورة الصينية تصل إلى سنكيانغ:

بعد أن تزايد النفوذ الثوري الروسي وتقوى في آسيا الداخلية وتضاءل النفوذ البريطاني في عام ١٩٣٠م، بدأت تأثيرات الثورة الصينية تدخل سنكيانغ خفية، والذي حدث بعد ثورة الصين ١٩١١م في سنكيانغ ما هو في الواقع إلا تغير العنوان من الإمبراطورية المانشورية إلى الجمهورية الصينية؛ لأن الفئة الحاكمة التي تزعمها يانغ تسنغ هسين Yang Tseng-hsin استمرت في حكم سنكيانغ، ونجحت في منع وصول مبادئ الثورة الثانية والأحداث التي حدثت فيما بين ١٩٢٥-١٩٢٧م.

وبدأت التطورات مع ثورة المسلمين الوطنيين في بداية عام ١٩٣٠م ثم تطورت مع عصيان ضد الحكم الصيني إلى ثورات ضد النظم الاجتماعية التقليدية في سنكيانغ، ومنحت هذه التحولات فرصة العمل لأولئك الصينيين في سنكيانغ الذين تحولت أفكارهم إلى الثورة.

ويبدو أن شنغ شيه تساي عندما تولى الحكم في سنكيانغ كان ثوريا ومغامرا عسكريا في آن واحد، وكان قد عمل في البعثة الشمالية عام ١٩٢٧م، وصاحب الطابور العسكري الأول المشهور الذي كان يقوده تشانغ كاي شك Chiang Kai-shek مع رئيس هيئة الأركان هو يينغ تشين Ho Ying-chin ومساعد رئيس الأركان باي جونغ هسي - Pai Chung-hsi وكان يعمل بنفسه في قسم

[1] وبخصوص مشاعر الصينيين المعاصرين العدائية نحو بريطانيا في موضوع سنكيانغ، انظر:

Edgar Snow, *Battle for Asia*, Random House, New York 1941, p.307

ولاحظ الاستشهاد المهم في جريدة صينية مستقلة Ta Kung Pao وأيضاً:

Martin R. Norinsa, *Gateway to Asia: Sinkiang*, New York 1944, pp.48 and 56 also citing Chinese Sources

التخطيط بالهيئة العامة، وقد لاحظ عن قرب أن زعماء الكومنتانغ Koumintang العسكريين يستغلون بجرأة النزاع الطبقي لخلق وضع يستطيعون منه التحكم على ميزان القوى الذي ظهر لفترة أنه تحت سيطرتهم الكاملة، وتطورت بهم نظرية ركوب النمر الثائر والثبوت عليه بدون فقدان التحكم، ولعل شنغ شيه تساي فكّر جيدا عندما تولى السلطة في سنكيانغ أن باستطاعته أيضا استعمال نظريات الثورة بدون التحكم على نتائجها.

والذي واجه شنغ شيه تساي في سنكيانغ لم تكن ثورة، بل عصيان عام لم يتمكن من إخماده بقوة مصادره العسكرية التي تحت إمرته، ومن جهة أخرى لا يريد حماية مصالح العائلات الصينية الاستعمارية المستثمرة منذ طويلة في المقاطعة، فقد كان قادمًا جديدًا إليها، ولديه الفرصة في السيطرة على الوضع إذا استطاع أن يعمل جيدا مع استعمال الوسائل المتاحة له، وتضم هذه الوسائل:

١. الحصول على مساعدة آلية من السوفيات نظير منع تضخم النفوذ الياباني في آسيا الداخلية.

٢. السماح بعودة الروس إلى سنكيانغ لمساعدة القوات الصينية التي هزمت من اليابانيين في منشوريا، والتجأت إلى سيبيريا حيث وقعت في الاعتقال إلى سنكيانغ، وبهذا يستطيع أن يجعل من نفسه وهو القائد الصيني المانشوري المنقذ الحقيقي لهذه القوات المعتقلة، وهؤلاء ليست لهم أية علاقات بالسياسة المحلية في سنكيانغ ويساعدونه على استغلال التعزيزات المرسلّة من الصين.

٣. إرضاء الأويغور والزعماء السياسيين غير الصينيين الآخرين على حساب الموظفين الصينيين القدماء في سنكيانغ | الجماعة التي لا يرتبط بها شنغ، ولا توجهه الدفاع عن مصالحها- إذا استطاع التخلي عنهم يتمكن

عندئذ من إيجاد مصالح جديدة ترتبط به وتعتمد على سياسته الجديدة، كما ظهر في الفصل الثالث، فإن سياسة شنغ قامت على إرضاء الشعوب، ولكن في الواقع نفذت بشكل رئيسي لاكتساب بعض زعماء هؤلاء الشعوب الذين لم تكن طوحاتهم سوى نيل المراكز التي كانت في الماضي وقفًا على الصينيين.

٤. الاعتماد على الخبراء الصينيين الجدد والمستشارين الذين يشبهونه ولا يتقيدون بالمصالح العامة للنظام القديم، ويستطيعون مساعدته على تنفيذ سياسته في التعامل مع الروس، والعمل على إرضاء القوميات غير الصينية في سنكيانغ أكثر مما عمله الحكام الصينيون من قبل.

وعولجت النقاط الثلاث الأولى مقدما في الفصل الثالث من هذا الكتاب، ويتردد ذكرها هنا لارتباطها بالنقطة الرابعة التي توضح الوسيلة التي دخلت بها الثورة الصينية إلى سنكيانغ بعد فترة طويلة، ثم بدأت عملها هناك.

وفي سنوات تجديده الأولى لم يصادف شنغ صعوبات كثيرة على جمع الصينيين الغرباء عن المقاطعة الذين لا يرتبطون بها كثيرا، ولكنهم يتحمسون لها، وفي الفترة ما بين ضياع منشوريا عام ١٩٣١م وتكوين الجبهة المتحدة بين الشيوعيين والكومنتانغ في بداية عام ١٩٣٧م عانت الصين من المرارة والضياع، وتقاعد الآف الصينيين الوطنيين ممن لا يريدون الانضمام إلى الشيوعيين عن الكومنتانغ الذي أصرّ ورفض وقف مقاومة اليابانيين بدلا من الاستمرار في الحرب الأهلية ضد الشيوعيين، إلا أنهم يتطلعون إلى الإصلاح وهم مستعدون على التجمع حول زعيم مثل شنغ شيه تساي الذي يدعو إلى الوحدة الداخلية والإصلاحات الديمقراطية والعداء اللامحدود للإمبريالية.

ولم يتخوف الصينيون ممن يحمل هذه الرغبة من علاقات شنغ الودية مع

الروس، وقد كان كثير من الصينيين على علاقات طيبة مع روسيا بالنظر لتهديد اليابان الواضح لهم، واستعداد شعب ضد آخر سياسة صينية قديمة، ولكن تخوف كثير منهم من هذه السياسة خشية أن تنعكس عليهم، وحذروهم من توثيق العلاقات مع روسيا حتى عند مواجهة هجوم ياباني متزايد، وذلك لأن روسيا كانت شيوعية.

ولكن شنغ بالإضافة إلى اليساريين جنّد الشيوعيين الصينيين، ودعا الشيوعيين البارزين للالتحاق بخدمته واستعملهم لمعرفة في الهيئات الشعبية، ولخبرتهم في الاقتصاد والشؤون المالية، ولكنه أحكم سيطرته القوية عليهم، وعندما اضطر أن يعمل ضدهم وخاصة بعد أن شك في قدرة الاتحاد السوفياتي على الصمود في معركة ستالينغراد فكّر أن من الحكمة أن يعود إلى علاقاته مع الكومنتانغ، ويقطع صلاته مع الاتحاد السوفياتي عندئذ ألقى القبض على مساعديه من الشيوعيين والأحرار وسامهم العذاب وقتل الكثير منهم، ومن ضمنهم أخ ماوتسي تونغ Mao Tze-tung ولم يفرج إلا عن قليل منهم، سمح لهم بالعودة إلى ينان بعد نهاية الحرب مع اليابان [1].

وجلب هؤلاء المستشارون الذين استخدمهم شنغ شبيه تساي في سنكيانغ للأفكار والنظريات في تكوين الهيئات الشعبية والأحزاب التي تطورت مع ثورة الصين لأكثر من عشرين عاما، ومع ذلك لم ينحصر نشاطهم في البيئة الصينية، وإنما توجهت جهودهم لمعالجة مشاكل تقوية حكومة المقاطعة أو في الإصلاح الاجتماعي في سنكيانغ؛ لأنهم جزء من الأقلية الصينية في مجتمع من القوميات المختلفة عن الصينيين أو عن بعضها في استجابتها للقضايا السياسية والاجتماعية.

[1] أنا مدين بهذه المعلومات لملاحظات غير المنشورة للآنسة أنا لويس استرونغ Anna Louise Strong في مقابلاتها مع بعض هؤلاء الشيوعيين المضطهدين العائنين في ينان .Yenan

وفي هذا الوضع ظهرت النظريات القومية والسياسية التي انتشرت أكثر أهمية على تحديد ماهية الصفوف السياسية، وظهر من الصينيين أفراد يرغبون أن تكون لأنفسهم المكانة المرموقة لكونهم الشعب الحاكم ووجوب معاملة الشعوب غير الصينية شعوبا مستعبدة، وفي مقابلهم ظهر صينيون يعتبرون أنفسهم أكثر كرما وتطورا؛ لأنهم يعتقدون أن الشعوب غير الصينية يجب أن تنال وضعاً متساويا يدفع أفرادها على قبول اللغة الصينية والامتزاج بالثقافة الصينية، ولكن الشعوب غير الصينية لم تقبل هذه النظرة المتقدمة؛ لولائها الخاص لثقافتها ولغاتها، وظهر في الطرف الآخر من هذا الجدل بعض الصينيين الذين يرون منح حق المواطن الكامل لجميع الشعوب غير الصينية مقرونة بالاستقلال في التعليم واستعمال اللغات غير الصينية، وأن تكون لهم حكومات محلية ذاتية تقوم على الوحدة اللغوية بدلا من وحدة الأرض، بينما اعتبرهم الأويغور والقازاق وغيرهم من الشعوب غير الصينية متطورين، اعتبرهم الصينيون متطرفين خطرين وانفصاليين.

وقد أثارت النزعة القومية بين الشعوب غير الصينية جوانب عديدة، وتردد الأشخاص الذين آلت إليهم المراكز والامتيازات السياسية من الحكم الصيني من الموافقة على أي تغيير، بينما تحمس لها الأشخاص الذين سلب الصينيون مراكزهم؛ لأنهم يصرون على العودة إلى مراكزهم ولا يرغبون حدوث تغيير ما في شكل الحكومة والإدارة، والأويغور الذين يكونون أكثر القوميات عددا والأغلبية الساحقة في سنكيانغ يرغبون حكم المقاطعة، وأخذ نفس الحقوق على حكم الأقليات الأخرى مثلما حكمها الصينيون.

وهناك القزاق والمغول وقوميات أخرى يريدون الاستقلال من الأويغور ومن الصينيين معا.

وأخيرا هناك القوميون المتطرفون الذين يرغبون تغيير النظام الاجتماعي

والسياسي ويخلعون بكواتهم وسلاطينهم وأمراءهم ويتولون الحكم شخصيا بدلا من الحكام الصينيين.

وتفاعلت كل هذه المجموعات والنزعات مع بعضها البعض على شكل ائتلافات مستمرة متغيرة، وكانت الائتلافات صفة بارزة في السياسات الإصلاحية والثورية، وتكونت جماعات يتحد مصالحها في الدفاع ووحدة المنافع وتلاشى بالتأكيد على المصالح المختلفة، وأما إذا حصلت إحدى المجموعات الرئيسة على مصالح تعتقد أنها ضرورة لها، فإنها لا ترغب المخاطرة بها لمؤازرة مصالح مجموعة أخرى، وعندئذ تتكون ائتلافات جديدة. ويتجمعون حول من يرغب تهدئة الوضع من ناحية، وحول أولئك الذين مازالت مصالحهم لم تصل إلى درجة الدفاع عنها.

وفي الفترة الأولى من الحكم حقق شنغ شيه تساي نجاحا ملموسا عندما كوّن حول نفسه ائتلافا يساريا من المتقدمين والمتطرفين والشيوعيين الصينيين بالإضافة إلى زعماء غير الصينيين، الذين منحهم كثيرا من الحرية في العمل السياسي أكثر مما منحهم أي حاكم صيني سابق.

وأما في الفترة الثانية من حكمه فشلت محاولاته على تأسيس مراكز ائتلاف يميني يجمع بين ممثلي الكومنتانغ المرسلين حديثا من الصين، ومن أتباعه الذين يعتبرهم محلصين له أكثر من أنهم يمثلون مبادئ سياسية.

وبعد سقوط شنغ وانتهاء الحرب مع اليابان ضعفت أحزاب الكومنتانغ المختلفة كثيرا من المعارك الحزبية فيما بينها، وتكونت جملة من الائتلافات، جنّدت ممثلي أكثر المصالح القديمة من غير الصينيين، خاصة من الأويغور والقازاق، وهذه الائتلافات التي سيطر عليها الصينيون قاومها ائتلاف غولجه في وادي إيلي وجونغاريا الغربية الذي كان يعتمد على اليساريين والجماعات الشيوعية من الوطنيين غير الصينيين، وفي نفس الوقت احتفظ بالعلاقة

بالممثلين المعتدلين مثل تشانغ تشيه تشونغ Chang Chih-chung ضمن الجناح الأيمن للائتلاف الذي يسيطر على معظم حوض تاريم وشرق جونغاريا.

الكومنتانغ والشيوخيون الصينيون والحدود الروسية

وفي مثل هذا النوع من ائتلاف السياسات حدث تغير في ولاء عثمان باتور زعيم القازاق الحر، الذي أجرى معه المراسلون الأمريكيان مقابلة يعتبر نموذجا، أولا فهو زعيم حربي مع اتباعه المستقلين أراد أن ينتهز فرصة ضعف القوات الصينية بالالتحاق إلى ائتلاف إيلي، وعندما فشل من السيطرة عليهم تراجع إلى جانب الصين، حيث زادت شعبيته في هذا الوقت؛ لأن العطف الشعبي تحول من الأويغور المحافظين والزعماء الآخرين القابلين بالحماية الصينية.

وخلال هذه الفترة في سنكيانغ حدث أن ائتلاف إيلي الذي يجاور الحدود السوفياتية من تلقي المساعدة والتأييد من قازاقستان السوفياتية، وأما ائتلاف موظفي الكومنتانغ والجنرالات ورؤساء الأويغور المحافظين جاءهم الدعم من الكومنتانغ، كما حصل المؤيدون من القازاق على معونات مالية وأسلحة أمريكية من حكومة نانكين التي تدعمها أمريكا، ثم انتهت هذه الفترة بتقديم القوات الشيوعية الصينية عبر يانغتزه Yangtze وعزلت مراكز الكومنتانغ في سنكيانغ من وصول المساعدات القادمة إليها من الصين.

وهكذا نتج وضع جديد تماما في سنكيانغ، ووقعت الشعوب غير الصينية بين حكومة يحكمها الشيوعيون الروس من طرف وحكومة يحكمها الصينيون غير الشيوعيين، ومن طرف ثان كانت تقف بين حكومة يحكمها الشيوعيون الروس وحكومة يسيطر عليها الشيوعيون الصينيون، وفي هذا الوضع الجديد كان أهداف الشيوعيين الروس وأهداف الشيوعيين الصينيين الماركسية متشابهة، ولكن المصالح الداخلية في كل من جمهورية الصين والاتحاد السوفياتي لا

تتطابق تماما، وفي الاتحاد السوفياتي يعتبر الروس شعب مسيطر ولكن يسكن الأراضي الشاسعة ملايين من غير الروس، وأما في جمهورية الصين فالشعب الصيني هو الأغلبية الساحقة، ولكن توجد فيها مناطق شاسعة تسكنها شعوب غير صينية، ومركز الجاذبية الجغرافي للمناطق غير الصينية في الصين تقع في سنكيانغ التي تلاصق حدودها جمهوريات آسيا الداخلية السوفياتية، وهي مناطق ذات أهمية قصوى في الاتحاد السوفياتي تقطنها شعوب غير روسية أو سلافية.

وهذا الوضع يعطي شكلا جديدا لمشاكل قديمة، ويخلق مشاكل جديدة خاصة بها، وهناك سؤال في الاتحاد السوفياتي عما إذا كانت المصالح الروسية تتجاهل مصالح الشعوب الأخرى، ويوجد نفس السؤال في الصين عن تجاهلها مصالح الشعوب الأخرى، وهي موضوعات قديمة تطورت بحذر في المناطق المجاورة لكل من الاتحاد السوفياتي والصين منذ مدة طويلة، بالإضافة إلى مشكلة العلاقة بين الاتحاد السوفياتي والصين، ومصالح دولة الاتحاد السوفياتي يتعاضم نفوذها مما يجعلها تتحكم أن على دولة الصين.

وإذا كان في الاتحاد السوفياتي مخططون أكفيا مهرة يمكن أن تؤدي سياستهم لضم أجزاء من سنكيانغ إلى جمهورية منغوليا الشعبية وجمهوريات القازاق والقيرغيز والتاجيك في الاتحاد السوفياتي، وإلى تأسيس جمهورية أوغورية في حوض تاريم، يمكن لاحقا ضمها إلى الاتحاد السوفياتي، إذ أن صلات الشعوب واللغات والثقافات والارتباط الجغرافي والمواصلات البدائية الصعبة والتطور المادي السريع في سنكيانغ كلها تربطها بمنغوليا والاتحاد السوفياتي أكثر من ارتباطها بالصين، ومع ذلك فإن مصالح الصين المادية والعاطفية في سنكيانغ حقيقة ملموسة رغم تعرضها على الإساءة، مما أثر في علاقاتها بالصين التي يمكن معالجتها بالحكمة، ويحتمل ألا يتخلى الشيوعيون الصينيون عنها لأن الصين تدعي أن هذه الأراضي التي سيطرت عليها منذ

وقت طويل أراضي صينية، وفي نفس الوقت سيعملون على تطبيق سياسات جديدة لا في سنكيانغ فحسب، بل في منغوليا الداخلية والاقليم التي يكثر فيها المسلمون الصينيون مثل نينغشيا Ninghsia و كانسو Gansu وأجزاء من التبت إذا أمكنهم التدخل فيها.

ومن المحتمل لكونهم ماركسيون أنهم يقتبسون الأنظمة الروسية المستعملة في آسيا السوفياتية، ولعل سنكيانغ في مستقبلها القريب قد يواجه ائتلاف غولجه في وادي إيلي وجونغاريا الغربية ظروف معقدة مادام ائتلاف غولجه كان يقتبس الأنظمة السوفياتية بشكل ملحوظ، ومن المحتمل أيضا أن الكتلة الصينية الواسعة وانتشارها في الأراضي الشاسعة مع سكانها المتباينين ومواصلاتها البدائية يستحيل عليها أن تتلائم مع نظرية معينة.

ومع ذلك فالشيوعيون الصينيون مثل الروس واقعين تحت ضغطين مهمين: إقناع حكومات الشعوب غير الشيوعية في جميع أنحاء آسيا أن دولتهم التي أسسوها قوية، لا يمكن هزيمتها، ثم عليهم إقناع الشعوب أنه حيث يكسب الشيوعيون فإن الشعب الذي فقد سلطته يسترد بعض نفوذه.

والصين التي هي موطن الصينيين معزولة من معظم آسيا بالبحال والغابات، وسنكيانغ بمركزها المحوري في قلب آسيا ستتحول إلى الهند أوباكستان أوأفغانستان أوإيران، وذلك كما تتناقله أفواه الناس من أخبار عن التغيرات السياسية الكبيرة التي تحدث في الصين، ومرة أخرى كما كانت قبل ألفي سنة في عهد إمبراطورية هان أصبحت سنكيانغ محورا لما حولها من السياسات والقوى المتطورة ومصائر الناس.

الملحقات

الملحق الأول: الفن القديم وعلم الآثار الحديث

فإن أكثر معرفتنا عن تاريخ آسيا الوسطى المبكر كانت نتيجة جهود العلماء الأوروبيين في أوائل القرن التاسع عشر في استكشاف آثار المدن التي بقيت مدفونة تحت الرمال، ومن أشهر هذه البعثات الأثرية ما قام بها السير اورال شتاين Sir Aurel Stein بدعم من حكومة الهند، وما قام به البروفيسور البرت غرونديول Prof. Albert Grunwedel والبرت فون لي كوك Albert von Le Coq من المتحف الوطني للأعراق البشرية في برلين، وآخرون غيرهم: د. كلمنز (1897-1898 D. Klementz م)، ومن الروس الإخوة برزووسكي Berezowsky (1906 م) وأس. اولدنبورغ S. Oldenbourg (1909-1910 م)، والفرنسي باول بيليو Paul Pelliot (1906-1909 م)، ومن اليابانيين: تاجيبانا Tachibana (1910-1911 م) واوتاني Otani (1902-1903 م).

وقد قام شتاين Stein بثلاث رحلات في 1900-1901 م، و1906-1908 م، و1913-1916 م، وكان تركيزه على تركستان، وعمل على الطرق الصحراوية من واحة خوتن إلى لوب نور، والمواد التي أحضرها حفظت في المتحف البريطاني في لندن ومتحف آثار آسيا الوسطى في نيودلهي، وجزء من مكتشفاته نشرت في لوحات في مجلد كامل مصاحباً لتقاريره الثلاثة المطبوعة: خوتن القديمة Ancient Khotan وسيرنديا Serindia وأقصى آسيا الداخلية Innermost Asia (وهذه الكتب الثلاثة تحتوي أيضاً اكتشافاته في بعض واحات الشمال لحوض تاريم بالإضافة إلى إيران وغرب الصين).

والبعثات الألمانية الأربع في تورفان (والتي سميت هكذا من أهداف الفريق الأول) عملت على طول الطريق الشمالي من مارالباشي إلى تورفان في الأعوام: ١٩٠٢-١٩٠٣م، و١٩٠٤-١٩٠٥م، و١٩٠٥-١٩٠٧م، و١٩١٣-١٩١٤م، و تم شحن ما تم جمعه إلى برلين، ولكن الجزء الأكبر من اللوحات الجدارية دمرت خلال ضربات الحلفاء على برلين في الحرب العالمية الثانية، ولكن الصور الجيدة لها توجد في المجلدات السبعة التي نشرها لي كوك Le Coq باسم العصور البوذية المتأخرة في وسط آسيا Die Buddhistische Spatantike in Mittel Asien وكتابه خوجو Chotscho، وكتاب لغرونديويل Grunwedel باسم Alt- Kultsche وتقريره عن البعثتين الأولى والثالثة باسم تقرير عن العمل الأثري Bericht uber archaeologische Arbeiten وكتابه أماكن العبادة البوذية القديمة Alt-buddhistische Kultstätten يتضمنان لوحات ورسومات وبيانات كثيرة قام بها المؤلف نفسه.

ومع اختلاف هذه البعثات وعملها، فقد لاحظت حكومة الصين شحن صناديق كثيرة مليئة بالآثار الفنية إلى خارج البلاد، فعمدت إلى منع عمليات التنقيب عن الآثار، وإعاقة ذلك بشتى السبل، ولكن خلال الحرب العالمية الأولى كانت المواقع المعروفة قد تم بالفعل العمل فيها، كما أن أماكن الآثار التي يمكن الوصول إليها بسهولة قد عبث بها الأهالي، وقام بعض علماء المسلمين بتدمير التماثيل خاصة التي تمثل الأشكال البشرية، وما كشف عنها الأوروبيون تركت مفتوحة ولم يتم نقل الكثير منها، للعمل في مرحلة تالية لجهود الباحثين.

المكتشفات الفنية الهامة تمت تقريبا في عشرة أماكن على الطرف الجنوبي لصحراء تكلامكان قرب خوتن — التي كانت عاصمة لمملكة قديمة — ووجدنا آثار مستوطنة مدفونة تحت الرمال في دندان اويلك Dandan Oilik ومعبد بوذي على شكل قبة في رواق Rawak وفي الشرق بالقرب من المكان

الذي يختفي فيه نهر نيا Niya، وفي الكشبان توجد مدينة قديمة آثار قلعة تبتية في ميران Miran وبجوار جارقليق Charklik مجموعة من معابد بوذية قديمة، وفي الطرف الشمالي من الصحراء عند أطراف سلسلة جبال تنغري تاغ (Tien Shan) توجد معابد تومشوك Tumshuk بجوار مارالباشي Marablashi والمعابد الكبيرة في سوباشي Subashi ودولدو - اخور Duldu-akhur فوق واحة كوجار وأيضا في محيط كوجار التي كانت مركزا لإمارة كبيرة يوجد مينغ اوي Ming Oi يعني ألف بيت في قزِيل وكومتورا وكيريس Kiris وهذه معابد في كهوف قطعت في صخور صلبة في الجبال، حيث تجري فيها الأنهار، وفي شورجوك Shorchuk توجد آثار مدينة مسورة تضم معابد عدة وشواهد قبور، وكما في كوجار فإن الأهالي يطلقون على المزارات مينغ Ming Oi.

ومنخفض تورفان بواحيها تورفان وقراخوجه غنية بشكل خاص بآثارها الفنية، ويمكن متابعة هاتين المدينتين القديمتين، والأقدم منهما هي أطلال تماما في خوجو Khocho (Chotscho) عاصمة ملوك الأويغور في تورفان من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، تضم العديد من المعابد والأديرة والمقابر التي كانت غنية بالاكتشافات، وفي الوديان الصخرية بالقرب من خوجو مجموعة من الأضرحة ومساكن الرهبان التي قطعت في الصخور التي على الضفاف، ومن أهم هذه المعابد في وادي تويوك Tuyok ومعبر سانغيم Sangim ومنصة الدير الكبير في بيزكليليك Bezeklik (وأحيانا يطلقون عليها مينغ اوي).

والموقع الذي لا بد ذكره هو خوتن نفسها مع أنه لم يبق من آثار العاصمة القديمة إلا شيء محدود، ولكن تم الحصول على كمية كبيرة من المواد المعدنية والفخارية من الحفريات التي تمت في الواحة. ومع بعض الاستثناء فقد كان معظم الأشياء الباقية تضم بوضوح سمات دينية مثل المعابد والأديرة والأضرحة أو أجزاء متنوعة من مؤسسات الرهبان.

وفي كل مكان وفي منخفض تورفان فالبودية هي السائدة، وفي المدينة القديمة خو جو توجد بعض المباني التي تمثل النسطورية المسيحية والمانوية، والمخطوطات التي وجدت في تورفان تشير أن هذه الأديان الثلاثة عاشت معا قرونا عدة.

وبعض هذه المعابد قطعت من الصخور، وبنيت عموما بالطوب المجفف بالشمس ثم تم تركيبها بالطين، او بنوع من جص الطين، وتم تقويتها بالأغصان والعوارض، وكما هو متوقع في مثل هذا البناء فالهندسة عموما بسيطة وهي مميزة، وقلّة من هذا البناء يرتفع عشرين أو ثلاثين قدما، وبالعموم فإن أشكال المباني تشبه الموديلات الإيرانية والهندية، والعناصر الرئيسة في كل دير قطعت في الصخور أو أنشئت مستقلة وتتكون من ثلاثة: ميدان دائري حول مجسم لبوذا مع ممر يسمح بالوصول إلى الميدان والدوران حول المجسم، بالإضافة إلى مجسم البوذا المركزي فالمعابد مليئة بمنحوتات البوذا وآلهة بوذيستفاس Bodhisattvas ولوباكالاس Lopakalas وهكذا، وتم ترتيب التماثيل على أبعاد تبدأ من التماثيل التي تكون أكبر قليلا من حجم الإنسان الحي إلى تماثيل لبوذا جالسا محاط بالاوربوليس، التي استخدمت عناصر زينة مع زخارف من الأوراق والأزهار، والتماثيل عموما صنعت من الجص أو الطين تم تقويتها بالقصب أو القش في الدواخل.

ويبدو أن هذه التماثيل تم تركيبها بأشكال منفصلة من الوجه والشعر والأذن والأذرع والأرجل وأجزاء أخرى، ثم جمعت وألصقت في الحائط، والتنوع يمكن إدخاله في تعبير الوجه عند انتهاء العملية قبل أن يجف التمثال، وبعد ذلك يمكن تغطيته بطبقة من الطين أو الجص مرسوما بالألوان المائية ومزينا بالأوراق الذهبية، ومع أن الكثير في أشكال التماثيل حصل عليها المسح أو التدمير، ولكن يبدو أن الأجسام والصور تم إنجازها بنفس الطريقة، في بعض المعابد كل الجدران تم تغطيتها بمثل هذه التماثيل، ولكن التماثيل المنحوتة

لمناظر تضم أكثر من رسم كان نادرا.

وأكثر ما يثير من هذه التماثيل الرسومات الجدارية، وتقريبا كل الجدران الداخلية والسقوف مغطاة تماما باللوحات، والموضوعات الكبيرة فيها تعكس صور الحياة البوذا أو لأنواع من بوذا رسمت في مجموعات بديعة محاطة في صف بعد صف حول البوذا الجالس، والمناظر التي فوق الرأس ملئت برسوم المناظر الجبلية التي عملت من شرائح صغيرة كثيرة تشرح كل منها لأسطورة لبوذا: غانذارفاس Gandharvas المجنحة (نوع من الملاك) وموسيقون آلهة ورسمت في فراغات مثلثة على مستوى النظر؛ لإعطاء الانطباع أنهم يعزفون فوق المعبد، ورسوم الحيوانات الحقيقية أو الأسطورية وأزهار وأشجار وقصور وآلات الحرب والطرب بين الأشياء الكثيرة التي تتصل بمختلف الأساطير أو بالأمور المحيطة، المعروف من الكلاسيكات الدينية اليونانية كما في الآلهة الهندية المسلحة العديدة، فقد تم تطبيقها في الرسومات البوذية، بعض هذه الرسومات تحتوي على تجمعات لهذه الآلهة، وبعضها تصور جنات البوذا وجحيمه، والرسومات المتكررة لبوذا هو يعظ مجموعة من الرهبان، وكذلك صور الرهبان مع النبلاء المتبرعين لزينة المعبد.

وتم تصوير المتبرعين بشكل طبيعي بملابسهم المحلية وأعمارهم، في مقابل الرهبان والشخصيات الدينية الذين صورت ملابسهم حسب القانون الفن البوذي، مما هو أكثر إثارة أن ملامح الوجه وغيره من الملامح الشخصية تم تجسيدها للرعاة، كما كان من المدهش أن التنوع البشري بين صور الأوربيين والآسيويين كان مميزا، وتدل الشواهد أن الغزاة الأجانب كان لحكامهم الجدد الذين اعتبروهم رعاة للمعابد البوذية الموجودة، وحيث إن هؤلاء المحاربين عموما من شعوب أقل مستوى ماديا وفنا، ولم تكن لأفكارهم أثر كبير على محتويات ونماذج في فن المعابد، ويبدو أن الصور من عمل الرهبان أنفسهم أو فنانين يعملون تحت رقابة دقيقة من المشرفين الدينيين.

وكل اللوحات الجدارية وضعت بدقة، واستعمل اللون المائي مباشرة على الحائط الناعم، بينما كان طريا مبللا، وفي كل مجموعة من الأديرة كل اللوحات محدودة الألوان ومبينة درجاتها، والألون القليلة المستخدمة كانت بأثرها المعبر، والأوراق المذهبية استعملت متفرقا، وفي بعض الحالات تظهر الصورة بوسائل التتبع أو الرسومات الخفيفة، وعادة ماتكون الجداريات قد نحتت بالأيدي بحرية، والرسم المميز تم التأكيد عليه بخطوط عريضة تبدو تقريبا سوداء وسميكة قليلا.

وبالإضافة إلى هذه المنحوتات واللوحات الجدارية يوجد العديد من نماذج الفن الصغيرة، وبالأخص ألواح الخشب المرسومة، التي وضعت تحت أقدام تماثيل البوذا عطايا نذرية، وبعض الرسومات على ورق أو قماش تم تنفيذها بنفس الهدف أو لرجال المعبد، وقطع المخطوطات المزركشة المانوية التي وجدت في خوجو تشبه إلى حد كبير بشكل مدهش فن الكتاب المسيحي في العصر الوسيط المبكر.

وبين الأشياء الخشبية توجد خزائن مجوهرات صغيرة وتماثيل وعوارض سقف منحوتة وأقواس وعناصر هياكل، والمنسوجات والمطرزات يبدو أنها جاءت من آسيا الوسطى والصين وفارس وغيرها من البلدان، ومع أن بساط خوتن مشهور ولكن من الصعب التأكيد على أي من القطع الموجودة من أنها مصنوعات خوتن.

ومن بين الخرائب المختفلة لعصور مبكرة يمكن أن يمثلها المساكن في موقع نيا Nya واستوبا Stupas من ميران، وقد تمكن السير اورال شتاين من الرمال المتحركة والكثبان التي غطتها في شمال قرية نيا الحالية أن يجد آثار مجتمع كامل، وبالإضافة إلى ستوبا يوجد منازل قديمة وميادين وإسطبلات والمظلات والحدائق والتعريشات وقنوات الري وحتى جسور للمشاة على

أماكن النهر القديم، وترتفع ألواح الخشب المقطوع في الأرض الضعيفة، ودعائم أساسية للجدران الجص والقضبان للمساكن القديمة.

وبعض المنازل بأحجامها الكبيرة تشير أن سكانها هم من كبار الموظفين، ومن إزالة الرمال التي تغطي أراضي الغرف وانتشال العوارض والأقواس الخشبية التي بقيت جيدة، وسقطت من السقف وبعض أجزاء الأثاث مثل أرجل الكراسي ومنحوتات بصور الحيوانات والورود والأوراق وغيرها، مما يستعمل للتزيين مما يمثل بشكل خاص سمات مدرسة غاندارا Gandhara للمنحوتات التي انتشرت في مناطق شمال غرب الهند في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد. وهذا الفن صنف على أنه الفن الكلاسيكي المتأخر؛ لأنه ينتسب إلى اليوناني-البوذي، فهو يحتوي على البوذية بينما الأسلوب متأثر بشكل كبير بالفن اليوناني، أي بالمملكة الهلينية لغرب آسيا (بعد إسكندر).

واكتشف شتاين أيضا صالة مركزية كبيرة في نيا لايزال جدرانها من الجص يرتفع عدة أقدام، وقد تم تزيينها بخطوط من الأزهار والإكليل الملون، ويظهر من قطع النقود والوثائق المؤرخة على ألواح خشبية أن الأهالي هجروها في نهاية القرن الثالث الميلادي.

ويبدو أن مدينة نيا في عهد ازدهارها كانت لا تضم أراضي خوتن القديمة فحسب، بل مملكة كروراينا Kroraina التي كانت تمتد إلى سواحل بحيرة لوب، وكان ملوك كروراينا حلفاء لملوك الكوشان في غاندارا Gandhara وشمال الهند في اللغة والثقافة، لكنهم تحت سيطرة الصين في حوض تاريم، وآثار المدينة التي تدعى لولان Lou-lan (وهو تحريف صيني لاسم كروراينا) اكتشفها سفن هدين SvenHedin على طرف مكان بحيرة قديمة، كما وجد فيها اورال شتاين منازل وأديرة لولان فيها مشغولات خشبية بنفس الأشكال التي وجدت في نيا.

ومن بقايا مملكة كرورينا المعابد التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي، التي وجدت في ميران، حيث وجدت أقدم الرسومات الحائطية لآسيا الوسطى، وأعمال الجص أصلا وضعت في الجدران الداخلية لاثنين من الأديرة المقبية الصغيرة، وكلاهما على شكل هيكل مربع في الخارج، ودائري في الداخل مع ستوبا صغير في الوسط، وفي كل ممر حول ستوبا زين بتمائيل نصفية مرسومة: ملاك شاب مجنح على شكل رجل في دير، وفتيان يحملون إكليل الزهر يتخللها تنوع كبير من صور الرجال والنساء، والجدار العالي والقبة تظهر مناظر دينية مثل صورة البوذا وهو يعظ مجموعة من الرهبان، وغير ذلك من الأساطير البوذية.

وفي تقنية الرسومات الملونة والأثر الكلي وجداريات ميران يعكس بشكل مذهش الجص الهليني تقريبا لنفس الفترة، كما تم اكتشافه في الفيوم في مصر ودورا- يوروبوس Dura-Europos في سوريا، واكتشاف فيل أبيض في إحدى صور ميران وجد أن اسم المصور تيتا Tita، وقد فسره السير اورال شتاين أنه محرف من الاسم الروماني تيتوس Titus وحلل شتاين أن الرسام ايرواسين روماني Roman- Eurasian ذهب إلى الصين عبر الطرق العالية، وفي ميران أيضا في معبد كبير عرضت مجموعة من تماثيل البوذا الجالس بضعف الحجم الطبيعي، وأسلوب تجعيد الشعر والأذن المددة والأقمشة المطرزة لهذه الأشكال تظهر أيضا انتهاج أساليب غانذار Gandhar.

واكتشف شتاين أيضا معرضا كبيرا التماثيل بنفس الشكل مطروحة في كل الواجهة الداخلية والخارجية على الحائط الذي يحيط ببلاط ستوبا كبيرا في موقع الصحراء لبلدة رواق Rawak غير بعيدة من مدينة خوتن، وتمثال بوذا وغيره من الأجسام الأخرى التي وضعت على أبعاد مختلفة بجوار بعض بتنظيم قليل، بينما معظم هذه الأجسام وضع عليها ملابس تقليدية فضفاضة، ودفاربالاس Dvarpalas (يعني حراس الأبواب) يلبسون بدلا رسمية يتكون من

معاطف داخلية طويلة وبناطيل وأحذية كبيرة، ولا توجد مخطوطات أو نقود تدل على عمر هذه الآثار.

وبالنسبة لامتياز التماثيل في ميران ورواق وقريبة لإحساس فن العالم الهليني القديم، وهي تماثيل من الخشب والطين، ووجد بلليو ليليو Pelliot ولي كوك Le Coq التماثيل في تومشوك Tumshuk رؤوسها مكسورة، وهي تقع شمال واحة مارالباشي، وأثار تومشوك ليست بعيدة من كاشغر وياركند حيث يقطعها الطرق من أعالي بامير من الغرب إلى حوض تاريم، وتقع ثلاث مرتفعات مسطحة فوق السهل الممتد الذي توجد فيه بقايا معبد بتواريخ مختلفة، ويبدو أن الأديرة الأولى منها دمرت بحريق قبل القرن الخامس الميلادي، وهذه قطع نماذج غانذارا Gandhara التي وجدت، وقلة من قطع الجص تضم افريز لرهبان راكعين ومنظر للبوذا وهو يعظ جنودا وجماعة من أتباعه.

معظم الرسومات والمجسمات تعكس فن آسيا الوسطى في العصر الوسيط من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلاديين، وتعود إلى مناطق مجاورة لمدينة كوجار، ومينغ اوي Ming Oi في قزبل تضم عدة مئات كهوف قطعت في الصخور على مستويات مختلفة في صخور منحدرية تطل على نهر موزرات Muzrat، وبالإضافة إلى معابد مختلفة الأحجام وتوجد غرف العمل ومخازن واستراحات نوم، ومعظم نماذج الأديرة تحتوي غرفا دائرية مع كوة لرسم في وسط الحائط المواجه للباب، وفي الجهة الأخرى للتمثال يوجد ممر يؤدي إلى معبد دائري يسمح للزائر أن يدور حول التمثال، والسقف عادة على شكل قبة، وبعض المعابد بها قباب مستديرة، وبعضها سقفها على شكل فانوس قطع من الحجارة (تضم مجموعات من المربعات يتناقص أحجامها وضعت على شكل قطري واحدة فوق أخرى مع فتحة صغيرة في كل طرف)، ولا يزال يوجد مثلها في فارس وكشمير حتى اليوم، وكل من هذه التماثيل التي تشبه الخلية بها ممرات صغيرة وشرفات حجرية طويلة، وممشى أقدام يؤدي إلى المعابد

ويربط بعضها ببعض، وعمليا لا يتخلل الضوء إلى داخل هذه الخلايا ويمكن الاستمتاع بالديكورات باستخدام أجهزة ضوئية.

وقد تمكن كل من لي كوك Le Coq وغرونوديل Grunwedel من اكتشاف ٦٠ لوحة حائطية في هذه الكهوف.

واللوحات الجدارية كثيرة في وضع الدراما والحركة، والبوذا في مناظر من حياته وفي أوضاع التعليم والحوار وغير ذلك من الأعمال بطريقة تعكس الصفات الإنسانية واللطف، وبوذاساتفاس Bodhisattvas العابدون والملوك و الملكات و براهمان Brahman والزهاد والرهبان والراقصون والمسيقيون والخدم والعمارة وغيرها من الشخصيات الذين حول البوذا، أو لهم أدوار في تمثيل أساطير البوذا يعرضون أشكال مختلفة من السمات والملابس والأداء والعمل، ويظهر أن الجميع يشاركون بنشاط في أدوارهم: ويستدير الحاضر رأسه إلى جاره للحديث معه، واثنان من براهمان يجريان نقاشا حادا، ومقدم الركائز نفسه عند أقدم البوذا، وفي إحدى اللوحات يقوم الملك بالاغتسال في أنبوب من الزبدة يتلقى خبر البوذا بقماش مرسوم بواسطة وزيره، وقد رسم على القماش الأحداث الأربعة العظيمة: الولادة، التنوير، والموعظة الأولى، وموت البوذا، وصور عديدة لحرق جثة البوذا مع الجمهور الحزين الذي ينتحب حول المحرقة.

ومع أن التركيبات معقدة وما وجد من فراغ فقد تم تعبئته بخطوط أرضية وبالصور والخطوط الرئيسية كانت واضحة، خطوات التلوين قامت على اللون البني الباهت، ولكنها تتركز باللونين الأزرق والأخضر البراق.

وتم تصوير المانحين في كهوف قزيل (عادة على الحائط قرب المدخل) بالنظرة الأولى مدهش، كأنهم فرسان وسيدات أوروبا الوسيط، طوال الجسم ببشرة فاتحة وشعر أحمر ييلسون وأسلحة على نموذج السائد في فارس في

عهد الساسانيين من القرن الثالث إلى القرن السابع الميلاديين، والعباءات والأغطية تبدو أنها من الديداج الناعم أو من الموام المطرزة الفاخرة، وتصنيف الشعر غير عادي حيث ربط الأعلى ثم ترك لأربع بوصات من الشعر أن يسقط على أحد الجانبين من الرأس من الرجال والنساء، وأحيانا شكل من الزهرة ربما من قرن الوفرة العادي يحمله بعض الشخصيات في أيديهم في تماثيل غاندارا Ghandhara.

وكلا الأسلوبين في الرسم والتزيين يشيران بوضوح إلى تأثيرات الفن الهندي والفارسي والهليني المتأخر، ويمكن الإشارة إلى كثير من التشابه بين جداريات قزيل وبين الرسومات الحائطية المشهورة في معابد كهف اجانتا Ajanta في وسط الهند تم تنفيذها في نفس الفترة، وربما نادرا، فالتمثيل الإيمائي في صور قزيل تبدو في المتعرجات أكثر نعومة ودقة مما هو في اجانتا، وربما بالمقارنة أكثر مما هو في خارج حوض تاريم في اللوحات الجدارية في الكهوف المحيطة بتمثال بوذا الضخم في وادي باميان بالقرب من كابل في أفغانستان، وبالتحليل الكيميائي يتضح أن الألوان متطابقة، وهذا يربط بين كوجار وباميان الذي كان مركز للبوذية منذ عام ١٠٠ ميلادي، ومن هنا خطى الفن البوذي إلى آسيا الوسطى.

وفي كومتورا Kumtura على بعد ٩ أميال من قزيل على طول نهر موزرات توجد مجموعة من معابد الكهوف، وكما في قزيل ومختلف المعابد يمكن أن يكون تاريخها بدءا من القرن الخامس، السادس والسابع والثامن الميلاديين، واستعملت أساليب الهندسة المشابهة والمحسنتات للعصر الوسيط، وأما في التعامل مع الرسومات فقد كان واضحا كما في بعض كهوف قزيل أنهم يستعملون العنصر الصيني، ولم يلمح ذلك في قزيل، وعيون البوذا مائلة قليلا والمناظر الطبيعية رسمت بحرية وعلى نموذج عهد تانغ وأشكال السحب تظهر من فوق الرأس.

وبقايا التماثيل التي أحضرت من قزبل وكومتورا تضم بشكل رئيس عددا من رؤوس الآلهة وبوذيستتافاس Bodhisattvas وبراهمان وغيرها من الشخصيات، والتماثيل جمعت في الشرفات أحيانا وأحيانا تم ترتيبها على طول الجدران، وتراث الفن اليوناني-البوذي لاقتباسات غانذارا يظهر بوضوح في الوجه وتصنيف الشعر وزينة الرأس والأقمشة حيث يمكن رؤية كامل التماثيل.

ومما يعاصر كهوف قزبل وكومتورا ولكن يختلف عنها في الأسلوب مجموعة المزارات التي دير قديم في داندان اويليك Dandan Oilik (والتي تعني حسب قول المحليين «مكان المنزل العاجي») في الصحراء قريبا من خوتن، وكل مزار في الأساس يضم خلية دائرية داخلية في وسطها تمثال بوذا الكبير على قاعدة، وهذه الخلية محاطة بمربع، وكلا الجدران الداخلي والخارجي مزينة بديكورات ورسومات، ومعظم الجزء منها لبوذا كبير أو القديسين على نمط الشطرنج، وكل هذه التماثيل واقفة ولكنها رسمت بأشكال مختلفة، وقليل منها تمثل مناظر أسطورية وواحدة تصور حورية ماء المقدس مقتبسة بالتأكيد من الهند، والمتمبرعون تم تصويرهم صغارا راكعين عند أقدام البوذا الكبير، ويبدو من مظهرهم أنهم صينيون أو مغول.

ونقوش الديكورات من الجص صور صغيرة لبوذا والقديسين وغانذارفاس Gandharvas الطائر وبقايا التماثيل الكبيرة تعكس نماذج الفن اليوناني — البوذي، ولا يوجد اختلاف عن ذلك، وربما أكثر الأشياء المثيرة التي وجدت في موقع دندان اويليك وجود عدد كبير من ألواح خشبية طولها قدم واحد، ويبدو أنها أهديت من المتمبرعين إلى المزار، وفي هذه الألواح التي وضعت فيها صور حماسية لآلهة البوذا وأساطيره في لون كامل، وإحدى هذه الألواح تظهر روستان Rustan البطل الفارسي بمظهر جيد بأربع أذرع بوذيستتافا Bodhisattva، وكل المؤشرات تشير على أن دندان اويليك هجرت بصعوبة الري وذلك في نهاية القرن الثامن الميلادي.

والفن في المدينة القديمة شورجوك Shorchuk القريبة من واحة قراشهر وصلت إلى الدرجة الثالثة من مرحلة الثقافة البوذية في حوض تاريم، وفي الطريق المباشر شرقا من كوجار إلى تورفان قراشهر لم تكن مركزا سياسيا مهما أو بوذيا بالنسبة إلى جوارها، ولا يوجد عدد كبير من المعابد أو المزارات في المدينة القديمة أو على أطراف الجبال على جوانبها، ويوجد القليل من معابد الكهوف التي حفرت في التلال، معظم المزارات يظهر أنها دمرت بالحريق في القرن العاشر، ولكنها كانت موجودة قبل ذلك بقرون، كما يبدو من بقايا الآثار أنها كانت غنية بالتماثيل، وكثير من قطع الرسوم الأصلية البراقة، بالإضافة إلى تماثيل البوذا وبوذيساتفاس والآلهة في نماذج الفن الهليني الخالص أو الشبيه، كما توجد آلهة بشكل واضح بمظهر شرقي، وبعض هذه التماثيل للأحصنة والجمال، وهناك نماذج رؤوس مختلفة والتي نحت بمهارة.

والرسومات الجدارية في شورجوك يمكن أن يعود تاريخها إلى القرون السابع والثامن والتاسع، التي تظهر بوضوح مدى تداخل شعوب الشرق والغرب وثقافتهم، وصور البوذا والرهبان وغاندارفاس Gandharvas تعكس ملامح الشرق الأقصى، ولكن الرهبان يحملون مع نصوص الدعاء غصنا طويلا من الزهر، يذكرنا بما كان يحمله المتبرعون في قزيل.

والأنثيات في شورجوك عيونهن مائلات وأنوفهن طويلة وأجسامهن كبيرة نوعا ما، مما يمكن أن يقال إنهن من إحدى قبائل الترك الغربية التي اكتسحت قراشهر منذ عدة قرون، ومن استعمال اللون الغميق ومن تفاصيل الأسلوب في كل الخطوط العريضة يظهر التأثيرات الصينية القوية.

والمرحلة الأخيرة في فن آسيا الوسطى يمكن إيضاحه أكثر في منطقة تورفان في واحة تورفان وقراخوجه إستراتيجيا يقع في تداخل بالصين في الشرق وأراضي الرعي في الشمال، وكانت مراكز ممالك قوية أو ضعيفة بدءا من قبل

العصر الحاضر، وعمليات الاستكشافات الأثرية أظهرت أكثر من عاصمتين قديمتين يارخوتو Yar Khoto (المدينة التي على الوادي) وخوجو Khocho (واسمها بالصينية: Kao ch`ang و بالإيغورية ايديقوت شهري — داقيانوس) وهناك عدد من المباني الديرية في الجوار. وقطع عديدة من التماثيل والرسوم على الورق والحريير وغيرها من الأشياء الأثرية، تم شراؤها من المحليين والحصول عليها من التنقيب، ويمكن تقدير التواريخ فقط بالظن كما وجد رؤوس تماثيل يمكن تصنيفها بالهلينية.

كما أن بعض المباني في خوجو المدينة القديمة والقليل منها في تويوك Toyuk وجبقان كول Chikkan Kol وبزكيليك Bezeklik تشير أنها تعود إلى القرنين السادس والسابع الميلاديين، والرسومات الحائطية في هذه الآثار بشكل عام تشبه ما هو موجود في كوجار وقراشهر، وفي بعض هذه المعابد فإن الرسومات في السقوف عبارة عن ميداليات منحوتة قبلا لأشكال السقف الفانوس.

وبدءاً من أواسط القرن الثامن أصبحت تورفان تحت حكم الأويغور، وقبل أن يأتوا إليها اعتنق حكام الأويغور المانوية، الديانة الفارسية التي تتكون من النور (ويمثل الأله) والظلام (الذي يمثل الشر)، وفي تورفان رعى الأويغور البوذية كما المانوية، وسمح للمسيحيين النسطوريين بممارسة عقيدتهم، واللوحه الجدارية التي تتضح أنها تعبر عن المسيحية وجدت مغطاة في جدار داخلي في معبد صغير في خارج أسوار مدينة خوجو، ويبدو القس في ثياب يتضح أنها ليست من البوذية أو المانوية يحمل في يد بخورا وفي الأخرى ماء، ويبدو أنه يبارك ثلاثة أشخاص، وأصغرهم قريب منه، وكل واحد منهم يحمل غصن زهرة، وأشكالهم يعيون شرقية مائلة، وأما القس يظهر أنه بيزنطي.

ورسم حائطي مانوي جميل يظهر قسًا فارسي الملامح يمكن أن يكون صورة

ماني نفسه في كامل ملبسه الدينية، ويتبعه عدد من الأتباع في عباة بيضاء طويلة قامة (أتباع مخلصون تحت شروط الصفاء والطاعة) وهذا تم اكتشافه أيضا خلف طبقة من الطوب، وربما تم تجهيز المعابد على هذا النمط لروادها، وصفحات من شروحات النصوص المانوية ولوحات معابد المانوية وجدت في أماكن عدة في خوجو وبالقرب منها على نفس النمط، وكل من الرجال والنساء تم تصويرهم وأيديهم متشابكة، وإن كانت نهودهم تحت ملابسهن، ويحمل بعضهم كتابا والبعض يكتب، وفي أجزاء الكتب الملفوفة وصفحاتها، فالصور والنصوص في خطوط مانوية خاصة تعطيان بشكل عام الأثر المشابه للمخطوطات المسيحية المبكرة في أوروبا الوسطى، والألوان براقية والأشكال مبسطة نوعا ما، وعلى الرغم أنها لا شك تعود إلى تطور الفن العام لآسيا الوسطى إلا أن الموجودات المانوية فعليا تضم تطورا غريبا ومنعزلا بجذور عميقة تعود إلى القرن الثالث لفارس الساسانية حيث انطلق منها ماني نفسه.

والفن البوذي في أيام الأويغور يمكن أن يمثله بشكل أكثر الرسوم الحائطية المنتشرة كثيرا في المعابد في بزكيليك Bezeklik (المكان المزين بالديكورات) قرب قرية مورتوك Murtuk، وهنا مجموعة كبيرة من التماثيل المنصوبة بشكل اعتباطي وكهوف في صخور منحوتة، بعضها في حجر انتظار، تحتل حافة محمية بين النهر والجبال، ومئات من المعابد المنتشرة لازالت موجودة في مستويات تحتاج إلى إصلاحات مع بداية القرن الحاضر.

مجموعة من اللوحات الجدارية الرائعة اكتشفت من قبل لي كوك Le Coq في المعبد الذي رقمه ٩، لوحات متفرقة تصور مجموعة الرهبان الهنود باللون الأصفر بأسمائهم الهندية التي كتبت بالحروف الهندية، ورهبان من الشرق الأقصى كتبت أسماءهم الصينية والأويغورية، والكل يحمل أغصانا من الزهور، والرسم الرئيسي بالزينة يصور سلسلة من برانيدي Pranidhi والمتعبدين، وفي كل منها يظهر البوذا بشكل مظلل ومرصع بالمجوهرات بشكل متقن ومحاط

بهالة ممدودة، وتم حذف الأرقام من خمسة إلى عشرة من الأعمدة العامودية من حول البوذا، وعادة اثنان في القاعدة يقدمان الهدايا مثل الطعام أو سلال الزهور، وهناك منزل صيني مركب مكرر يوجد في أعلى الركن، وبعض صور المتعبدين تم تشخيصهم بشكل عال، ويبدو أنها صور لرهبان مميزين، وفي إحدى الصور مجموعة أشخاص يبدو أنهم تجار، والآخر من الرهبان يمكن تمييز بعضهم أنهم براهمان، وحاملي الرماح، وآلهة وبوذستافاس Bodhisattvas وشبان، وكلها على نمط عال من التصوير.

وأشكال وجوه البوذا وغيرها من الشخصيات تقريبا على نمط واحد، عيون ضيقة، وأنوف طويلة، حدود مليئة، وغالبا خطوطا لشعر شارب، والرهبان الذين تم تصويرهم مما يعرض الكثير عن تنوعهم، والعدد منهم بشعر أحمر وعيون زرق وخضر، ويظهر بعضهم بلباس أحمر أو رمادي وحليق الرؤوس والوجه والذقن.

وأما عناصر القصة فتم اختصارها بغير أن يؤثر ذلك على الموضوع صغيرة وطوافة تحت أقدام البوذا، كأنها قصة بحر يتحرك، والتفاصيل والمحتوى يختلف من منظر برانيدي Phranidhi لآخر، والتزيين الشامل والنخط المؤكد والتماثل الفائق كلها تؤثر في الروعة والإبداع.

وأحيانا الصور الصغيرة للمانحين المدسوسة قرب أقدام البوذا في مناظر برانيدي Phranidhi والصور الكاملة للمانحين الأويغور، تظهر في الجدران الصغيرة قرب مدخل المعبد الداخلي، وصور نبلاء الأويغور في المزارات الأخرى تظهر شخصيات قوية بشوارب صغيرة وشعر أسود غزير، وملابسهم طويلة وعباءاتهم مرصعة وزاحفة، وأما النساء فشعورهن مصففة بإتقان يعلوها تاج، وأيضا كل من المانحين يحملن الأغصان، وقد تم الاعتناء بتصوير هؤلاء المانحين أفرادا، وتم تسجيل أسماء أكثرهم في جداول قرب رؤوسهم.

وبالإضافة إلى مناظر برانيدزي Phranidhi فإن صور شخصيات المانحين وتمثيل بزكيليك وغيرها من الرسومات الحائطية في خوجو يعود تاريخها إلى فترة الأويغور (من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر الميلاديين) وتغطي كثيرا من موضوعات مذهب ماهايانا Mahayana من البوذية، كما توجد مناظر خاصة بالجنات مع مختلف الآلهة ومناظر تصور التعذيب في جهنم.

والتأثير الصيني يظهر في كل محتوى، فالآلهة يجلسن في نوافذ المنازل التي على الشكل الصيني، والأطفال مع أسلاك رياضية في الشرفات، والعمارة مع شعورهم المتطيرة وعيونهم الجاحظة مع أذرع عديدة منتشرة في الرسومات.

ويظهر أن الفن البوذي انتهى في تورفان مع غزو جنكيز خان وفترة حروب المغول، وتحول ملوك الأويغور الخاضعين لحكم المغول بعد ذلك معهم إلى الإسلام، ولكن بقي أكثر السكان بوذيين إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وكثير من المعابد في بعض الأماكن مثل بزكيليك وممر سانغيم Sangim استمر أماكن عبادة إلى ذلك الوقت.

ويبين أوائل جداريات موران وأواخر مثيلاتها في تورفان هناك فترة من ألف سنة، وخلال هذه الفترة أشكال المعابد تطورت في ممالك الواحة وبلغت درجة عالية من الازدهار والفخامة، والمسير الملحوظ في الإبداع في الإنتاج يشير السؤال حول المصادر السابقة للمنطقة التي كانت تربط عوالم الشرق بالغرب وحضارتها التي تمثل ثقافة طريق الحرير، ومع الأخذ بالاعتبار بالتجارة العالمية المحدودة وأبعادها القصيرة في العصور القديمة، ولكن يبدو أنه من الصعب التصور للغاية أن العديد من مئات قوافل الجمال تنقل المنتجات الاقتصادية سنويا للمشروعات الدينية والفنية الغنية، ومن ناحية أخرى فإن المنطقة الواسعة والشواهد التي تدل على وفرة إنتاجها الزراعي كانت تمد احتياج السكان أكثر مما هو في الحاضر، والوفرة الزراعية التي تقوم على التربة الغنية والري

المناسب يدفعها على رخاء أكثر من الاعتماد على طريق الحرير، مما يوضح لماذا حوض تاريم أصبحت مكانا للمعابد والأديرة، ولكن أيضا كانت جاذبا لغزوات مستمرة.

وقدم إليها العلماء الغربيون عموما إلى سنكيانغ، باعتبارها ممرا هامشيا وطريقا عابرا للأشكال والزخارف والتقنيات اليونانية، التي عبرت إلى الصين واليابان، وأخيرا الوجود التأثيرات الفارسية والهندية، ثم بالطرق التي ارتبطت بالبيزنطية، ثم انتقال عناصر الحضارة الصينية إلى الغرب، وتزايد الشواهد الأثرية أدى إلى الحاجة للاهتمام بالدراسة، أولا (نيا وميران) بسبب أنهما يمثلان الأثر الهليني في عالم غرب آسيا، ثم تطور حوض تاريم فيما بعد نموذجا لتوليفة فريدة من نوعها تجمع بين عناصر الثقافة المحلية والأجنبية، واللوحات ومناظر الجبال في قزيل وروستان ودانان اويليك، والآلهة والرهبان في شوجوك والنبلاء الأويغور في بزكيليك يمكن أن تكون أمثلة قليلة لا يوجد لها مثل في مكان آخر، وعلى الواقع فإن هذه الآثار ذات قيمة جوهرية ومتميزة لبوذية آسيا الوسطى، يمكن تصنيفها مركزا فنيا للاهتمام العالمي.

— كتبه: اليس ثورنر Alice Thorner

الملحق الثاني: الأدب والفن اللفظي للأويغور والقازاق والقيرغيز

يوجد القليل من الأدب المكتوب باللغة الأويغورية، وجميع تلك البقايا الأدبية جاءت تقريبا من عهد ما قبل الغزو المغولي، والوثائق المعروفة يعود تاريخها إلى حملة الأويغور الأوائل في جونغاريا، وهي آثار دينية بحتة، ومعظمها مقطوعات غير مؤرخة، ويمكن الاستنتاج من تسلسلها التقريبي من المصادر التاريخية — معانها متناقضة — بعض المعلومات عن تطور الأويغور الديني بعد رحيلهم إلى الجنوب، ومن المعروف أنهم قبل ظهورهم في الأراضي التي تعرف بسنكيانغ اليوم تحول الأويغور إلى مانويين بواسطة البعثات الصغدية، ومما يؤكد على انتشار المانوية بينهم جملة من الوثائق الدينية المكتوبة بالأويغورية التي تشرح مبادئ وصلوات المانوية، ومنها الوثيقة الأويغورية المانوية الرئيسة خواستوانيت Khuastuanit (دعاء التوبة) وهي على حسب قول رادلوف Radlov ذات نقاوة لغوية من بين جميع الوثائق التركية الأخرى^[1]، وهو على جانب كبير من الأهمية ليس بسبب تكوينه اللغوي كأقدم وثيقة باللغة الأويغورية فحسب، بل بمحتواه الذي يساعد على فهم المانوية، فهو لا يعدد ذنوب التائب فقط بل يحتوي على قائمة من مبادئ ماني التي صنّف بها المذنب، ويمكن أن يكون الكتاب يضم خلاصة هذه الديانة الغربية كما رآها الأتراك.

ومن أهم ميزات هذه الوثائق المانوية أنها مكتوبة بأبجدية لم تكن معروفة من قبل للأتراك، ومختلفة تماما عن نقوش أورخون، وقد استعملها الأويغور

[1] V.V. Radlov, Chuastuanit, das Bussgebet Manchaer, St. Pesburg, 1900, p.iv

عند اعتناقهم المانوية، وهي في الأساس أبجدية آرامية (سامية)، وبالتالي لعبت دورا مرموقا في ثقافة آسيا عندما اقتبسها المغول بعد سيطرتهم على الأويغور، ومع المغول انتشرت ثانية نحو الغرب، وأخيرا استعملها المانشور مع بعض التعديل^[1]، وقد عرفت بالأبجدية الأويغورية؛ لاستعمال الأويغور الأول لها في التاريخ، ثم انتقلت منهم للآخرين، وقد استبدلها الأويغور بعد إسلامهم بالأبجدية العربية^[2].

وفي القرن الحادي عشر قدمت ثقافتان إلى الأويغور في موطنهم عندئذ في حوض تاريم، إحداهما نسطورية مسيحية من مصدر غربي كما كانت المانوية، والأخرى البوذية من مصدر جنوبي^[3]، وطبقا لكتاب في القرن الحادي عشر عن اللغة التركية كتبه محمود الكاشغري كان لا يزال معظم الأويغور في ذلك الوقت يمثلون حاجزا دون انتشار الإسلام^[4]، وعلى الرغم من التأثير الإسلامي الملموس، وتؤكد وجود المسيحية بين الأويغور بعدد من النصوص المنتشرة مثل عبادة ماغي Magi^[5]، كما جاء الاستدلال على انتشار البوذية بعدد من النصوص التي تحتوي على موضوعات فلسفية خاصة بالبوذية، ونصوص من أدب وحياء بوذا^[6]، الأدب ليس أصيلا بل هو ترجمات أجنبية.

وبالمقارنة لهذه النصوص الدينية فالعمل الديني الوحيد إسلامي تقريبا، ويتمثل في كتاب قوتادغوبليك Kutdatku Bilik الذي كتبه عالم ديني قدير يسمى يوسف من بلاساغون، وهو حاجب في بلاط بغراخان، ومعنى اسم الكتاب (السعادة التي تجلب المعرفة) أو (المعرفة الملائمة للحاكم)، (وكوت تعني

[1] V. Bartold, Zwölf Vorlesungen ueber die Geschichte d. Tuerken Mittelasiene, Berlin 1935, pp.50-52

[2] Ibid, p.132

[3] Ibid, p.58

[4] Op.Cit. p.132

[5] F.W. Mueller, "Uiguric" Abhandlungen der Kgl Preussischen Akademie der Wissenschaften, Phil.Hist. Klasse, 1908, Abh.II,pp5-10

[6] Mueller, op.cit, 1908, pp.11—45, 1910, Abh. III

السعادة، ولكن تكرر استعمالها في قوتاد غوبليك بمعنى الجلالة)^[1]، والكتاب نفسه أخلاقي صرف، يهتم بواجبات الحاكم، وفي شكل تعليمات الوزير اوكتولميش، Oktulmish لابنه الذي يستعد في الدخول لخدمة الخان، ومثل هذا الكتاب شائع في هذه الفترة في الشرق، كما كان في العصور الوسطى في الغرب، ولكن قوتادغوبليك يختلف عن المؤلفات الغربية الأخلاقية التي تزخر بمواد تاريخية وأسطورية، ولا توجد مثل هذه المواد التاريخية تماما فيه، ويعالج الكتاب واجبات الحاكم نحو الشعب ومميزات طبقات الموظفين، وبقييم عددا من المبادئ الأخلاقية، والتأثير الإسلامي واضح إلا أن تمجيد مفاهيمه الدينية يبدو سطحيا ظاهريا، والمقدمة الدينية الوحيدة هي المقدمة التي تحتوي على الصيغة التقليدية في تمجيد الله والرسول وبعض الجمل الدينية في الكتاب، ويعطي كثيرا من المعلومات الهامة عن الحياة السياسية والاجتماعية للأويغور في نهاية القرن الحادي عشر، ويظهر أن المجتمع الأويغوري في كاشغر كان مقسوما على ثلاث طبقات: البسطاء، قرا عام (مثل قرا سيوك Kara Suyek القاراقية)، العلماء تابوكجي Tabukci ثم الطبقة الحاكمة، وتشمل طبقة قرا عام: التجار Satikci والمزارعون Taranchi والرعاة Igdishci، وأما طبقة العلماء نابوكجي فتشمل: السادة (علوي Alevi) والحكماء (اوتجي Oteci) والسحرة (ابسونجي Apsunci) والمنجمون (Munejim)، والطبقة الحاكمة تضم الخان والوزراء وقواد الجيش والكتاب Bitikci والسفراء Yalaoci والحراس Kapukci^[2]، وقد سرد صفات ومميزات كل طبقة من هذه الطبقات وفائدتها بالنسبة إلى الحاكم، بالإضافة إلى الواجبات المطلوبة من المزارعين والرعاة والصناع والتجار.

عن الرعاة يقول المؤلف:

يقومون بتربية المواشي، ويعتنون بقطعان خيولهم، إنهم مجموعة صادقة من

[1] Bartold, op.cit, pp.135-136

[2] H. Vambery, Uigurische Sprachdokumente, Innsburck 1870, pp.5-6

الناس، ولكن لا يملكون الحكمة، عاملهم جيدا... اختلط بهم... عزز معرفتكم بهم، وكل واشرب معهم، وفر الحياة كما ينبغي أن يعيش الإنسان، إذا اختلطت بهم صنّ نفسك عنهم.. تعاون معهم جيدا؛ لأنهم دائما بدون انضباط وتهديد مباشر، خاطبهم بالقول الحسن ولكن لاتأخذهم أصدقاء^[1].

وعن المزارعين جاءت هذه الملاحظات الهامة:

هؤلاء الناس هم ضروريون لك؛ لأن احتياج بطنك يأتي من قبلهم، اجتمع بهم... وخاطبهم بطيب القول^[2].

وقد ذكر موقفا مغايرا بالنسبة إلى الصنّاع والتجار:

الصنّاع نوع آخر من الناس، يخلقون بأيديهم الفن لكسب معيشتهم، فلا غنى لك عنهم جميعا، تعهدهم بالرعاية والعناية، وسيجلبون لك التقدم الأحسن ومنهم جاءت الأعمال في المعمورة، وكم صنع هؤلاء أعمالا مذهشة رائعة! يجب أن تجتمع مع هؤلاء كما يجب معاملتهم بالحسنى، اجعلهم سعداء وعش سعيدا، وإذا نلت أعمالهم لا تتردد من إهدائهم، أعطهم المأكل والمشرب، ووفر لهم الطعام^[3].

وأما عن التجار فينصح الحاكم:

تعامل معهم جيدا واترك أبوابك مفتوحة لهم، لكي ينتشر ذكر الحسن، إنهم يحملون شهرتك إلى العالم، ينشرون صيتك الحسن أو السيئ، إذا أردت أن تتأكد من شهرتك، دع التاجر فقط يحصل على قيمة سلعته، إذا أردت أن تخلق لنفسك شهرة طيبة أيها الحاكم، عامل رحال القوافل طيبا^[4].

[1] M. Abdykalykov and A. Pankratova, eds. History of Kazakh S.S.R., Alma-Ata 1943, p.72, (in Russian)

[2] Vambery, op.cit, pp.32-33

[3] Abdykalykov & Pankratova, op.cit p.72

[4] Vambery, op.cit pp.134-135

ومن الأفكار الفلسفية المثيرة للمنطقية التي في نصوص الكتاب الاهتمام الكبير بالعلم والمعرفة، إذ لم يطريهما فحسب، بل يوصي بهما الحاكم؛ لكونهما أسس الحكمة واعتبرهما أكثر أهمية من مجد الإمارة والغنى.

والفصل التالي بعنوان: شرف الإنسان يصدر من المعرفة والفهم، وهذا مثال جيد للاهتمام الكبير الذي ذكر في كتاب (قوتاد غوييليك):

خلق الله النار والرياح والماء والأرض
ومنع الإنسان نعمة المعرفة والعقل

اهتم بالمعرفة كثيرا وبالعقل عظيما
فالله رفع عبده بهاتين النعمتين

تعرف على معنى المعرفة وتعلم ما هي المعرفة
سيختفي الشر مع معرفة الإنسان

الشخص الجاهل مملوء بالشر
وإذا لم يعالج الإنسان هذا الشر لسوف يموت

لذا أيها الإنسان الجاهل عالج شرك
عالج الجهل أيها الصديق العالم^[1].

وهذه شهادة على مستوى التعليم العالي، الذي بلغه الأويغور في ذلك الوقت، وهو بلا شك ناتج عن تدفق العلوم العربية والإسلامية، بالإضافة إلى هذا الموقف العلمي الجيد، وجدت آثار واضحة من شامانية الأتراك القديمة،

[1] Vambéry, op.cit. p.79

ويتضح ذلك من حسن معاملة الطبيب الذي يعالجه من مرضه، ومع ذلك ينصح بحسن معاملة الساحر موكاسيم Mukasim؛ لأن الطبيب يعالج بالدواء والشاماني بالطلاسم^[1].

ولابد أن كتاب قوتادغوبليك قد اشتهر تماما وانتشر في جميع الممالك الناطقة بالتركية، فقد وجدت مقطوعات منه على قطع من فخار في سارايجيك Saraijik (Saraichikovskoe) عند مصب نهر اورال في بحر قزوين^[2]، كما وجد حديثا كتاب (هبة الحقائق) ألف بتاريخ متأخر، ولكن يمثل نفس التعاليم في تركيا^[3]، ويظهر من هذا الاكتشاف أن قوتادغوبليك ليس الوحيد في هذا المجال، وقيل إن كاشغر كانت مركز الثقافة التركية لكل منطقة آسيا الداخلية في القرن الحادي عشر الميلادي، ومع ذلك عندما استعاد الأتراك سلطانهم بعد دور المغول تحوّل هذا المركز غربا، ولا توجد أعمال أدبية من كاشغر أو أية منطقة أوغورية أخرى بعد ذلك.

ولا توجد وثائق أدبية إذ كانت الثقافة الأوغورية محصورة بالأدب اللفظي؛ لكونهم من الأتراك البدو في آسيا الداخلية، ولم يتصل الروس بهم مباشرة (ما عدا التارنجي في وادي إيلي) ولم يسجل أدبهم اللفظي بشكل واسع من قبل اللغويين الروس وعلماء البشريات كما حصل لأدب أترك آسيا الداخلية الأخرى، ونحن مدينون في بعض نصوص الأوغور المتناثرة في حوض تاريم لكتب لي كوك Le Coq وجرينارد Gernard ويارينغ Jarring و كاتانوف - منغيس Katanov- Menges ومعظم الكتب الروسية التي تعالج أدب تارنجي إيلي منها كتب رادلوف Radlov و بانتوسوف Pantasov ومالوف Malov والتارنجيون جماعة من الأوغور تم تهجيرهم إلى إيلي في القرن الثامن عشر فقط، وإنهم

[1] Ibid.pp.136-137

[2] Zapiski kolegii Vosto; okovedov, XXI, p.42 quoted by Bartold op. cit.p.136

[3] Comp.J. Deny, "A propos d'un traite de morale turc en ecriture ouigoure" Revue du Monde Musulman,60,1925, pp.189-234

يشترون في تراث شعبي واحد، ومع استيطانهم في وادي إيلي ظهر نوع جديد من الأدب اللفظي يعالج عموماً اضطهاد الصينيين لهم وفيهم الإجماع إلى هناك.

وتوجد الأنواع التالية في الأدب الأويغوري اللفظي:

- ١- الأمثال ٢- القصص الشعبية ٣- الأساطير والحكايات
- ٤- الأغاني ٥- القصص التاريخية (قصص التارنجين).

والأمثال لا تعطي فكرة عن عادات الأويغور وأخلاقهم فحسب، بل تظهر التأثيرات القوية لثقافات أخرى، خاصة ثقافات الأتراك البدو المجاورين وإيران والهند، وتأثير الثقافة الإيرانية هي أقوى التأثيرات، والشاهد على ذلك المثل: (أربعون شخصاً أكلوا أربعين خروفاً في يوم واحد)، ويقال لأصحاب البيوت المهملين^[1]، وهو يطابق حرفياً لمثل أفغاني^[2]، والأمثال الأخرى ترجع بوضوح إلى قصص هندية، مثل: بانجاتانتر Panchatantra وجاتاكام Jatakam، والمثل يقال لذئب ينتظر أن يستمتع بلحم عنز وقد مات من الجوع، والقصة تعود إلى الفصل السادس من الجزء الثاني بانجاتانتر Panchatantra التي تحكي قصة ابن آوى الطماع برالوبهاكا (Pralobhaka) (الطماع جداً) الذي انتظر خمسة عشر سنة يراقب حركات الثور، وينسى مع طمعه أن يصيد الفئران ويسقط ميتاً^[3]، ومجموعة أخرى من الأمثال التي تهذب الأخلاق، ومن ذلك أن الإنسان غالباً ما يغضب من فشله الذي يعود إلى قصة هندية تسمى جاتاكام Jatakam وتفيد أن عصفوراً حاول إيقاف معركة بين خروفين فطار وتحطم بينهما^[4]، وعلينا

[1] A.v. Le Coq, Sprichwoerter und Lieder aus der Gegend von Turfan, Baessler Archiv. Leipzig-Berlin 1911, p.41

[2] Thorburn, Bannu or Our Afghan Frontier, London, 1876, 250, No.29, quoted by Le Coq. op.cit.2

[3] Comp.Panchatantra (T. Benfey) Leiozig 1859, II, pp.194-195

[4] Comp.R. Pischel, Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft, p.47,86-87 (hereafter ZDMG)

أن نقارنه بالمثل الأويغوري (تعارك فحلان وسحقت بينهما ذبابة)^[1]، والمثل الأويغوري القائل: (عندما يريد الفأر أن يموت يراقب حركات القط)^[2]، ويوجد نظيره في مجموعة جاتاكام الهندية مثل قصة الخروف الذي كان على وشك الإنقاذ، ولكن عندما حفر الخروف الأرض ظهر سكيناً ذبح به، وهذه القصة أيضاً موجودة في قصة يونانية، كما ظهرت في مثل عربي (لا تكن مثل الخروف الذي حفر بحوافره فذبح)، وهناك خلاف عن وصول هذه القصة إلى سنكيانغ، وبدت كأنها مثل أويغوري، كما يقول فرانكل Fraenkel^[3]، والإدعاء أنه مثل يوناني وصل إلى العرب، وبواسطة التجار العرب وصل إلى سنكيانغ والهند، ومع ذلك فإن ر. بيشل R.Pischel يؤكد أن وجوده في جاتاكام يبرهن على أصله الهندي^[4].

ويرجع الكثير من قصص الأويغور إلى مجموعة القصص المشتركة لعموم الأتراك والإيرانيين، وهي نتاج الأدب الشعبي المكتوب في آسيا الداخلية، مثل قصة همرا Hamra^[5]، التي تنتهج بشكل ملحوظ قصة مشهورة مكتوبة بنفس الاسم عن عشق خارق للعادة لشاب^[6]، وأشار الآخرون إلى نصوص رومانسية لشاعر الأوزبك المشهور على شيرنوائي في القرن الخامس عشر، مثل قصتا شيرين وسيف الملوك^[7]، وهذه القصص مملوءة بالخيال وخوارق الطبيعة بحيث يمكن ملاحظة الغزل الرومانسي الإيراني، وبصرف النظر عن بعض العناصر الشيطانية فالمبادئ الإسلامية جلية في المحتوى.

وفي الأساطير الأويغورية تظهر بعض الآثار التي لا بد أنها كانت ملحمة

[1] C. Brockelman, Alturkestanische Volksweisheit, Ostasiatische Zeitschrift ,8, Heft,1/4,71, No.255

[2] Brockel, man, op. cit. No.255

[3] Das Schaf und das Messer, ZDMG,47, pp.437-440

[4] ZDMG, 47, 88 2-V. Radlov, Proben der Volksliteratur d. Turkischen Staemme Sued-sibiriens, VI, pp.114-130, G. Jarring, Materials to the Knowledge of Eastern Turki

[5] H. Vambéry, Cagataische Sprachstudien. Leipzig 1867.p.35

[6]

[7] Radlov, op.cit. VI, pp.95-113 & 131-144

تقليدية قديمة، وهي صفة مشتركة لثقافة آسيا الداخلية، لأن الشخصية في الفلكلور عانت كثيرا من المستوطنين الذين هم في الأصل قبائل بدوية، وبالتالي نفوذ الثقافات غير التركية، وبالأخص الثقافة الإسلامية ضد التقاليد الشامانية التي كانت متأصلة أصبحت كلها أجزاء هامة من ثقافتهم، وقصة شيم تيمور باتور^[1] تمثل أسطورة أوغورية ذات عناصر ملحمية، ومعارك البطل مع العفريت يالمونغوش Yalmungush ذي الرؤوس السبعة مما يذكرنا موضوعه بشعر ملحمي نجده بين أترك آسيا الداخلية، مع التأكيد على قوة البطولة الفردية عن البطل (باتور) الذي يستطيع بمفرده أن يسحق جيشا بكامله، ويظهر أيضا على الأسلوب عناصر قوية من الملحمة التقليدية بتكرار مستمر على الجمل الرئيسة (التي تكون وقفات ملائمة للارتجال عند كل مقطع)، وفي نموذج الحركة البطيئة في القصة لم يعد يوجد شعر ملحمي بل قصة نثرية، ومع ذلك في كل هذه الأساطير الملحمية توجد آثار شعر ملحمي قديم في مناجات نفسية شعرية في العبارات الرئيسة التي تتواجد في جميع القصص الملحمية.

ويبدو أن الكثير من القصص الأسطورية البسيطة مقتبسة من سلسلة القصص الهندية مثل: بهاراتا كادفاتر ميسكا Bharatakadvatrimiska وهي قصة فلاح^[2] يقص عليه أحد المارة أنه سيموت بعد أن يظهر حماره بعض الحركات، مثل: اختراقه الرياح، وبعد أن يخترق الحمار الرياح يعتقد الفلاح أنه ميت حقيقة، وصارت هذه القصة جزءا من سلسلة القصص الشرقية العامة، وتوجد بشكل مماثل حتى في الأساطير الروسية.

ويبدو أن الأويغور لا يملكون القدرة المماثلة لأترك البدو في صياغة الأغنية، حيث تتماشى مع الناس وتصف كل ناحية من حياتهم، فالأغاني الأويغورية أكثر فردية إلى حد ما من التي عند البدو، ولا تظهر فيها الحيوية والقوة التي تمتلئ

[1] Ibid, 210 ff.; N.N. Pantusov , Examples of Taranchi Popullar Literature , Kazan 1909.1-13, (in Russian)

[2] Radlov, op.cit., VI 231 ff

بها الأغاني البدوية مع استثناء قليل، وأكثر الغزليات ذات مواضيع شخصية، ومعظم الأغاني التي جمعت هي أغاني العشق، مع الاهتمام الخاص بالحب المحروم، وتزخر بالصور الجنسية والزخرفية وأحيانا بالاحلام، وتعكس تأثيرا ملموسا بالغزليات الإيرانية، كما في المثال التالي:

في أيما طريق مشيت
هناك سأمشي أنا أيضا
وإذا كنت زهرة متفتحة
سأكون أنا الورقة لها
وقد تبرعم الخوخ يا حبيبي
على جسدك
وأصبحت شيريرا
لأحضن صدرك يا حبيبي
ما أجمل ما ترقصين
في حركات دائرية
بين أصدقائنا
تبدلين جميلة
هل تريدن أن ترحلي
ما الذي يدفعك على الرحيل
لقد تركت جسمي
ومتى ستحضرين روعي
أنت لاتعرفين حبي
والألم الذي في داخلي
أحرقتي نفس في لهيب الحب

ولا يمكنك إطفائها لأنك أنت التي تحرقين
 مياه قراخوجه
 تجري عبر الحدائق المظلمة
 المرأة الجميلة الشابة ذات الحاجب الأسود
 تشعل لهيب الحب في قلبي
 حببتي هل جئت لترين
 كيف تحرقيني بنيران الحب
 الحريق الذي تشعلينه ثم تطفينه^[1].

بالإضافة إلى هذه الأغاني الشخصية التي تأثرت بالشاعرية الإيرانية التقليدية توجد مجموعة صغيرة من الأغاني التي لا تتصف بالشخصية الفردية، ولكن ترجع إلى ماض الشعب الأويغوري، وهذه الأغاني يسميها الأويغور قوشاق أو قوشوق والتي يعرفها غرنارد Grenard بالقول إنها من المحتمل أن يكون أسلوب الفن الأويغوري أقرب إلى الملحمة التقليدية، وعلى الأقل تحتوي في شكلها على صور الأسلوب الملحمي، مثل: تكرار الجملة الرئيسة والمقطوعة الإيقاعية القوية، ومع ذلك فالشكل الوحيد لهذه الأغاني يذكرنا بالملحمة، كما نرى فيما بعد أن مضمونها عادة ليست ملحمة الصنعة.

لا يوجد القوشاق بين الأويغور مثل الأغنية الملحمية بين البدو، فقد لقي غرنارد Grenard مصاعب في تسجيل هذه الأغاني؛ بسبب قلة من يعرفها، ومن بين القلة الذين وجدهم يتذكرون بعض القوشاق كان الأقل منهم فقط يستطيع سرد أكثر من جزء من الأغنية^[2]، وهذه مغايرة تماما لثقافات البدو، حيث الملحمة التقليدية لاتزال قوية بحيث يستطيع كل شخص أن يسرد على الأقل أجزاء من قصيدة ملحمة.

[1] Le Coq, op.cit.,pp.51-53

[2] Grenard, op.cit.III, p.85

ومعظم القوشاق التي سجلها غرنارد تحكي ثورة يعقوب بك التي يصورها بحرب دينية، وهدفها الوحيد تمجيد الأخوة الإسلامية ضد الصينيين الكفار، ولا توجد صفة ملحمية في محتوى هذه الأغاني، كما لا توجد أوصاف البطل الذي نجده في الملاحم البدو، البطل المنتصر الذي يمثل قوة القبيلة، وبالمقارنة فالبطل هنا لا ينتصر ولكن يعاني مصير الشهيد؛ نتيجة إيمانه ومشاركته في الثورة، والملاحظة المهمة أنه لا توجد قطعة ملحمية واحدة ليعقوب بك نفسه (على الأقل عند غرنارد عن تسجيلاته عن القوشاق) على الرغم أنه أعظم شخصية تاريخية، بطلا وطنيا أسطوريا، وقد جاء ذكره عابرا في إحدى الأغاني (شهير كورلا) مكان وفاته^[1]، وبالمقارنة لأغاني البدو والملاحم ذات الأوضاع المماثلة في الثورة ضد الغزاة الأجانب، لا تظهر الأغاني الأويغورية روح التحدي والمقاومة الوطنية والشعور القومي والتماسك الاجتماعي، بل تظهر غالبا روح الهزيمة البائسة والاستسلام، والأحداث التي وضعت في هذه الأغاني لا تشمل نواحي التاريخ الوطني الأويغوري بشكل واسع، ولكن حوادث خاصة في مناطق محدود.

ونموذج المقطوعة الكئيبة لدور بطولي هو قوشاق محمود خان، عامل يعقوب بك في ارتوش (قرية كبيرة شمال غرب كاشغر) الذي نفاه الصينيون إلى قمول:

إذا جئت إلى منزل الزهور

سترى الزهور الذابلة فقط

عندما يعود محمود خان إلى وطنه ارتوش

محمود خان يمشي الآن في قمم جبال قمول

البندقية في يده والدمعة في عينيه السوداوين

أصبح أطفال محمود خان أيتاما

ألا تملك قوة أكثر يا محمود خان

[1] Ibid., III, p.100

تحرك محمود خان نحو كاشغر
إذا كانت هناك عدالة ستعامل بالإنصاف
ودعوات الأيتام والمسافرين عندئذ تسمع^[1].

وتوجد نصوص الأدب التارنجي أكثر من نصوص الأويغور بسبب اهتمام الباحثين الروس بالأدب الشعبي، ويبدو أن الأدب التارنجي اللفظي يتطابق، مع فرق واحد هو أن الأدب اللفظي الذي ظهر بعد استيطان التارنجيين في وادي إيلي هو الأدب الشعبي الحديث، ويصور المصير المحزن لجماعة هجرت بالقوة من موطنها، ثم أسكنت في منطقة غريبة، وتمتلى هذه الأغاني بالشكاوي المريرة عن الاضطهاد الصيني والأعمال الإجبارية والنضال التارنجي المستمر لنيل حقوقهم من الصين، وهي على جانب من الأهمية؛ لاختلافها عن معظم الأدب الشعبي الأويغوري؛ لأنها لا تعالج مواضيع وأحزان شخصية خاصة، بل البؤس الجماعي الذي لحق بالتارنجي والاضطهاد الذي أصابهم كلهم.

ظالم عظيم يسمى كونغ ظالم عظيم يسمى كونغ Gong أصبح تشيانغ تشون
Chiang chun في جبال إيلي

قال: يجب أن تؤخذ الضرائب من التارنجي الغني
ولكن الضرائب المفروضة فاقت جميع مقاييس الاضطهاد
ضرب وقتل التارنجيون وربطت أيديهم لأخذ الضرائب
وفقد تشيانغ تشون جميع إحساسه وطفح الوعاء بما فيه وسال
واضطر الناس على بيع فلذات أكبادهم لدفع الضرائب الباهظة
وأخذوا الجمال والخيول من الأغنياء والخبز من الفقراء^[2]

[1] Ibid.III, pp.100-103

[2] Ibid., N.N. Pantusov. The War of the Moslems against the Chinese, Introduction, Kazan 1881, pp.11-12 (in Russian)

هذه الجبال عالية تعترض سبيل الفقراء

وإذا مات الفقير من سيبكي عليه؟ الرجل الفقير فقط هو الذي يبكي على الفقير .

ودموع الجماعة المستوطنة التي لم تجف بعد في معسكر ياماتو Yamatu وفي طريقهم إلى توكوزتارا Tokuztara^[1]

وقصص التارانجي الثرية تعرض نفس الموضوع تقريبا والنموذجية منها هي قصة نوزكوم^[2]، وهذه القصة ذات الصفة الملحمية القوية تحكي هزيمة ثورة إسلامية قامت ضد الصين في كاشغر، وذبح الصينيون الرجال ونفوا النساء إلى إيلي زوجات إلى القالموق المغول، وبطلة القصة امرأة شجاعة تسمى نوزكوم رفضت الزواج من كافر، وحاولت مرارا الهرب، وفي النهاية قتلها الصينيون وقدسها الشعب الأويغوري شهيدة، وتنتهي القصة بشعر أخلاقي تعكس قوة الروح الوطنية للمقاومة، ويلاحظ هذا كثيرا في الأدب اللفظي التارانجي.

إذا كانت المرأة مثلك يانوزكوم وفيه نقية لماذا تخاف النساء الصينيين المجرمين؟

وإذا كان مثل هذا سلوك المرأة
عندئذ ستتذوق النساء أفراس الجنة
ترحم يا الله على روح نوزكوم
لعلها تنال درجات الشهيد العظيم

وعلى الرغم أن الأفكار الدينية والأئمة والشيوخ كان لهم دور مهم في

[1] Ibid, pp.3-4

[2] Pantusov, Obraztsy, pp.49-90

المجتمع الأويغوري، وإن كان هناك مبالغة بذلك حسبما يظهر من كتابات الباحثين الغربيين الذين يعتبرون أنفسهم خبراء في شؤون الأويغور، حيث يعتقدون أن الثورات الكبيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بدأت من قبل أتباع شيوخ المسلمين، مع أن وثائق الأويغور التي لم تنشر وهم شهود هذه الانقلابات تشير أنها بدأت من الفلاحين وفقراء المدن^[1]، وأما اشتراك ممثلي الطبقات الإسلامية الأستقرافية في تلك الانقلابات كان في وقت لاحق.

وتتمثل تركة القازاق الثقافية الرئيسة في الفلكلور موسيقاهم، ويجتمع الاثنان في شعرهم الملحمي بالإضافة إلى أن هناك نوع من الأدب يعرف بـ (كتاب الأغاني) الذي يمثل في غالبه الصفة الدينية في نشر الإسلام.

وعلى عكس الأدب والفن اللفظي الأويغوري، فإن الفن الشعبي القازاقي عموما اجتماعي يهتم بالمشاكل الاجتماعية للعشيرة أو القبيلة أو الشعب القزاق، ومن خلال أعمال العلماء الروس تم حفظ الكثير من الأساطير والأغاني والملاحم التي لا تخص الجماعات الرحالة فحسب، بل كل ما يخص الشعب القازاقي، وبعض هذه المقطوعات معروفة عند كل بدوي، وكثير من الملاحم لا تتصف بالوطنية إذ إنها انتقلت من جماعة لأخرى، وهكذا الكثير من الملاحم ذات الشهرة المشتركة بين القازاق والقيرغيز أو القازاق وأويرات.

القازاق شعب موسيقي تماما في الأغاني والملاحم التي يغنيها المغنيون المتجولون، بصحبة آلة بدائية وترية تسمى دومبرا Dombra يمثل الجزء الأكبر من ميراثهم الشعبي.

[1] خلال هذه الثورات وخاصة الاضطرابات التي حدثت في عهد يعقوب بك هرب كثير من الناس إلى الأراضي الروسية، وقد سجل القياصر الموظفين والعلماء الروس كثيرا من الشهادات والحكايات الشخصية لهؤلاء المهاجرين، وجامعة قازان التي كانت قلب منطقة التتار الروسية مركزا هاما للدراسات التركية ومستودعا عظيما لمثل هذه الوثائق التي لم تدرس بعناية بعد الثورة البلشفية

وقد سجلت الأغاني كل ناحية من نواحي الحياة: الولادة والزواج والمعركة والفرح والحزن والموت، والكاتب القازاقي أباي كونان بايف Abai Kunanbaev في القرن التاسع عشر يصف أهمية الأغنية في حياة شعب القازاق في قصيدة يقول فيها:

الأغنية ستفتح لك باب العالم
الأغنية ستفتح لك باب الموت
استمع إليها يا أيها القازاق وانتهج حكمتها
والأغنية تصاحب جميع حياتك^[1]

ولانتشر الأغاني أو تغنيها الفرق المتجولة فقط، بل هي جزء من حياة الشعب اليومية، ولها دور بارز في احتفالات القازاق، وتكون مسابقات غنائية بين شخصين، وفي مثل هذه المباراة فإن الكلمات والموسيقى تكونان تماما مرتجلين والفائز هو الذي يرتجل الأطول.

وأما الموضوعات المهمة فالأغاني المعدة للمناسبات مثل الزواج والتأبين التي تعطي فكرة محددة عن الحياة الثقافية والاجتماعية، فإن نصوصها وموسيقاها ثابتة بالمقارنة بالأغاني القازاكية الأخرى، وهكذا فإن أغنية الزفاف التقليدية يار Zhar Zhar تعكس بوضوح دور المرأة في المجتمع، وأكثر أغاني الزفاف درامية تقوم على الحوار بين مجموعة من الفتيات ومجموعة الشبان، فيذكرون العادات القديمة عن شراء العروس والزواج بدون رغبة أحدهما والميراث الذي فقدته الزوجة من الأسرة، ويطلب كورس الشباب المرح من الفتاة أن تسرع بالزواج، ويجب عليهم كورس الفتيات الحزين بتباك على فقدانهن الحرية.

وهناك أشكال أخرى مثل أغنية الوداع كوشتاسو Koshtasu وأغنية الأخبار

[1] -Abdykalykov and Pankratova, op.cit., p.135

الحزينة استيرتو Estirtu وأغنية الحداد زوكتاو Zhoktau، وأغاني الوداع متنوعة أكثر من الأغاني التقليدية الأخرى، وقد تكون على لسان والد أو والدة المتوفى، وتحكي الأسرة عن الأماني الأخيرة وألم الفراق والأحلام التي لم تتحقق، والنوع الآخر هي أغاني توديع الحبيب وتشمل توديع الأهل والوطن، وفي عهد التهجير الإجباري بسبب الاضطهاد الوحشي كانت هذه الأغاني واسعة الانتشار، ومثالها أغنية الوداع التي ألفها الشاعر المشهور اكين Akyn في القرن الثامن عشر بمناسبة التهجير الإجباري لجماعة من القازاق من أراضيهم الرعوية من قبل الجونغار.

تمشي القوافل من أعالي جبال قراتاو Kara Tau
 كم هو أليم أن نودع وطننا
 الدموع تجري من مآقينا السوداء
 في أي حال يجب أن نعيش... في حالات البؤس
 الدموع من مآقينا تشكل البحار والبحيرات
 يالها من حالات البؤس
 فالسعادة والرخاء تركتنا
 يتصاعد التراب من القافلة الهائمة
 أسوء من العواصف الثلجية في ديسمبر^[1]

وتلعب القصص والأساطير دورا كبيرا بين القازاق مثل القبائل البدوية الأخرى، بينما تعكس قصص القازاق التأثير القوي للثقافات المجاورة وخاصة الليالي العربية، وتزخر القصص المحلية الكثير من السحر وحكايات الحيوانات، التي تشتهر بها بشكل خاص بسبب تعامل المجتمع القازاقي الرعوي بالحيوانات والبحث عن أفضل المراعي، ومثلا قصة زوبار Zhupar^[2]

[1] - Abdykalykov & Pankratova: op.cit., pp.170-171

[2] Op.Cit., pp.140-141

التي تحكي قصة والدة إحدى الأسر العظيمة التي ابتعدت مع أطفالها عن بقية العشيرة وأصبحت فقيرة بسبب مجاعة القطيع.

والملمحة البطولية ذات أهمية خاصة بين البدو، وتتصل عادة بحوادث تاريخية حقيقية مثل سقوط خانية قازاق شورا نازكوف Shora Narokov والحرب ضد القالموق اير تارغين خاصة بين البدو والمعارك مع الأوزبك كامبارا Kambara ، ومؤلفو هذه الملاحم غير معروفين غالبا، ولكنها ذاعت وانتشرت مع شعراء الملاحم المتجولين زيرشي Zhyrshi (من زير Zhyr وتعني الأغنية وفي المصطلح القازاقي ملاحم)، ووزن الملمحة عادة سبع أو ثمان تفعيلات، ويختلف عدد أبيات مقطوعاتها، ولا توجد نغمة ثابتة، وينتج التكامل الموسيقي بالآلة ويقوم على تكرار النغمة وتشية الكلمة، وتعرف أكثر الأجزاء المسرحية إثارة هي السرعة والانفعال الشديد (يلدريم Zheldirme سرعة الخيل) [1].

ويبدو أن أصول معظم الملاحم قديمة، والحقيقة أن اصطلاح (قازاق) نادرا ما يحدث فيها، وأن الأبطال الذي يسمون نوغايلا (مهاجرون) الذين يعتقدون المعاهدة يوجدون في معظم ملاحم القازاق وهم جزء من القبيلة الذهبية.

وملمحة اير تارغين Er Targyn البطولية^[2]، التي تظهر قوة وشجاعة البطل النموذجي الذي تمكن بقوته ومهارته، وبقوة من الله أن يسحق جيوشا عظيمة وكثيرا من المخلوقات الشرسة، وخلص نفسه من معظم المواقف الحرجة، وتتمثل القصة أن بطلا هاربا من الخان التجأ إلى خان كريمين Crimean وساعد هذا الخان في هزيمة القالموق وقد وعده بتزويجه من ابنته، ولكنه نالها بعد مماتله طويلة بسبب شكه من وضعه الاجتماعي، وهذه الملمحة التي تصور مواقف بطولية تضم موضوعات غزلية مؤثرة طويلة، تظهر مدى هيام البطل بالعروس آق يونس.

[1] L.S. Sobolev, Pesni stepio , Moscow 1940 ,pp.12-13

[2] Radlov, op.cit.III, pp.153-205

وتختلف قصص الحب اختلافا كبيرا عن ملاحم البطولة، وتتناول في الغالب مواضيع رومانسية عن الحب وآلامه، ومن أعظم هذه القصص شهرة مثل: روميو وجوليت، قصة كوزي كوربش وبايان سلو & Kozy Korpesh Bayan Slu التي توجد في الأدب الشعبي الأويغوري بعنوان: تاجي باشا وزهره خانم Taji Pasaha and Zora Khanim ^[1] وتوجد بين الأويرات بعنوان: كيوزيوك Kioziuk وتدور قصتها بين عاشقين تواعد أبواهما على تزويجهما من قبل أن يولدا، ومع ذلك مع موت والد كوزي كوربش ينقض والد بايان سلو وعده ويرفض تزويج ابنته من اليتيم، ولم يتمكن الحبيبان من الزواج، وعاشا في الاضطهاد والشقاء، وماتا ونمت على قبرهما شجرتين من الورد معا مثل الورد التي نمت على قبري باربار الن Barbar Alen .

وفي القرن التاسع عشر عندما كان القازاق يحاربون من أجل استقلالهم في سلسلة من الثورات ضد الروس كانت أغانيهم الدعاء لإثارة الشعور القومي، وأصبح كثير من الشعراء المشهورين زعماء سياسيين، ومن هذه الفترة نجد سلسلة كاملة من الأغاني تصور نضالهم بجميع أشكالها.

ومع احتكاكهم بالروس وخاصة بالمنفيين منهم القادمين إلى سهوب القازاق، تطورت ثقافتهم بصرف النظر عن السياسة الروسية التي عملت على طمس وطنيتهم وترويسهم، وشهدت هذه الفترة نموا هائلا في الأدب المكتوب ليس بالمواضيع القازاقية فحسب، بل في مواضيع تعكس تأثير الأدب الروسي، وبالتالي التأثير الغربي عموما، ومع النظام السوفياتي وبرامجه على تطوير ثقافة الأقليات القومية، طوّر القازاق على الجانب الآخر من الحدود السوفياتية أدبا جديدا مزدهرا لا يقوم على الأشكال القازاقية التقليدية من الشعر اللفظي، بل على أشكال الأدب الغربي، مثل: الرواية والقصة القصيرة والمسرحية، مما

[1] Radlov.op. Ciot. VI, pp.236 ff; A.S. Orlov, The Kazakh Heroic Epos. Moscow- Leningrad 1945, p.5 (in Russian)

ساعد على الارتفاع السريع في نسبة المتعلمين وتعرفهم على الأدب الحديث، وقد عالجت الأفكار الجديدة حوادث مستجدة، مثل: الحروب الأهلية والخطة الخمسية وبناء المجتمع الاشتراكي والحرب ضد ألمانيا النازية.

وبغض النظر عن وجود مجموعة نصوص لدى قازاق سنكيانغ، لكن الثورات الاجتماعية والوطنية بين القازاق في الجانب الروسي كانت ذات أثر كبير على الفن اللفظي عند قازاق سنكيانغ، وخاصة أن الحدود الروسية-الصينية لم تكن تمثل حاجزا فاصلا يعيق حركات القبائل بين الجانبين.

ميراث القييرغيز الثقافي الرئيس مثل القازاق يتمثل في الفن اللفظي وذوقهم الرفيع في الموسيقى، ولكن شعر الملحمة كان متطورا أكثر، وكثير من القصص الوطنية والأساطير والروايات البطولية دمجها القييرغيز في ملحمة وطنية طويلة، وقد سجلت حديثا من طرف علماء البشريات والأدب الشعبي الروسي، والملحمة الوطنية مناس Manas^[1]، وهي تعالج بشكل رئيسي كفاح القييرغيز ضد القالموق في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد تم تصويرها كأنها معركة دينية إسلامية للمؤمنين ضد الكفار، وتعطي صورة واضحة عن حياة وعادات القييرغيز مع وصف المعارك وحياة الأسرة واحتفالات الزواج والحداد والولائم، وهي على حد قول رادلوف Radlov في القرن التاسع عشر وعلماء الروس المعاصرين مازالت حية بين الشعب القييرغيزي، وإن كل فرد من القييرغيز يستطيع أن يسرد أجزاء منها.

ومنذ الثورة الروسية طور القييرغيز السوفيات نوعا جديدا من الأدب يتناول الأشكال الغربية من الرواية والمسرحية، بالإضافة إلى استعمالهم الأشكال الشعرية والملحمية التقليدية القديمة.

[1] وأحدث وأكمل ترجمة روسية لها أعدها:

U. Dzhekişev et al. eds, Manas, Moscow 1946, 370 pp.

الملحق الثالث: الحدود العالمية... ملتقى بامير

في سنوات السباق الأنجلو — الروسي كما جاء في الفصل الثاني كان موضوع تلاقي التوسع البريطاني والروسي مشكلة مثيرة، ولكن في عام ١٨٩٥م وضعت خطة على تحسين العلاقات بين روسيا وبريطانيا، وتشكلت بعثة حدود بامير لتخطيط الحدود المشتركة المعترفة، وتكونت بعثة روسية بقيادة الجنرال شفيكوفسكي Shveikovskii الذي قام بمسح الناحية الشمالية، وبعثة بريطانية بقيادة الجنرال جيرارد Gerard الذي قام بمسح الناحية الجنوبية، ثم التقت البعثتان عند بحيرة فيكتوريا: (ومن هذه النقطة إلى الشرق تم تعيين الخط الفاصل بين المصالح البريطانية والروسية في مرتفعات آسيا). وهذا مقتبس من دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشر ١٩١١م، بقلم سير توماس هـ. هولدتش Sir Thomas H. Holdich المعروف باسم الكونيل هولدتش العضو البارز في بعثة بامير البريطانية عام ١٨٩٥م.

والمصادر التالية مهمة لوصف الحدود القائمة:

تقرير محاضر هيئة حدود بامير كلكتا ١٨٩٧م، مع فصول بقلم الجنرال جيرارد والكونيل هولدتش واللفت كونيل وهاب وآخرين.

Report of proceedings of the Pamir Boundary commission, Calcutta 1897 with Chapters by Maj.Gen. Gerard Col.Holdich, Lt. Col.Wahab and others.

مناطق الحدود الهندية بقلم توماس هـ. هولدتش، لندن ١٩٠١م.

The Indian Borderland by T.H. Holdich, London 1901

مادة بامير بقلم ت. هـ. هـ. (السير هـ. هولدتش) في دائرة المعارف البريطانية،

الطبعة ١١. كمبردج- نيويورك ١٩١١ م.

العلاقات الأنجلو- الروسية الخاصة بأفغانستان ١٨٣٧- ١٩٠٧ م، بقلم وليم هابرتون، اوربانا، ايللينوس ١٩٣٧ م.

Anglo-Russian Relations Concerning Afghanistan 1837—1907 By William Habberton, Urbana, Illinois 1937

البامير ومنبع اوكسوس بقلم غ.ن. كورزون، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية. المجلد الثامن، لندن ١٨٩٦ م.

The Pamirs and the Sources of the Oxus, By G.N. Curzon, Journal of Royal Geographical Society, Vol.VIII, London 1896

وتتج عن المسح الأنجلو- الروسي اتفاق بين الحكومتين بريطانيا العظمى وروسيا القيصرية بشأن مناطق نفوذ الدولتين في منطقة بامير عام ١٨٩٥ م، والفقرات الرئيسة من كتاب هابرتون (الملحق الثالث الصفحات ٩١-٩٢) كالاتي:

عقد اتفاق بين حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وحكومة صاحب الجلالة إمبراطور روسيا، على عدم ممارسة التأثير السياسي أو التحكم — الأول إلى شمال الحدود المعين والآخر إلى جنوب الحدود المخطط.

وافقت حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا بأن الأراضي الواقعة ضمن مجال النفوذ البريطاني بين هندكوش والخط الواصل بين شرق بحيرة فيكتوريا إلى الحدود الصينية، ستشكل جزءا من مملكة بامير أفغانستان، ولن تلحق ببريطانيا العظمى، ولن يكون بها مراكز عسكرية أو قواعد.

وفي كتاب مناطق الحدود الهندية يصف هولدتش Holdich وإن كان بصفة غير رسمية إلا أنه بشكل موثوق تأثير ذلك الاتفاق.

أوجد حاجزا بيننا وبين روسيا، ولم يكن حاجزا إلزاميا — مادام هذا ذراعا يمتد لأفغانستان، يتصل بالصين مع أنامل لا تتجاوز عرضها عن ثمانية أميال، ويمكن عبورها بتحرك بسيط، ولم تشارك أفغانستان أو الصين فيها على الرغم من أن مصالحتها قد تأثرت من هذا المسح الهام وتعيين الحدود، مع الاعتبار أن أفغانستان قبلت ضمينا أكثر من صراحتها بالحصول على دهليز يصلها بالصين.

وأشار هولدتش في مقاله في دائرة المعارف البريطانية أن جميع رؤوس بامير الصغيرة مع وادي واخان أصبحت بالتالي أراضي أفغانية، ولكن لم تقام عليها مراكز عسكرية فيها حتى الآن، ومن ناحية أخرى مارست أفغانستان سيادتها على هذه الأراضي، وهكذا السير اورال شتاين Sir Aurel Stien في كتابه آثار صحراء كاثاي Ruins of Desert Cathay (مجلدان، لندن ١٩١٢م) في صفحات ٦٣-٨٥ من المجلد الثاني يصف كيف رافقته موكبة الحرس عن الأقليم في عام ١٩٠٦م، وقد جاء من طرف خفر الحدود الأفغانية خصيصا لهذا الغرض، وذكر أن السلطات الأفغانية كانت تجمع الضرائب السنوية من القيروغيز في بامير.

ويمكن تلخيص أثر معاهدة عام ١٨٩٥م عندما نقول أنه اتفاق أنجلو- روسي أصلا، وأن من أعظم نتائجها وجود حدود دقيقة لم تتوسع روسيا خلفها نحو الهند، واكتملت هذه النتيجة بإيجاد قطاع جديد من الحدود الأفغانية- الروسية برسم خط من الأراضي الأفغانية المعترفة بها سابقا إلى نقطة اعترفت بريطانيا وروسيا أنها حدود صينية.

ولم يخلق هذا العمل من تعيين الحدود حاجزا بين بريطانيا وروسيا، ولكنها جعلت خطأ فاصلا فقط بين الأراضي الأفغانية والروسية، وتم إيجاد الحاجز نتيجة اتفاق آخر مع بريطانيا؛ للاعتراف بأن الأراضي الأفغانية ضمن مجال النفوذ البريطاني بين هندكوش الخط السائر من الطرف الشرقي لبحيرة فيكتوريا

إلى الحدود الصينية.

وحافظ الروس القياصرة والشيوعيون بثبات على حدود ١٨٩٥م، مادامت تحقق مصالحهم والمصالح البريطانية، كما حافظ البريطانيون عليها حتى نهاية حكمهم في الهند، ولم تكن لهم اتصال مع الروس عبر هذا الحاجز، وأظهر الأفغان رضاهم على هذا الوضع، والمسألة الوحيدة التي مازالت مفتوحة هي مشكلة الحدود الصينية في منطقة بامير.

ونتيجة تسوية عام ١٨٩٥م والنشاط النسبي لهذا الحاجز الأفغاني بين الأراضي البريطانية والروسية يمكن تخطيطها كالآتي:

مع أن تخطيط هذا الحاجز كان من عهد الاتفاق الأنجلو - الروسي في عام ١٨٩٥م، لكن استقرار حدود بامير المعقد لم يعتمد فقط على هذا الاتفاق ورضى الأفغان به، حيث إن كل دولة لها حدود مع الصين تعتمد على الرضى الروسي-الصيني، والأفغاني - الصيني، والأنجلول الصيني، فمثلا إذا توسع الروس أو البريطانيون إلى الأراضي الصينية يعني انتهاء الحاجز الأفغاني، فالشريط الأرض الأفغاني يفقد دوره الحاجز، وتكون الحدود الروسية البريطانية على احتكاك مباشر.

وفي هذا السياق من المفيد التذكير بأن التركة البريطانية وبامير كانت من نصيب ورشين هما باكستان والاتحاد الهندي، ويتنافس هذان الوريثان على كشمير بالإضافة إلى محميات قبلية صغيرة مثل جلجيت وهونزا وناغار في أعالي هندوكوش، وهكذا حدود بامير أوجد ثغرة جديدة في منطقة الحدود بين

الاتحاد الهندي وباكستان والصين.

وفي أيام التسوية الأنجلو- الروسية في عام ١٨٩٥م كانت الصين دولة ضعيفة فتجنبت الالتزام، وكانت السياسة الصينية حينذاك وبعدها تتجنب بقدر الإمكان الإصرار على الحقوق الصينية مع القوى العظمى، وفي نفس الوقت تحاول الاحتفاظ ببعض الحقوق التقليدية في السيادة والتحكم في غرب وجنوب سنكيانغ، ومثال ذلك حقوق السيادة بصرف النظر عن الحكم، واستمرت في جمع الجزية من هونزا، بينما الحقيقة أن قوات كشمير بقيادة الضباط البريطانيين احتلتها، واستمر أمير هونزا أن يرسل الجزية مع الهدايا تفوق قيمتها عن الجزية نفسها.

وقد سمح البريطانيون من جانبهم استمرار هذه العادة القديمة التي استمرت إلى سنوات ١٩٢٢-١٩٢٤م، على لسان س.ب. اسكرين C.P>Skrine الذي كان القنصل البريطاني في سنكيانغ، في كتابه آسيا الوسطى الصينية^[1]، وفي نفس الوقت كان أمير هونزا لا يرضى من جانبه فقط الحقوق الرعوية لقبائل هونزا في البامير، بل بحق جمع أجور الرعاة الآخرين الذين يرعون مواشهم في بعض تلك الأراضي، وقد انتهكت هذه الحقوق التقليدية التي عرفت بالمرتفعات الرعوية في ساري كول من السلطات الصينية في سنكيانغ في عام ١٩٣٦م، عندما تم القبض على رجلين من رجال أمير هونزا في ساري كول مع ثلاثمائة رأس غنم^[2]، وبناء على ما ذكر فالحدود الباميرية بين الإمبرطورية القديمة في الهند والأراضي الصينية في سنكيانغ يجب أن تسمى (حدود غير مستقرة).

فالمناطق التي كانت ضمن الأراضي البريطانية وقعت منها جيلجيت وهونزا وناغار التي كانت ضمن كشمير تحت حكم باكستان، بينما أصبحت كشمير

[1] C.P. Skrine, Chinese Central Asia, London 1926, p.21

[2] K.P.S. Menon, Delhi-Chungking, Bombay, London 1947 pp.28-31

منطقة نزاع بين باكستان والاتحاد الهندي، وفي هذا الجو غير المستقر صارت الحدود المشتركة مع الصين وخاصة مع روسيا أكثر إثارة، وذات حساسية كبيرة، وطرق القوافل ضيقة جدا، ولا تسمح بمرور إلا عربات صغيرة جدا، كما أن المنطقة قاحلة بحيث لا يمكن حركة مجموعات كبيرة من الجند، أو إنشاء قواعد عسكرية، ولكن مع الوضع القديم للخرائط البريطانية التي تشير على عدم الاحتكاك بين الحدود الهندية البريطانية والأراضي الروسية، ولكن من خرائط الصحف تظهر حدود مشتركة بين الأراضي التي تدعي ملكيتها باكستان (أو الاتحاد الهندي) والسوفيات في البامير.

ويمكن تتبع تاريخ الاضطرابات في المنطقة جزئيا من حيث الحدود البريطانية الهندية- سنكيانغ، وبين الحدود الروسية-الصينية، أو الحدود الأفغانية- الصينية، وخلال فترة وجيزة لم يوجد سجل رسمي عن قبول الصين بالحدود الروسية - الصينية، والأفغانية- الصينية، حتى بعد التسوية الأنجلو- الروسية في عام ١٨٩٥م كما لم يسجل أي نزاع.

وفي عام ١٨٩٥م ظهر موقف بريطاني يقول أن ساري كول وتاغ دومباش Taghdumbash من بامير، وإن كانت تخص أحدا في العالم فإنهما تخصان الصين، وفي تقرير هيئة بامير في الفصل الرابع «تقرير عن المسح» بقلم اللفت كونييل ر.ه. وهاب Lt.Col. R.H. Wahab في صفحة ٤٩ تظهر الفقرة التالية:

بالإضافة إلى الرغبة في تحسين معرفتنا بالمنطقة، ومن المهم أولاً أن نؤكد أن المنطقة التي تمتد فيها الحدود الصينية معترف بها فعلا، وتحقق الحدود بالاندفاع نحو الشرق حتى نصل إلى العلامات التي تركها الكولونيل هولدتش والميجر وهاب مع مساحين المعسكر في الرابع من سبامبر ١٨٩٥م، وعبروا ممر بايك Payik في الخامس منه ووصلوا نهر تاغ دومباش Taghdumbash الفرع الرئيس لنهر ياركند في السادس منه، فوجدوا قاعدة عسكرية صينية

تتكون من جنود أربع، وفي السابع اتجه الكولونيل هولدتش مع السيد ماكارتييني Macartiny نحو الشرق عبر الوادي إلى تاشقورغان، بينما توجه الميجر وهاب غربا إلى تاغ دومباش بامير، ولم يلاحظا علامات الاحتلال الصيني في هذا الاتجاه مع أن خيام قبائل القيرغيز كانت موجودة على مسافة قريبة من الوادي، الذي كان معترف بتبعيته الصينية.

ويبدو منطقيا من خلال قراءة هذا النص الاستعداد البريطاني في ذلك الوقت بقبول الادعاء الصيني لكامل تاغ دومباش بامير، ومن طرف آخر استعد البريطانيون في ذلك الوقت أيضا الاعتراف بسيطرة الروس على القيرغيز في تاغ دومباش بامير غرب المعسكر الصيني الصغير، الذي ذكره الميجر وهاب، والنص يدعم هذا الرأي كما يظهر في الفصل الرابع من تقرير الكولونيل هولدتش « الوصف الجغرافي العام لبامير في صفحة ٣٩، حيث يقرر هولدتش أن الشعب القبلي: هو تمام القيرغيز، واعتقد من الأمر المسلم أن المنطقة ستكون روسية كلية، وما قابلناهم من مجموع السكان غير الروس من القيرغيز لا يتجاوز بضعة مئات، ومن المشكوك اتجاه هذه الجماعة نحو قبول السيادة الصينية مع أنهم يعيشون في الأراضي الصينية، ولا يبالون بالضرائب المباشرة، وجلود بعض الحيوانات المفترسة التي يقتلها رجالهم الصيادون تشكل الجزية الرئيسة التي تطلبها السلطات الصينية في تاشقورغان، ولكن جودة الحياة والأملاك تجذبهم بشكل كبير إلى الحظيرة الروسية، وخاصة لا توجد فوارق بشرية بين قيرغيز اليحور أو قيرغيز الاي بامير وقيرغيز تاغ دومباش، ويبدو أن هناك بعض الأدوار التاريخية عن علاقة القيرغيز بالمسيحية كما يبدو من بقايا مجتمعات مسيحية نسطورية من العصور الوسطى في آسيا.

والفقرة الخامسة من معاهدة بامير التي ستذكر هنا يجب مقارنتها بالنصوص السابقة: في هذه الفقرة تعهدت بريطانيا أن الأراضي الواقعة بين مجال النفوذ البريطاني وهندوكوش والخط الفاصل من الطرف الشرقي لبحيرة فيكتوريا

حتى الحدود الصينية تشكل جزءا من أراضي أمير أفغانستان.

ولاتقرر هذه الكلمات ذلك بصراحة، ولكن يجيز الإنتاج في النظرة البريطانية أن جنوب الحدود الروسية وشمال الحدود البريطانية أراض صينية إذا لم تكن أفغانية، والاستنتاج مدعم بخريطة الهند ما بين صفحتي ٣٧٦-٣٧٧ من المجلد الرابع عشر من دائرة المعارف البريطانية الطبعة الحادية عشرة ١٩١١م، حيث الحدود المرسومة بوضوح تؤكد أن كل من تاغ دومباش بمير منطقة صينية، حتى ممر كيليك Killik ومع ذلك بالمقارنة لهذه الخريطة نجد نص مقال السير توماس هولدتش في المجلد العشرين من الطبعة نفسها من دائرة المعارف البريطانية التي يسمي فيها أماكن بامير الروسية المعترفة بها ولا يذكر تاغ دومباش بامير في تعدادها، ومع هذا الإهمال لا يحددها للصين أو يدعيها لبريطانيا، علاوة على ذلك فإن هولدتش مسؤول عن تناقض كلماته الالفت، على الرغم أنه قال في كتابه (مناطق الحدود الهندية Indian Borderland): إن تعيين الحدود الأنجلو-الروسية أو جد حاجزا بيننا وبين الروس، وكتب أيضا نصوصا مماثلة تقريبا في كتابه المذكور، وفي قصة الحوادث التي ساهمت في فصله الثاني، وكتب تقريراً رسمياً عن حدود بامير ذكر: (الاتصال الثلاثي للإمبراطوريات الثلاثة العظمى بريطانيا وروسيا والصين، بدون أن يذكر أفغانستان، وإذا كان الغرض من إيجاد الحاجز الأفغاني هو منع التقاء الحدود البريطانية والروسية، عنئذ كيف يكون التقاء ثلاثيا لبريطانيا وروسيا والصين؟ وقد انتقد هابرتون Habberton في الفصل الخامس من كتابه العلاقات الأنجلو الروسية بنجاح في تناقض كلمات هولدتش.

ومع عدم توفر مصدر رسمي عن هذا الموضوع يبدو أنه من الممكن وضع تفسير منطقي له من خلال هيئة حدود بامير، حققت بريطانيا هدفا رئيسيا: ضمنت تأكيدا روسيا بعدم التوسع خلف الحدود، وزال الاحتكاك الأنجلو الروسي، وظهر التأكيد على الحاجز بين الأراضي البريطانية والروسية أكثر من

الاهتمام من إتمام الحدود بين روسيا وبريطانيا، وطبقا لهذا أكدت الخرائط البريطانية التقاء الأراضي الأفغانية والصينية التي تفصل بين بريطانيا وروسيا. ومن طرف آخر لم توجد رغبة في تحديد رسمي للحدود البريطانية والصينية في هذه المنطقة؛ لعدم الاحتياج إلى تحديد كتابي، خاصة أن الصين لها مناطقها الخاصة المعترفة بها ضميا.

وهذه الفرضية مدعومة بواقعية الخرائط البريطانية التي استمرت تخطط رسم التقاء الأراضي الأفغانية والصينية حتى الثورة الروسية، وإلى وقت متأخر من عام ١٩٢٠م، وفي الواقع فإن الخريطة الملحقة في كتاب (عبر صحاري وواحات آسيا الوسطى Through Deser and Oases of Central Asia by Ella Sykes and Sir Percy Sykes) وكان السير برسي سيكس القنصل البريطاني العام في كاشغر في عام ١٩١٥م، ظهر الحاجز كأنه حاجز أفغاني صيني، ولكن سي. ب. سكارين C.P. Skrine الذي كان القنصل البريطاني في كاشغر عام ١٩٢٦م، فالخريطة الملحقة بكتابه (آسيا الوسطى الصينية Chinese Central Asia) لم تظهر الحدود الأفغانية الصينية، بل تركت للاستنتاج أن الأراضي البريطانية ممتدة حول نهاية الحاجز الأفغاني وملتصدة بالحدود الروسية.

وبالمماثلة مع توضيح خاص جددت الخريط التي ألحقت في كتاب (ما بين الأوكسوس والاندوس Between the Oxus and the Indus المطبوع في لندن ١٩٣٥م) الذي كتبه الكولونيل ر.سي. أف شومبرغ Col.R.C.F.Schomberg الذي جال في سنكيانغ وبامير بشكل واسع وكثيف، وجعل بدون أخطاء الأراضي البريطانية ممتدة حول نهاية الحاجز الأفغاني، وظهر الاتصال الثلاثي لبريطانيا وأفغانستان وروسيا بدلا من بريطانيا وروسيا والصين.

مع مواصلة الفرضية أكثر لعل من المحتمل أن هذا التغيير لا يعكس فقط التحول من الصداقة بين بريطانيا والنظام الروسي القيصري القديم إلى العداء

والشكوك بين بريطانيا والنظام السوفياتي الجديد، ولكن يظهر تزايد الاهتمام البريطاني بالحكم الصيني المضطرب والمتدهور في سنكيانغ، ولا يبدو أن بريطانيا مع تغيير الاستعمال في الخرائط تستعد دبلوماسيا لمواجهة التوسع السوفياتي في سنكيانغ، أو قدوم نظام يكون أكثر ميلا مع النظام السوفيات يتعارض مع مصالحها، ولعل من الأفضل لبريطانيا أن تكون لها حدود قوية بالاتصال المباشر بالأراضي الروسية، بدلا من أن تحاول دعم نظام ضعيف أو نظام صيني عدائي يفصل بين الأراضي البريطانية والروسية.

والبحث الآن في الموضوع غير قائم؛ لأن اتساع الحكم البريطاني في الإمبراطورية الهندية قد زال الآن بزوال الحكم البريطاني منها، ولكنها تركت ميراثا متنازعا عليه، بين كل من باكستان والهند؛ لرسم الحدود الجديدة بينهما، والمطالب التي ستحاول الدولتان عمله عندما تكون مسألة تحديد حدودهما رسميا مع الصين.

وعن النزاع بين الهند وباكستان حول كشمير ينظر كتاب:

أليس ثورتر: مشكلة كشمير، في مجلة الشرق الأوسط، واشنطن، دي.سي.
المجلد الثالث، يناير - أبريل ١٩٤٩ م.

Alice Thorner: The Kashmir Conflict, Middle East Journal, Washington D.C. III, Jan-Apr. 1949

الملحق الرابع: سنكيانغ... وأول قرض أجنبي

وكان موضوع أول قرض أجنبي إلى الصين تناوله مجموعة من الكتاب حتى عام ١٩١٤م، وقبل هذا التاريخ كتب فالتاين جيرول (Valentine CheroL مدير القسم الأجنبي في جريدة تايمز اللندنية) تقريرا واضحا تاما في دائرة المعارف البريطانية الحادية عشرة، كمبردج ١٩١١م، المجلد السادس، الصفحة ٢٠٠: أن القرض الصيني الأول كان لتمويل الغزو العسكري لشمال الغرب بقيادة تسوتسون تانغ Tso Tsung-tang، ويبدو أن تأكيد جيرول كان بناء على تقريره الخاص في ملحق المجلد الثالث صفحة ٣١ للطبعة العاشرة من الدائرة نفسها لندن في عام ١٩٠٢م، ومع ذلك فإن أس.أر. واغل. S.R.Wagel في كتابه الرائد: المالية في الصين Finance in China المطبوع في شنغهاي ١٩١٤م ذكر: أن التقرير السخيف بأن القرض الصيني الأجنبي الأول كان قد بدء التفاوض عليه عام ١٨٦٥م عندما اقترضت مبالغ من روسيا؛ لتجهيز قوة عسكرية إلى إيلي، وقد تناول رأي واغل بعد سنوات تشياشييه^٥ Chia Shih-yi في كتابه المفصل: التاريخ المالي للجمهورية Financial; History of the Republic المطبوع بالصينية في شنغهاي عام ١٩١٦م في صفحة ١٠٧٠ حيث قال: يلاحظ أن القرض الذي بدء التفاوض عليه في عام ١٨٦٥م إنما كان لدفع تعويض روسيا بموجب اتفاق معاهدة إيلي، وكان استنتاج تشيا Chia مقبولا لدى د.ك. ليو D.K.Lieu في كتابه صفحة ١٣: الاستثمارات الأجنبية في الصين Foreign Investments in China للمطبوع في شنغهاي ١٩٢٩م، وكذلك عند أ.غ. كونز A.G.Coons في كتابه القروض الأجنبية العامة للصين Foreign Poublic Debit of China المطبوع في فيلادلفيا ١٩٣٠م، وأيضا عند أي. سي. اف. ريمر I.C.F.Remer في كتابه

الاستثمارات الأجنبية في الصين Foreign Investments in China المطبوع في نيويورك عام ١٩٣٣ م، الذي نهج ببساطة ممنهج ليو Lieu.

وهكذا كان رأي واغل وتشيا مقبولا، والحقيقة الأولى التي ينبغي ملاحظتها أنه لم توجد معاهدة عام ١٨٦٥ م بين الصين وروسيا، لا بالصينية ولا الروسية، أو في المجموعات الإنجليزية في هذا الموضوع، ولا في السجلات الأولية الرسمية للإمبراطورية المانشورية، وقد كانت معاهدة سانت بتروسبورغ في عام ١٨٨١ م التي تمت بين الصين وروسيا، وأعدت بموجها روسيا منطقة إيلي إلى الصين، وعلى هذا دفعت الصين تعويضا قدره ١٤٣١٦٦٤ جنيه إلى روسيا، وهذا المبلغ المضبوط الذي أكدته تشيا وليو أن الصين اقترضته في عام ١٨٦٥ م، ولكن يبدو أن هؤلاء وغيرهما من الكتاب نسبوا ما حدث في عام ١٨٨١ م، إلى عام ١٨٦٥ م، ومن الأدلة الرئيسة الوجودية يمكن الافتراض أن قرض الصين الأول كان فيما بين ١٨٦٧-١٨٦٨ م، كان من التجار الأجانب في شنغهاي (واي شانغ Wai Shang) لتمويل بعثة تسوتسونغ تانغ Tso Tsung-tang العسكرية لشمال غرب الصين.

ويوجد الدليل على هذا في السجلات الرسمية لعهد تشينغ Ching ويحتوي شيه لو Shih Lu على تفويض بتاريخ ٣٠ يناير ١٨٦٨ م، يخول تسوتسونغ تانغ على اقتراض مليون تيله من التجار الأجانب (واي شانغ) بضمانة الرسوم الجمركية البحرية، كما يخوله في نفس الوقت الحصول على مليون تيله من المدفوعات الجمركية.

والنص في هذا الموضوع كالآتي:

كان تسوتسونغ تانغ قد قدم طلبا في السابق لأخذ قرض من التجار الأجانب، ولكن مكتب الشؤون الخارجية عارضه؛ لأن الفوائد المطلوبة كانت عالية جدا، واقترح المكتب أن مبلغ تسو المطلوب يمكن الحصول عليه من مصدرين:

١. نصفه من التعرفة الجمركية.

٢. النصف الآخر قروض من التجار الأجانب، الذين يمكن مفاوضتهم من طرف الجمارك المحلية المختلفة.

وكانت هذه الخطة محل الرضى والاهتمام، وكلف تسنغ كوفان Tseng kuo-fan لإيجاد مليون تيله من الجمارك وتحويله حالا إلى تسوتسونغ تانغ للأعراض العسكرية.

وأما مليون تيله الآخر تقوم المكاتب الجمركية المختلفة في البلاد بإصدار سحبوات إلى هو كوانغ - يونغ Hu Kuang -yung وينغ باو شيه Ying Pao=shih على التفاوض مع التجار الأجانب، وأن المليونين تيله ستدفع من أموال تساهم بها مختلف المقاطعات لغرض قمع الثورة.

السجلات الحقيقية لعائلة تشنغ Taa Ching Shih lu ٣ يناير ١٨٦٨ م.

وفي كتاب تسوتسونغ تانغ يوجد رأي مخالف نوعا لباليس Bales عن الوسطة البريطانية، وبعض المواد الجديدة المعتمدة على نين بو Nien Pu في المجلد الثالث (لا يوجد الكتاب في مكتبة الكونغرس) W.L.Bales: Tso Tsung-tang ,Shanghai ١٩٣٧.

لذا قد يكون من الأفضل سرد رأيه هنا:

قدم الوزير البريطاني في بكين السير توماس وايد ir Thomas Wade إلى تسونغ لي يامين Tsung li Yamen اقتراحا، بأن يقوم يعقوب بك بالاستسلام إذا رضيت الصين ببقاء دولته تحت سيطرتها، ولكن الحكومة قابلت هذا الاقتراح ببرودة، كما أن السير توماس لم يؤكد على ذلك كثيرا، ونقل الخبر إلى تسو، وفي رسالة له إلى تسنغ بوان Tseng Yuan-fu قال تسو:

بالأمس تسلمت رسالة من تسونغ لي يامين Tsung li yamen يقول: إن السير توماس وايد كلف بترتيب استسلام يعقوب بك، وإذا كانت بريطانيا قدمت

هذا الاقتراح فلا بد أن هناك بعض الأسباب، فدعونا نفحص الظروف، عندما رغبت الاقتراض ببعض الأموال من شنغهاي فالحكومة البريطانية لم تقرضني شيئاً (الهامش ٦: ملاحظة تسو هذه توضح الاحتياج إلى استثمار أكثر للقروض الأجنبية في الصين في هذه الفترة)، وظهرت جريدة شنغهاي تقول: إن غزو سنكيانغ فاشلة بجميع الوسائل، ونشرت الجريدة تقول: إن الجيش سيهزم، وسيعود من ممر شياو هذه الأشياء تلقي بعض الضوء على الاقتراح البريطاني^[1].

وقال أحد المحللين أن الحكومة البريطانية درست الموضوع مع الوزير الصيني في لندن كو سونغ تاو Kuo Sung-tao وشرحت له بأن من الأفضل على الصين إقامة دولة مسلمة في وسط آسيا.

واستخلص أن مملكة كاشغريا ستكون مثالا لهذا الغرض، ويبدو أن كوسونغ تاو استحسنت الفكرة، ولكن عندما عرض الأمر على تسو استشاط غضبا، وأخبر تسونغ لي يامين Tsung Li yamen أن موضوع يعقوب بك ما هو إلا مسألة داخلية بحتة، وأن إنجلترا ولا غيرها لها حق التدخل فيه، وإذا أراد يعقوب بك الاستسلام فعليه أن يأتي إلى سوجو Suchow حيث سيعامل على أنه أحد الثائرين على السلطة الصينية، وأن هذه المسألة خارجة تماما عن تسونغ لي يامين، وأن الموضوع يخصه شخصيا فقط، وإذا أرادت إنجلترا إنشاء دولة إسلامية في آسيا الوسطى، فعليها أن تمده بالأراضي الشاسعة في شمال الهند^[2].

[1] Nien Pu vol.III, p.17

[2] Nien Pu, Vol.III, pp.18-27 & Bales pp.360-361

الملحق الخامس: مناطق سنكيانغ

يقع الشكل الطبيعي لسنكيانغ في ستة أقسام، بدءاً من الشمال إلى الجنوب، وقد وصفه الدكتور اس تينغ S.Ting من أكاديمية سينيك Sinica بالآتي:

١. المرتفعات الشمالية: وتشكل الحافة الشمالية لجونغاريا، ويبلغ ارتفاع معظم هذه المناطق ٥٠٠٥ قدم، كما يبلغ ارتفاع بعض قممها ٣١٠٠٠ قدم في سلسلة جبال التاي العظيمة، التي تكوّن معظم الحدود مع جمهورية منغوليا الشعبية، وهناك منطقتان هما: هضبة بورغون والأخرى وادي قرا ايرتيش المغمور بينها وبين التاي، وتصب مياه ايرتيش في اوب الذي يقطع سيبيريا إلى المحيط المتجمد الشمالي، ولا يوجد نهر غيره من سنكيانغ يصل المحيط، وجميع الأنهار تتلاشى في الداخل في الصحراء أو في البحيرات المالحة.

٢. هضبة جونغاريا: وتقع على ارتفاع يتراوح من ٦٠٠ إلى ٥١٠ قدم، وتضم منطقتين فرعيتين هما: هضبة مناس وسهل جينغو ohgnihC، ويطل عليهما من الجنوب قمم جبال تيان شان الثلجية، وعلى أي حال لا يمكن رؤيتها غالباً؛ بسبب الضباب الذي يغطي الأراضي المنخفضة، ويجري نهر مناس بشكل متقطع، كما يخرج من الجبال ويغذي مناطق شاسعة من المستنقعات، وفي سهل جينغو تلتقي الأنهار الثلاثة: جنغ وكور وبورتالا؛ لتكوّن بحيرة أبي نور المنعزلة على ارتفاع ٧٠٠ قدم، وكانت شواطئها

القديمة على ارتفاع ٠٠٣ قدم مما هي الآن، ويوجد في السهل حولها المستنقعات والكثبان الرملية.

٣. سلسلة جبال تيان شان: ذاتها تشكل منطقة مستقلة وتشغل ربع مساحة سنكيانغ، وتمتد قممها المتوجة بالثلج لمئات الأميال، وتبلغ أعلى قمة فيها- وهي خان تنغري (ملك السماء)- أكثر من ٠٠٣٢٢ قدم، وتحتها يرتفع جبل موزرات الثلجي العظيم، التي تطل عليه صخور رائعة من الرخام، وتوجد على سفوح سلسلة الجنوبية الرئيسة غابات عميقة خضراء ومروج غناء، بينما السفوح الشمالية جافة وقاحلة، وتخرق شعاب الجبال الطرق الرئيسة من جونغاريا إلى شمال حوض تاريم في الجنوب، ويقع في الطرف الجنوب الغربي وادي إيلي أو سهل غولجه الذي يرتفع ٠٠٨٢ قدم، وتعدّ هذه المنطقة من أغنى مناطق سنكيانغ؛ لسقوط الأمطار عشر بوصات في السنة، ومن المناطق الفرعية منخفض تورفان، الذي يقع بين ظلال قمم الجبال التي ترتفع تقريبا ٠٠٠٢ قدم، والمنخفض ينخفض فجأة إلى ما يقرب من ٠٠٠١ قدم تحت سطح البحر، وهنا حوض باركول وسهل اوج تورفان، ومع أن حوض باي ضمه بعض الجغرافيين إلى حوض تاريم إلا أن الدكتور تنغ gniT ضمه إلى تيان شان؛ بسبب تكوينه الجيولوجي.

٤. حوض تاريم: يعتمد على نظام المناطق المتركرة، وتكون حافة الحوض تيان شان الشمالي وكون لونغفي الجنوب و بامير والآي في الغرب والشمال الغربي، وعلى أطراف هذه الحافة يوجد حزام ضيق من المراوح الصخرية، يقترب

من مركز الصحراء الشايح ذوي الكثبان الرملية المتحركة تكلامكان، ويكون سفح الهضبة الداخلية من ٠٠٠٤ قدم في الغرب إلى ما يقرب من ٠٠٥٢ قدم في الشرق، ويجري خلال هذا الحوض أنهار خوتن وياركند وأقسو وكونجي التي تشكل نهر تاريم، وهناك أنهار صغيرة مثل كرية ونيا، تتلاشى في الصحراء قبل الوصول إلى تاريم، بينما نهر جرجن يصل إلى طرفه الشرقي، ومياه تاريم لا تصل دائما إلى مصبها الأخير في البحيرة الصحراوية لوب نور، ولكن تنتهي في مناطق شائكة غامضة، وقد قامت واحات تاريم على الأنهار في النقاط التي تغادرها إلى الأراضي الصخرية الضيقة وتلتقي بالصحراء الشاسعة.

٥. مرتفعات بي شان: تقع على الطرف الشمالي لحوض تاريم منطقة صحراوية جبلية، تشكل الطرف الشمالي لممر كانسو، الذي يصل شمال غرب الصين بسنكيانغ.

٦. والسلاسل الشمالية لهذه الجبال يسميها المغول ميغن أولا $alO\ niHceM$ جبال القرو، وفي تصنيف الدكتور تينغ $gniT$ تسمى بالصينية هسينغ هسينغ هسيا $gnisH\ gnisH$ $aisH$ أي: وادي القرو، وهناك أسطورة قديمة بهذه المنطقة عن رجل قرد يمسك بالبشر، وتتصل بهذه المرتفعات هضبة لوب التي تعرف بالصينية بحطام التين الأبيض، وترتفع شرق منخفض لوب، وتعمل منطقة فاصلة بين أنهار تاريم وسولو وقوروغ تاغ الجبال القاحلة، وتبلغ أعالي مسطحات هذه المرتفعات ٠٠٠٥ قدم على مستوى هضبة قديمة مترابطة بجبال قوروغ تاغ، وهو تكوين قديم لصخور متحولة، وفي تصنيف الدكتور تينغ $gniT$ هو

ضمن مجموعة بي شان و ليس من تيان شان، والمنطقة الفرعية حوض قرا شهر المنطقة المحيطة بحيرة بغراش كول على ارتفاع ١٠٣٣ قدم، بصحراء ينتهي في شرقها وكشان رملية في جنوبها ومستنقعات في شمالها وغربها. ٧. مرتفعات كون لون: تشكل السور الجنوبي لسنكيانغ، عندما يشاهد من الصحراء تجدها تكون الحائط الجبلي ومن قمته تبدأ هضبة التبت الشمالية على ارتفاع يزيد عن ١٠٠٠٢ قدم.

الملحق السادس: تربة سنكيانغ

فقد تكونت تربة سنكيانغ نتيجة عوامل الطقس الميكانيكية، وظهرت غلابة قلة الأمطار وجفاف الهواء والاختلاف العالى بين درجات الحرارة بين الليل والنهار، والتربة القلوية، تكونت من جريان الماء في الرمال على طول حواف التلال حيث الأملاح الذائبة على الأراضي المنبسطة تحت الكثبان.

وتجد تربة الغابات البنية وتربة مروج الحشائش العالية على المنحدرات العليا لجبال تيان شلن، وأما في المنحدرات السفلى الشمالية لتيان شان توجد التربة الكستنائية على المنحدرات البسيطة على حواف السلسلة، وبعد ذلك في السهول والمنخفضات توجد التربة القلوية والتربة الصحراوية، وكثبان الرمال، وأما في الجهة الجنوبية وهي الناحية الجافة من هذه الجبال، فالتوزيع الرأسي أكثر شذوذاً، وفي المرتفعات العالية تقل تربة الغابات ذات اللون البني وتربة الحشائش من الطرف الشمالي.

وأما حواف التلال مغطاة بصخور صماء على طول السفوح، وبين خلالها توجد التربة ذات اللون الكستنائي الخفيف، والتربة القلوية في المنخفضات بين التلال، وفي المناطق التي تقع بين الصحاري الزاحفة والأراضي الصلبة، فالتربة العالية طينية والتربة المنخفضة قلوية، وتمتد على مسافة بعيدة من الجبال إلى التربة الصحراوية وكثبان الرمال.

وماعدا غابات سفوح جبال كون لون المطل على حوض تاريم الممتد جنوباً في مواجهة جبال تيان شان، لا توجد غابات أخرى في أعالي كون لون، والتربة الموجودة غالباً غير متطورة، ولا توجد معلومات عن تربة التاي أو شمال

حافة جونغاريا.

تختلف التربة الكستنائية من سفوح الجبال المنخفضة على جنوب حافة جونغاريا، ومن سهل غولجه التربة من السواد إلى البني الفاتح، والغطاء الطبيعي النموذجي هو العشب القصير، والتربة الكستنائية الخفيفة صالحة للرعى فقط، وأما الطبقات السميقة فهي صالحة للزراعة الجافة، كما وجدت التربة القلوية في الأراضي المنخفضة ذات الاستنزاف السيء حيث التربة الغرينية أصبحت قلوية، وإنتاجها قليل، كما لوحظ ذلك خاصة بين قرى شهر وبوكور وفي قراشهر وينكي حصار وياركند، وعلى جانبي نهر خوتن وتاريم التربة الصحراوية على الرغم أنها ضعيفة عضويا، ولكن يمكن الاستفادة منها بالزراعة إذا وجدت وسائل الري في واحات قمول وبى تشانغ Pi Chang وتورفان وتوقسون.

الملحق السابع: الزيت في سنكيانغ

المعروف منذ وقت طويل وجود منابع الزيت في سنكيانغ، والزيت المتسرب مع زيت الخضار كان يستعمل للإضاءة، كما أن الزيت الخام يستعمل في تشحيم العجلات.

وقد عرفت رواسبها على طول جبال تياشان شمالا وحنوبا، كما اكتشف حديثا في أقصى جنوب سنكيانغ على طرف هضبة التبت، ويوجد الزيت في شرق سنكيانغ في غرب مدخل كانسو، وفي أقصى الشرق، حيث يستعمل في نطاق حدود شمال مقاطعة شنسي Shensi قرب عاصمة الشيوعيين في ينان Yenan أيام حروبهم، ولا بد أنه قد عرفت العلاقة الجيولوجية بين هذه الرواسب في الصين وبين حقول الزيت في منطقة قزوين في الأراضي السوفياتية أو في إيران والشرق الأوسط.

وفي عام ١٩٤٨م وزعت الهيئة الصينية للمصادر الوطنية منشورا يؤكد اكتشاف الزيت على حدود سنكيانغ — جينغهاي Chinghai تقريبا على الطريق المعبد بين هاتين المقاطعتين، وأخذ السيد سي. ه. وو C.H.Wu سكرتير عام الهيئة أن الحقل في تيمورليك قرب الحدود من حوض تساي دام Tsaidam أي الأجزاء السفلى من هضبة التبت ما بين خط ٨٠ و ٩٢ طولاً و ٣٦ و ٤٠ عرضاً، وقد اكتشف قسم التنقيب بفرع وكالة الهيئة الوطنية للمصادر لشركة بترولوم الصينية في كانسو - جينغهاي ذلك، وبناء على قول الدكتور وو Wu: إن الدراسات السطحية أكدت وجود أكثر من عشرين منطقة زيت تحت الرمال، وأن أسماك المنطقة على عمق ثلاثة أمتار، وجميع المناطق تقع الفراش الأحمر من العصر الثالث.

ومن بين الحقول المعروفة سابقا يوجد أحدها قرب اورومجي، وكان يستغل عندما يتعذر الحصول على الزيت من روسيا، ويعرف أن هذا الحقل هو من العصر الجوراسي.

وهناك حقل صغير باسم جوشانتز Jushantze يقع على بعد عشرين كيلومتر في الجنوب الشرقي من ووسو Wusu على منتصف الطريق من اورومجي وغولجه، وهي آبار ضحلة تنتج زيت البارفين المركز تحت الضغط الطبيعي، ولا توجد معلومات حديثة عن هذا الإنتاج.

وعندما انسحبت روسيا من سنكيانغ عام ١٩٤٢م، ردمت ٢٥ بئرا مما أعادتها إلى سلطات المقاطعة، التي كانت تنتج من ٤٩-٥٢ زيت الجاذبية على بعد ٤٨٠٠ قدم، ومن المحتمل أن هذه الآبار كانت في منطقة جوشانتز Jushantze مع التأكيد بعودة الروس إليها في وقت آخر؛ لاستغلالها، ولكن معظم الآلات ذهبت مع انسحابهم.

Sources:

Information from Chinese National Resources Commission, Supplied by United States Department of Commerce, see also: Huang Chi-c`ing, Report on Geological Investigation of Some Oli-Fields in Sinkiang by T.K. Huang and others, Nanking, National Geological Survey of China 1947, No.21 of Series A of Memoirs of Geological Survey of China, Text in English

الملحق الثامن: بعض أسماء الأماكن في سنكيانغ ومرادفاتها

(الأسماء الأويغورية ومرادفاتها الصينية)

الاسم الصيني	الاسم الأويغوري
wen-su	اقسو
Pai-ch`eng	باي
Pei-ta-sha	باتيك بوغدا
Pa-li-k`un , Chen-his	باركول
Ch`ieh-mo	جرجن
Cho-chiang	جارقليق
T`e-le	جيرا
T`a-ch`eng	جو كوجاك — تاربغتاي
P`i-shan	كوما بازار
Shu-le	كاشغر
Yu-t`ien	كربا
Mo-yu	قراقاش
Yen-ci , Yenki	قراشهر
Yeh-ch`ing	قارغيليق
Ho-tien	خوتن

Hami	قمول
Kuche	كوجار
Ch`i-t`ai hsien , Khitai	كوجنغنز
Ining	غولجه
Sui-lai	مناس
Ch`eng -bua-ssu	شاراسوم
A-Ch`eng	التاي
Tien Shan	تنغري تاغ
T`u-lu-fan	تورفان
So-che	ياركند
Ti-hua	اورومجى
	كورلا
	لوب نور
	مركت
	مارالباشي
	اوج تورفان
	ينكي حصار
	لوكجون
	تاريم

انتهى وبالله التوفيق